مقررات دبلومات معاهد إعداد معلمي القرآن الكريم

تفسير القرآن الكريم وتدبره

الجزء الأول

الدبلوم - الدبلوم العالي

١٤٣٩ - ١٤٤٠هـ







تفسير القرآن الكريم وتدبره

الجزء الأول

الدبلوم – الدبلوم العالي

١٤٣٩-١٤٤٠هـ





ح مركز معاهد للاستشارات التربوية والتعليمية، ١٤٣٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مركز معاهد للاستشارات التربوية والتعليمية

تفسير القرآن الكريم وتدبره – الجزء الأول. / مركز معاهد

للاستشارات التربوية والتعليمية .ط٢– الرياض، ١٤٣٩ هـ

٢٩٩ ص ؛ ٢١ × ٢٥.٥سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٢٢٥-٢٩-٥

١– القرآن . مباحث عامة – أ.العنوان

ديوي ٢٢٩   ٩١٣٧/ ١٤٣٩

رقم الإيداع: ٩١٣٧ / ١٤٣٩

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٢٢٥-٢٩-٥

تم إعداد المادة العلمية

ومراجعتها بواسطة

فريق من المتخصصين

مشروع بناء مناهج معاهد إعداد

معلمي القرآن الكريم

إحدى مبادرات

مركز معاهد للاستشارات التربوية والتعليمية



برعاية



مركز معاهد للاستشارات التربوية والتعليمية

بيت خبرة في تأسيس المعاهد القرآنية وتطويرها

الرياض- الدائري الشرقي- بين مخرجي ١٣ ، ١٤

هاتف: ٠١١٤٥٥٤٠٤٩

فاكس تحويلة: ١٠٩ – ص.ب: ٢٣٦٤٦٥ الرياض ١١٣٣٢

info@m3ahed.net

www.m3ahed.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير



الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحابته ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين، أما بعد:

تشهد حلقات ومدارس تحفيظ القرآن الكريم الخيرية للبنين والبنات بالمملكة العربية السعودية - بحمد الله - إقبالاً متزايدًا، حيث بلغت أكثر من (٥٨,٠٠٠) حلقة، يدرُسُ فيها ما يزيد عن (١,٠٠٠,٠٠٠) طالب وطالبة، ويعمل فيها أكثر من (٦٤,٠٠٠) معلم ومعلمة وإداري وإدارية.

في ضوء ذلك جاءت الحاجة ماسَّة للعناية بالمعلمين والمعلمات، بوصفهم أبرز عناصر التأثير في العملية التعليمية؛ لذا تم افتتاح أكثر من (١٢٠) معهدًا لإعداد معلمي ومعلمات القرآن الكريم في المملكة حتى نهاية عام (١٤٣٧هـ)، مما أحدث نَقْلَةً في عمل الحلقات والمدارس القرآنية.

ونظرًا لأهمية هذه المعاهد؛ فقد اعتنى القائمون عليها بأبرز عناصر العملية التعليمية فيها وهو (المنهج)، حيث بُنِيَت مناهج متعددة تم تطبيقها في هذه المعاهد، ويتراوح تاريخ هذه المناهج بين (١٣-٢٠) عامًا تقريبًا، ساعدت بفضل الله تعالى في تخريج معلمين ومعلمات ساهموا في تعليم القرآن الكريم في هذه الحلقات والمدارس القرآنية.

ويُمَثِّل (المنهج) بمفهومه الواسع جميع الخبرات التي تُقدَّم للدارسين؛ ليكتسبوها تحت إشرافها بُغية تحقيق أهداف التعلُّم المرغوبة، وهو جَوْهَرُ عملية التعلُّم؛ لِما يحتوي عليه من القيم والمهارات والمعارف المرغوبة. ونظرًا لما يُمثله من أهميّة، فبدَهيٌّ أن يكون هو المحور الرَّئيسُ الذي تدور حوله العمليات التطويرية للتعلُّم.

ولأهمية تطوير مناهج إعداد المعلمين في هذه المعاهد، حيث تُشير الاتجاهات الحديثة في تطوير المناهج إلى أن دورة هذا التطوير تكون في المتوسط بين (٣-٥) سنوات؛ فقد جاءت الحاجةُ ماسَّةٌ إلى بناء مناهج لمعاهد معلمي القرآن الكريم؛ مُواكبة لأبرز الاتجاهات التربوية الحديثة، والخبرات العالمية

المعاصرة في هذا الاتجاه.

وكان لـ "مركز معاهد للاستشارات التربوية والتعليمية" بالرياض، بوصفه بيْتُ خِبرَةٍ في تأسيس المعاهد القرآنية وتطويرها، مبادرة مباركة – بإذن الله – تستهدف أبرز عناصر العمل التربوي والتعليمي في مجال تعليم القرآن الكريم وهو المعلم؛ من خلال طرح مشروع "بناء مناهج معاهد إعداد معلمي القرآن الكريم"، برعاية من "أوقاف نورة بنت عبدالرحمن الراجحي – رحمها الله تعالى –"؛ بغرض تخرِيجِ مُعلمين ومُعلمات ذوي كفاءة علمية وتربوية؛ لتعليم القرآن الكريم، ويستهدفُ التطبيق – بإذن الله – المعاهد القرآنية (الرِّجَاليَّة والنِّسَائِيّة)، وما في حكمها؛ من مشاريع وبرامج ومبادرات داخل المملكة وخارجها.

ويتضمن مشروع "بناء مناهج معاهد إعداد مُعلمي القرآن الكريم" ثماني مراحل هي كما يلي:

١. دراسةُ واقعِ المناهج القائمة، وتقييمها.

٢. التخطيط للمشروع.

٣. تشكيل الفرق الفنية والإدارية للمشروع.

٤. بناء وثيقة المنهج لـ "دبلومات إعداد مُعلمي القرآن الكريم".

٥. إعداد المقرَّرَات التعليمية.

٦. التطبيق الأوَّلِي للمقررات التعليمية المُصاحبة.

٧. تعميم المقررات التعليمية.

٨. المتابعة والتقويم المستمران للمقررات التعليمية.

وتكلَّلَت جهود النِّصف الأول من المشروع – بفضل الله تعالى – ببناء "وثيقة منهج معاهد إعداد معلمي القرآن الكريم"، حيث احتوت على برنامجين أكاديميين هما:

١. دبلوم إعداد مُعلمي القرآن الكريم.

٢. الدبلوم العالي لإعداد مُعلمي القرآن الكريم.

وقد بُنيت هذه الوثيقة وفق الطريقة العلمية لصناعة المنهج، ولها أهميةٌ كُبرى بوصفها الخطوط

العريضة لتطوير عمليات التعلُّم في المعاهد وجميع العناصر المؤثرة في ذلك، إضافة إلى بناء المقررات التعليمية المُصاحبة لها، حيث راعت المواصفات العلمية والفنية المعتبرة في بناء المناهج التعليمية، إضافة إلى تحقيقها مطالب "الإطار الوطني للمؤهِّلات للتعليم العالي في المملكة" الصادر عن الهيئة الوطنية للتقويم والاعتماد الأكاديمي، وأيضًا تحقيقها مطالب "وثيقة المعايير الأكاديمية لمحتوى دبلومات معلم القرآن والقراءات" في مؤسسات التعليم العالي الصادرة عن نفس الهيئة.

ويأتي مقرر (**تفسير القرآن الكريم وتدبره بجزأيه الأول والثاني**) الذي بين أيدينا، بوصفه أحد المقررات التعليمية في الدبلومين المُشار إليهما، حيث تم إعداده في ضوء "وثيقة منهج معاهد إعداد معلمي القرآن الكريم" المعتمدة؛ ويُعنى هذا المقرر بتزويد الدَّارس بمعرفة مصادر التفسير وكيفية التعامل معها، وأصول علم التفسير، بالإضافة إلى تفسير تحليلي لآيات من سورة الأعراف وسورة الكهف، وتفسير سورة النور كاملة، كما يُزوّد الدارس بمقدمات التدَبُّر العلمية اللازمة لتنمية مهارة التدَبُّر لديه، ويتدرب على ذلك من خلال تدبُّر الجزء التاسع والعشرين والجزء الثلاثين.

نسأل الله تعالى أن يُبارك بالجهود ويُحقق الأمل المنشود، وأن يشكر سعي كلّ من شارك في المشروع، وبخاصة راعيه "أوقاف نورة بنت عبدالرحمن الراجحي - رحمها الله تعالى - ".

وصلى الله على نبينا مُحمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

والله الموفِق

إدارة المشروع

* * *

المحتويات

مقدمة المقرر



الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، وأشهد أن لا إله إلا الله الولي الأكرم، وأشهد أن مُحمدًا رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم.

وبعد: فعِلْمُ التفسير من أشرف العلوم مِقدارًا وأرفعها شرفًا ومنارًا، لتعلُّقِهِ بأعظم الكتب وأجلِّها، ولهذا العلم قواعده وأصوله وآدابه، وللمفسِّرين مناهج شتّى وطرائق متنوعة، كلّها تخدمُ في فَهم وبيان معاني كلامِ ربِّنا القدُّوس السَّلام، وإثراءُ العلوم وجلاء الأفهام؛ لذا كان من الأهمية لطالب العلم دراسة تاريخ التفسير وأصوله وقواعده، والوقوف على أنواعه وأقسامه، ومعرفة اتجاهات المفسِّرين.

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمِلَ في موضع فُسِّر في موضع آخر، فإن أعْيَاكَ ذلك فعليك بالسُّنة؛ فإنها شارحةٌ للقرآن وموضحةٌ له، بل قد قال الإمام أبو عبدالله مُحمد بن إدريس الشافعي – رحمه الله – : "كلّ ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن". قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النساء:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ

ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ [النحل:٦٤]؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»[١] يعني: السُّنَّة.

ومن هذا المُنطلق كان هذا المقرر الدِّراسي الذي يُعنى بالتأصيل والتنظير، إلى جانب التطبيق، من خلال تفسيرٍ تحليليٍّ لسورة النُّور، وجزء من سورة الكهف، يُراعَى فيه بيان المناسبات، وذكر أسباب النزول - إن وُجِدت - وبيان اختلاف القراءات، وذِكر مُشْكل الإعراب ودَقَائِقه، واستخلاص اللطائف البلاغية، مع تفسيرٍ عامٍّ مُجملٍ للآيات، وبيانٍ لِما يُستفاد منها ويُستنبط.

وفي هذا المقرر أيضًا حديث عن التَدَبُّر معناه وأهميته، وأصوله وآدابه، مع دراسة عمليّة لتدبُّر بعض الآيات والسُّور.

والله نسأل أن يُوفِّقنا وطلابنا لِما يُحب ويرضى.

* * *

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: (٤/١٣١)، وأبو داود في السُّنن: (ح٤٦٠٤)، من حديث المقدام بن معدي كرب ﵁.

الأهداف العامة للمقرر:

١. يشرحُ الدَّارسُ أبرز المفاهيم الأساسية المتعلقة بأصول التفسير.
٢. يشرح الدَّارسُ أبرز المفاهيم الأساسية المتعلقة بالمفسِّر.
٣. يُطبِّقُ الدَّارسُ أسلوب التفسير التحليلي لسور: (الأعراف، والكهف، والنور) من خلال أبرز كتب التفسير المشهورة.
٤. يُناقشُ الدَّارسُ مفهوم التدبُّر، والمفاهيم المرتبطة به.
٥. يُبدي الدَّارسُ اهتمامًا بتدبُّر القرآن وفْقَ المنهجيَّة الصحيحة للتَدَبُّر.

الوحدات الرئيسةُ للمقرر:

الوحدة الأولى: مفاهيمُ أساسيَّةٌ تتعلق بأصول التفسير.

الوحدة الثانية: مفاهيمُ أساسيَّةٌ تتعلق بالمفسِّر.

الوحدة الثالثة: التفسير التحليلي، وتطبيقاتٍ عليه.

الوحدة الرابعة: مفهوم التدبُّر والمفاهيم المرتبطة به.

عدد المحاضرات:

الدبلوم: (٩٦) **محاضرة.**

الدبلوم العالي: (٤٨) **محاضرة.**

الوحدةُ الأُولى



مفاهيمُ أساسيّة تتعلق بأصول التفسير

أهداف الوحدة:

يُتوقع من الدارس بعد إنهائه هذه الوحدة أن:

(١) يشرح مفهوم التفسير لُغةً واصطلاحًا.

(٢) يُوضِّحُ فائدة أصول التفسير.

(٣) يوضح فضل علم التفسير.

(٤) يُفرِّقُ بين التفسير والتأويل.

(٥) يشرح مفهوم أصول التفسير.

(٦) يُناقش نشْأَةَ التفسير، ومراحل تطوره.

(٧) يُناقش طرق التفسير.

(٨) يُفرِّق بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي.

(٩) يُوضح أبرز المؤلفات في كُلِّ طريقٍ من طُرِق التفسير.

مُفرَدَاتُ الوحدة:

الموضوع الأول: التعريف بالتفسير، وبيان مكانته وفضله.

الموضوع الثاني: نشأةُ التفسير، ومراحل تطوره.

الموضوع الثالث: طُرق التفسير.

الموضوع الرابع: مناهج المفسِّرين.

عدد المحاضرات:

الدبلوم: (٢٤) محاضرة.

الدبلوم العالي: (١٢) محاضرة.

تمهيد:

التفسيرُ من أجَلِّ علوم الشَّرِيعة، وأرفعُهَا قدرًا، وهو أشرف العلوم موضوعًا وغرضًا وحاجةً إليه؛ لأنَّ موضوعه كلام الله تعالى الذي هو يُنْبُوع كُلّ حكمة، ومعْدِنُ كلّ فضيلة؛ ولأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الحقيقية، وإنما اشتدت الحاجة إليه؛ لأن كلّ كمال ديني أو دنيوي لا بدَّ وأن يكون موافقًا للشرع، وموافقته على العلم بكتاب الله(١)؛ ولهذا عظَّم الله محلّه بقوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة:٢٦٩]، قيل: هو تفسير القرآن، وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المزمل:٥]، قال المفسّرون: أي علم معانيه، والعمل بها(٢).

* * *

(١) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: (١٧٥/٢).

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز: (٣٤/١).

الموضوع الأول
التعريف بالتفسير وبيان مكانته وفضله



تعريف التفسير في اللغة والاصطلاح:

التفسير في اللغة:

فَسَرَ: الفاء والسين والراء كلمةٌ واحدةٌ تدلُّ على بيانِ شيءٍ وإيضاحِهِ(١)، وقوله عز وجل: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣]، أي: أحسن تفصيلاً، والفَسْرُ كشف المُغَطّى، والتَّفْسير كَشف المُراد عن اللفظ المُشْكل(٢).

وقال الرَّاغب – رحمه الله – : "الفَسْرُ والسَّفْرُ: يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، لكن جُعِل الفسر لإظهار المعنى المعقول... وجُعِل السفر لإبراز الأعيان للأبصار، فقيل سفرت المرأة عن وجهها وأسفر الصبح"(٣).

فمعنى التفسير يشمل: البيان، والإيضاح، والكشف.

التفسير في الاصطلاح:

للعلماء في تعريف التفسير اصطلاحًا أقوالٌ عديدةٌ، منها:

قول الزركشي – رحمه الله – : "علم يُفهم به كتاب الله المنزل على نبيه مُحمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمه"(٤).

---

(١) ابن فارس، مقاييس اللُّغةِ: (٥٠٤/٤).

(٢) ابن منظور، لسان العرب: (٥٥/٥).

(٣) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، بدون تاريخ، دار التراث العربي القاهرة (١٤١٠هـ)، ط.٣: (١٤٨/٢).

(٤) المرجع السابق: (١٧٤/٢).

وعرَّفه أبو حيان – رحمه الله – بأنه: "علمٌ يُبْحَثُ فيه عن كيفيةِ النُّطْقِ بألفاظِ القرآنِ، ومدلُولاتِهَا وأحكامِها الإِفرَادِيَّةِ والتَّركِيبِيَّةِ، ومعانيها التي تُحْمَلُ عليها حالةَ التَّركيبِ وَتَتِمَّاتٌ لذلك"[١].

وعرَّفه ابن عاشور – رحمه الله – بأنه: "اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يُستفاد منها باختصار أو توسع"[٢].

والمُختار من هذه التعريفات: هو تعريف الزركشي الأول؛ لوضوحه وشموله وتناسبه مع ما ينبغي أن يكون عليه التفسير، من بيان معاني القرآن، ومعرفة أحكامه وحِكَمه، ومقاصده وأهدافه.

التأويل:

التأويل: من الأوّل، أي: الرُّجوع إلى الأصل، ومنه: المَوئِل للموضع الذي يُرجَعُ إليه، وذلك هو ردُّ الشيء إلى الغاية المُرادة منه، علمًا كان أو فعلاً[٣]، ويُقال: أوَّلَ الكلام تأويلاً، وتأوله: أي دبَّرهُ وقدَّرهُ وفسَّرهُ.

وعلى هذا فتأويل الكلام له معنيان:

المعنى الأول: تأويل الكلام، بمعنى ما أوَّلهُ إليه المتكلّم، أو ما يؤُول إليه الكلامُ ويرجِعُ، والكلام إنما يرجع ويعود إلى حقيقته التي هي عينُ المقصود.

المعنى الثاني: تأويل الكلام، أي تفسيره وبيان معناه، وهذا ما عناه ابن جرير الطبري في تفسيره بقوله: (القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا) وبقوله أيضًا: (اختلف أهل التأويل في هذه الآية) فإن مُراده التفسير، ومن هذا يتضح أن التفسير والتأويل لفظان مُترادفان في أشهر المعاني اللغوية.

الفرق بين التفسير والتأويل:

اختلف العلماء في الفرْقِ بين التفسير والتأويل، ويُمكن أن نستخلص أهم الآراء فيما يأتي:

١- إذا قلنا: إن التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه، فالتأويل والتفسير على هذا متقاربان

---

(١) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، دار إحياء التراث العربي، سنة (١٤١١هـ) ثانية (١٣/١).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر – تونس (١٩٨٤هـ): (١٠/١).

(٣) الرَّاغب، المفردات في غريب القرآن: (ص٩٩).

أو مترادفان، ومنه دعوة رسول الله ﷺ لابن عباس: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»[(١)].

٢- وإذا قلنا: إن التأويل هو نفس المراد بالكلام، فتأويل الطلب نفس الفعل المطلوب، وتأويل الخبر نفس الشيء المُخبَر به، فعلى هذا يكون الفرقُ كبيرًا بين التفسير والتأويل؛ لأن التفسير شرحٌ وإيضاحٌ للكلام، ويكون وجوده في الذِّهن بتعقله، وفي اللسان بالعبارة الدَّالةِ عليه، أما التأويل فهو نفس الأمور الموجودة في الخارج، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا هو الغالب في لغة القرآن، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس:٣٩]، فالمراد بالتأويل وقوع المُخبر به.

٣- وقيل: التفسير ما وقع مُبيَّنًا في كتاب الله أو مُعيَّنًا في صحيح السُّنَّة؛ لأن معناه قد ظهر ووضح، والتأويل ما استنبطه العلماء، ولذا قال بعضهم: "التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية"[(٢)].

٤- وقيل: التفسير: أكثر ما يُستعمل في الألفاظ ومفرداتها، والتأويل: أكثر ما يُستعمل في المعاني والجُمَل، وقيل غير ذلك.

مثال تطبيقي للفرق بين التفسير والتأويل:

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان عمر رضي الله عنه يُدخلني مع أشياخ بدر فقال بعضهم: لِمَ تدخل هذا الفتى معنا؟ ولنا أبناء مثله؛ فقال: إنه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يومٍ، ودعاني معهم، قال: وما رئيْتُهُ دعاني يومئذٍ إلا ليُرِيَهُم مِنّي. فقال: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ

---

(١) صحيح ابن حبان: ذكر وصف الفقه والحكمة اللذين دعا المصطفى ﷺ لابن عباسٍ بهما: (ح٧٠٥٥)، قال الألباني: (صحيح).

(٢) انظر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: (١٧٣/٢).

﴿وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر:١-٢] حتى ختم السُّورة، فقال بعضهم: أُمِرْنَا أن نحمد الله ونستغفره؛ إذا نصرَنا وفتَحَ علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقُلْ بعضهم شيئًا، فقال لي: يا ابن عباس أكذاك تقول؟ قُلت: لا، قال: فما تقول؟ قلتُ: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فتح مكة فذاك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر:٣]،قال عمر ﷺ: ما أعلم منها إلا ما تعلم(١).

فالصحابة كانوا مفسِّرين للسورة، أما ابن عباس فكان مُؤَوِّلاً لها، وهي مرحلةٌ تأتي بعد معرفة التفسير.

التعريف بأصول التفسير:

علم أصول التفسير علمٌ جليلٌ، فمنه نستمدُّ القواعد، ونعرف الضَّوابط التي يجب على المفسِّر التزامها.

وأصول التفسير: مركبٌ يتكون من لفظين: الأصول، والتفسير، وقد سبق تعريفنا للتفسير، فلنشرع في تعريف الأصل، ثم نُعَرِّف بأصول التفسير كمركب.

الأصل في اللغة: أسفل الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم:٢٤]، وهذا يعني أن الأصل هو الأساس الذي تقوم عليه الشجرة، وإذا سقط سقط ما فوقه، ويُطلق الأصل على مبدأ الشيء، وما يُبنى عليه غيره، وعبَّر عنه بعضهم بأنه: ما يَفْتَقِرُ إليه غيره، ولا يفتقر هو إلى غيره(٢).

أصول التفسير:

هو: الأُسس العلمية التي يرجِعُ إليها المفسِّر؛ حال بيانه لمعاني القرآن، وتحريره للاختلاف في

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب منزل النبي ﷺ يوم الفتح: (ح٣٩٥٦).

(٢) مساعد الطيار، التحرير في أصول التفسير: (ص١٣).

التفسير[1].

فأصول التفسير تُستخدم في حالتين:

الأولى: بيان معاني القرآن، فأصول التفسير تمنعُ المفسِّر من أن يأتي بمعنى ضعيفٍ أو فاسدٍ.

الثانية: الترجيح بين الأقوال المختلفة، والتي لا تتم إلا بمعرفة القواعد العلميَّة وقرائن الترجيح.

فضلُ علم أصول التفسير ومكانته:

لهذا العلم فضله ومكانته، فهو يتعلق بالتفسير وهو أشرف العلوم، إذ به تُعرف أصوله وقواعده، ويمكن إجمال فوائده في الآتي:

١- التزوّد بالثقافة العالية من المعارف القيّمة، والتسلح بسلاح العلم والمعرفة للدفاع عن القرآن الكريم ضِدَّ الأعداء الذين يبذلون وسعهم؛ لتحريف معاني كتاب الله.

٢- معرفة الطرق الصحيحة لتفسير القرآن الكريم، وما يُقبل منها وما يُردّ.

٣- معرفة القواعد التي تُعين على فهم كتاب الله تعالى الفهم الصحيح.

٤- الاطلاع على الجهود العظيمة التي بذلها علماء السَّلف؛ للمحافظة على القرآن لفظًا ومعنى، ومن ثَمّ الاقتداءُ بهم في ذلك، والسَّير على نهجهم.

فائدة أصول التفسير:

١- من خِلالِهِ نَعْرِفُ مَدَى عِنَايَة الأُمَّةِ بِكِتَابِ رَبِّهَا تَدَبُّرًا وَفَهْمًا.

٢- معرفةُ المنهجِ الأمثلِ في التفسيرِ الذي يتناسبُ مع أصولِ التفسيرِ وقواعِدِهِ، ويتواكبُ مَعَ رُوحِ العَصْرِ ومُتَطَلَّبَاتِهِ وما يَسْتَجِدُّ فِيهِ.

٣- الحذرُ من الانحرافاتِ والمَزَالِقِ التي وَقَعَ فيها بعضُ من تصدَّرَ لهذا العلمِ بأفكارٍ مُسْبَقَةٍ ضالَّةٍ، أو بفهمٍ قاصرٍ، ومعلوماتٍ غيرِ كافيةٍ.

٤- القدرةُ على دراسةِ أيِّ تفسيرٍ والتمكُّنِ من تقييمِهِ وتصنيفِهِ لِمَعْرِفَةِ ما لَهُ وما عليه.

٥- معرفة أسباب اختلاف المفسِّرين وأنواعها، وطُرق الجمع بين الأقوال، وقواعد الاختيار

---

(١) المرجع السابق: (ص١٧).

والترجيح.

٦- نستطيع من خلاله أن نحكم على أقوال المفسِّرين تصويبًا وتَخطِئَةً، في ضوء ما نتعلّمه من قواعد وأصول.

٧- معرفة الأحكام الشرعية الواردة في القرآن، فإننا إذا عرفنا معاني القرآن من خلال قواعد التفسير وأصوله، تمكنّا من استخراج الأحكام الشرعية.

* * *

الموضوع الثاني
نشأة التفسير ومراحل تطوره



يسَّر الله تبارك وتعالى ألفاظ القرآن الكريم للتلاوة والحفظ، ومعانيه للفهم والتدبر، فقال: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر:١٧]، وبيَّن النبي ﷺ لأصحابه ﷺ معانيه كما بيَّن لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل:٤٤]، يتناول بيان ألفاظه ومعانيه، وظلَّ الصحابة ﷺ يرجعون إلى النبي ﷺ في فهم ما يُشكل عليهم من معاني الآيات، وبعد أن انقضى عهد الصحب الكرام، برز عدد من أعلام التابعين تتلمذوا عليهم، وأخذوا عنهم تفسير كتاب الله، وزادوا عليه ما استنبطوه وفهموه بأنفسهم مما كان غامضًا على الناس في عصرهم، وكانت مَرويّات التفسير تُروى على أنها أبواب من الحديث، ولم يظهر تفسير كامل استوعب القرآن من فاتحته إلي خاتمته إلا في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجري على يد شيخ المفسِّرين مُحمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، ثم توالى التصنيف في التفسير والتفنُن في مذاهبه، ولا زال إلى الآن يُكتب في التفسير ويُتوصل إلى جديد من معاني كلام الله تعالى، وسيظل ما دامت السماوات والأرض زاخرًا بالمعاني التي يُعدّ تفسيرها تجديدًا لإعجازه.

وقد مَرَّ علم التفسير بعدة مراحل نتناولها على النحو التالي:

١- التفسير في عهد النبي ﷺ.
٢- التفسير في عهد الصحابة ﷺ.
٣- التفسير في عهد التابعين.
٤- التفسير في عهد التدوين.

أولاً: التفسير في عهد النبي ﷺ:

كلّفَ الله ﷻ رسوله ﷺ ببيان ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه للناس، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل:٤٤]، ومن ثَمّ "فإنَّ سُنّة رسول الله ﷺ تُبيّنُ القرآن، وتدلُّ عليه، وتعبّر عنه"[١]، سواءً كان ذلك البيان قوليًا أم عمليًا.

واختلف الدَّارسون في مقدار التفسير الذي بيّنه النبي ﷺ للصحابة:

فمنهم من قال: "إنه فسّر عددًا من الآيات"[٢].

ومنهم من قال: "إنه بيّن للصحابة معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه"[٣].

ونسُوقُ آراء الفريقين:

الفريق الأول: منهم ابن تيمية – رحمه الله – حيث:

١- قال: "يجب أن يُعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، يتناول هذا وهذا"[٤].

٢- وقال: "...ثم إن الصحابة نقلوا عن النبي ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة، ولم يذْكُر أحدٌ منهم عنهُ قط أنه امتنع من تفسير آية، قال أبو عبدالرحمن السُّلمي: "حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن – عثمان بن عفان رضي الله عنه وعبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وغيرهما – أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل[٥]"[٦].

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: (٢٩/١٣).

(٢) يُنظر: الطبري، جامع البيان: (٣٧/١)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (٣١/١).

(٣) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: (ص٣٥).

(٤) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: (٣٣١/١٣).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في (المصنف): (٣٨٠/٣)، (ح٦٠٢٧)، في فضائل القرآن: باب تعليم القرآن وفضله.

(٦) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: (٣٠٨/١٣).

٣- وقال - رحمه الله - : "... ومن المعلوم أن رغبة الرسول ﷺ في تعريفهم معاني القرآن أعظم من رغبته في تعريفهم حروفه، فإن معرفة الحروف بدون المعاني لا تُحَصِّلُ المقصود، إذ اللفظ إنما يُراد للمعنى"(١).

٤- وقال - رحمه الله - : "الصحابة ﷺ بلّغوا عن النبي ﷺ لفظ القرآن ومعانيه جميعًا كما ثبت ذلك عنهم، مع أن هذا مما يُعلم بالضرورة عن عادتهم، فإن الرجل لو صنَّف كتابَ عِلْمٍ في طِبٍ أو حساب أو غير ذلك، وحفظه تلامذته؛ لكان يُعلَمُ بالاضطرار أن هِمَمَهم تَشوق إلى فَهَم كلامهِ ومعرفة مُرَادهِ...، وهل يتوهَّمُ عاقلٌ أنهم كانوا إنما يأخذون منه مجرَّد حروفه وهم لا يفقهون ما يتلوه عليهم ولا ما يقرؤونه، ولا تشتاق نفوسهم إلى فهم هذا القول، ولا يسألونه عن ذلك، ولا يبتدئ هو بيانه لهم! هذا مما يُعلم بطلانه"(٢).

الفريق الثاني: قالوا: أن الرسول ﷺ لم يُبيّن لأصحابه إلا القليل من معاني الآيات، وأدلتهم في ذلك:

١- عن عائشة ﷺ، قالت: "ما كان النبي ﷺ يُفسِّر شيئًا من القرآن إلا آيًا بعَددٍ، علَّمهنّ إياه جبريلُ"(٣).

٢- أن الحكمة في ذلك: أن الله تعالى أراد أن يتفكر عباده في كتابه؛ لذلك لم يأمر نبيَّه بالتنصيص على المراد في جميع آياته"(٤).

٣- أن الرسول لو بيَّن كلّ معاني القرآن؛ لَمَا كان لدعائه ﷺ لابن عباس: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي

---

(١) المرجع السابق: (٥/١٧٥).

(٢) ابن تيمية، بُغية المُرْتَاد: (ص٣٣٠-٣٣٢).

(٣) قال ابن كثير: (حديث منكر غريب). وقد أخرجه الطبري في تفسيره: (١/٧٨-٧٩)، ثم قال الطبري: (١/٨٣) - أثناء بحثه ومناقشته في معنى الحديث - : "... هذا مع ما في الخبر الذي رُوي عن عائشة من العلَّة التي في إسناده، التي لا يجوز معها الاحتجاجُ به لأحدٍ ممن علم صحيحَ سَند الآثار وفاسدَها في الدين؛ لأن راويه ممن لا يُعْرف في أهل الآثار، وهو: جعفر بن مُحمد الزبيري".

(٤) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: (٤/١٩٧).

الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»[1] فائدة، ولما كان له هذا الفضل في التفسير.

الراجح:

أن النبي ﷺ بيَّن للأمّة ما تحتاج إليه من كتاب الله تعالى، وما مات حتى أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وحتى بلَّغ الرسالة حقَّ البلاغ امتثالاً لأمر ربه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، وبلاغه إياه يتضمن بلاغ ألفاظه، وبلاغ معانيه، وخرج من هذا البلاغ الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها، والأمور التي لا طائل من معرفتها مثل: لون كلب أصحاب الكهف، وعصا موسى عليه السلام كانت من أي أنواع الشجر، والآيات التي تُفهم بمعرفة كلام العرب وهُمْ أهلُها، والآيات التي يسهُل على الذِّهن فهمها أوّلَ ما ترِد عليه مثل قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء:٢٣]، أن المراد بها تحريم الوطء، ولا يتبادر إلى الذهن غيره.

وهذا هو حاصل كلام شيخ الإسلام حيث قال: «إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة؛ فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها؛ ولِمَا لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح؛ لاسيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين»[2].

أمثلةٌ تطبيقية لتفسير الرسول للقرآن:

يجب أن يُعتمد التفسير النبوي الوارد بطُرُقِه الصحيحة في تفسير القرآن، ومن أمثلة ذلك:

١- عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «أنَّ المَغْضُوبَ عَلَيهِم: اليَهَوُدَ، وَالضالِينَ: النَّصَارَى»[3].

---

(١) صحيح ابن حبان: ذكرُ وصف الفقه والحكمة اللذين دعا المصطفى ﷺ لابن عبَّاس بهما: (ح٧٠٥٥)، قال الألباني: (صحيح).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٦٥).

(٣) مسند الإمام أحمد: (٤/٣٧٨-٣٧٩) (ح١٩٣٨١)، قال الألباني: (الحديث صحيح)، وقال: وقد أشار إلى ذلك الحافظ ابن كثير في "تفسيره"، وصرَّح بثبوته ابن أبي العز الحنفي في آخر شرحه للعقيدة الطحاوية، وجزم بنسبته إلى=

٢- وعن عبدالله رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، قلنا: يا رسول الله، أيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: «لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] بِشِرْكٍ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لابْنِهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]»[١]. ففسر النبي ﷺ الشرك بالظلم، فلا يُعدَل عنه إلى غيره.

٣- وعن أبي علي ثمامة بن شفي أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»[٢]. فهذا تصريح بتفسير القوة بالرمي، فيُقبل هذا التفسير، ويُردُّ ما سواه.

منهجُ النبيّ ﷺ في التفسير:

١. لم يفسِّر الرسولُ ﷺ القرآنَ كلّه سورةً سورةً وآيةً آيةً، وإنما بيَّن ما أُمِرِ ببيانِهِ مِن الوحيِ غيرِ المتلوِّ، الذي نَزَلَ عليهِ تفصيلاً لمجملٍ، أو تقييدًا لمطلقٍ، أو تخصيصًا لعامٍّ، أو تعريفًا لمبهم، أو دفعًا لإيهامٍ، كما سيأتي بيانُهُ إن شاء اللهُ.

٢. فسَّر النبيُّ ﷺ ما خَفِيَ على الصحابةِ رضي الله عنهم من المعانِي التي لا يمكنُهم التوصُّل إليها باللغة أو الاجتهاد.

٣. كان تفسيرُهُ ﷺ سهلاً واضحًا بعباراتٍ بليغةٍ وجيزةٍ، دون استطرادٍ إلى ما لا صلة له بالتفسير.

٤. أما عن مصادرِهِ ﷺ في التفسير، فلقد اعتمد الرسولُ ﷺ في تفسيره على القرآن الكريم

=النبي ﷺ شيخُ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى": (١٢٧/٣)، وعقَّب عليه بقوله: "وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه، والنصارى عبدوا الله بغير علم".

(١) صحيح البخاري: باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ [النساء: ١٢٥]، (ح٣٣٦٠).

(٢) صحيح مسلم: باب فضل الرمي والحثّ عليه وذم من علِمَه ثم نَسِيَهُ: (ح١٩١٧).

باعتباره المصدر الأوّل في التفسير، كما اعتمد على تفسير القرآن بالسُّنة التي أنزلها الله ﷻ بيانًا للقرآن، واعتمد أيضًا على فهمِهِ الواسِعِ باللغةِ، واجتهادِهِ فيما لا وحيَ فيه، إلى جانب مُدَارسته لأمين الوحي جبريل عليه السلام، ومُعايشته لنزول القرآن، ومباشرته لقرائنه وملابساته.

ثانيًا: تفسير الصحابة رضوان الله عليهم:

الصحابي: من لقي النبي ﷺ مؤمنًا، ومات على ذلك[1].

كان الصحابة رضي الله عنهم عَرَبًا خُلَّصًا، يفهمون القرآن، ويُدرِكون معانيه ومراميه بمقتضى سَلِيقَتِهم العربية، فَهْمًا لا تُعكِّرُه عُجمة، ولا يشُوبه تَكْدِير، ولا يُشوهُهُ شيءٌ من قُبح الابتداع، وتَحَكُّم العقيدة الزائفة الفاسدة، وكان لهم رضي الله عنهم وقفات أمام بعض النصوص القرآنية التي دقَّت مراميها، وخفيت معانيها، ولكن لم تطُل بهم هذه الوقفات؛ إذ كانوا يرجعون في مثل ذلك إلى رسول الله ﷺ؛ فيكشف لهم ما دقَّ عن أفهامهم، ويُجَلِّي لهم ما خفى عن إدراكهم[2]، وإن لم يتيسر لهم ذلك رجعوا إلى اجتهادهم، وكان التفاوت بينهم واضحًا في هذه الرُّتبة، فكان بعضهم يرجع إلى بعض؛ إذ التفاوت بينهم راجعٌ إلى التفاوت في قوة الفهم والإدراك، والتفاوت فيما أحاط بالآية من ظروفٍ ومُلابساتٍ، بل كانوا يتفاوتون في معرفة المعاني التي وُضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفي معناها على بعض الصحابة[3].

أمثلة لما خفي على الصحابة من معاني المفردات:

١- خفي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه معنى الأَبُّ في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١]، عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: «قرأ عمرُ ابنُ الخطابِ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾، ومعه عصا في

(١) يُنظر: ابن الصلاح، معرفة أنواع علوم الحديث: (ص٣٩٦).

(٢) الذهبي، التفسير والمفسرون: (٦/١).

(٣) المرجع السابق: (٣٤/١).

يدِه، فقال: ما الأَبُّ؟، ثمَّ قالَ: بِحَسبِنَا ما قد عَلِمنَا، وألقى العصا من يدِه"[1].

٢- وأُشكِلَ على عمر بن الخطاب ﵁ معنى التَخَوّف في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ [النحل:٤٧]، حتى قال له رجل من هُذَيل: "التخوُّف: التنقُّصُ في لغتنا"[2].

٣- وخفى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - معنى فاطر السماوات، فقد ورد عنه أنَّه قالَ: «كنتُ لا أدري ما فاطر السماوات؟ حتى أتاني أعرابيَّان يختصمان في بئرٍ، فقال أحدهُما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها» [3].

٤- وخفي عن عدي بن حاتم معنى الخيط الأبيض والأسود في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [البقرة:١٨٧]،روى البخاري بسنده عن عدي بن حاتم، قال لما نزلت: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾، عمَدتُ إلى عِقال أسود وإلى عقال أبيض؛ فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظرُ في الليل فلا يستبين لي؛ فغدوت على رسول الله ﷺ، فذكرت له ذلك، فقال: «**إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ**» [4].

أسباب تفاوت الصحابة في فهم معاني القرآن:

لم يكن الصحابة ﵃ في درجة واحدة بالنسبة لفهم معاني القرآن، بل تفاوتت مراتبهم، وأُشكِلَ على بعضهم ما ظهر لبعضٍ آخرٍ منهم، وهذا يرجعُ إلى عدَّةِ أسباب، وهي كما يلي:

١- تفاوتهم في درجتهم العلمية ومواهبهم العقلية، قال مسروق: "جالست أصحاب مُحمد ﷺ فوجدتهم كالإِخَاذِ - يعني الغدير - فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض

---

(١) الطبري، جامع البيان: (٣٠/٥٩).

(٢) السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن: (٢/١٠٥).

(٣)السيوطي، الإتقان: (١/١٤٩).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الصور، باب قوله تعالى: (كُلُوا واشْرَبُوا):(ح١٨١٧).

لأصدرهم"[(١)].

٢- تفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، وغير ذلك من الأمور التي لا يستغني عنها المفسِّر. عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُاللَّهِ ﷺ: "وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ"[(٢)].

٣- أنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني التي وُضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفِيَ معناه على بعض الصحابة ﷺ، ولا ضَيْر في هذا، فإن اللغة لا يُحيط بها إلا معصوم، ولم يدَّعِ أحَدٌ أن كُلَّ فردٍ من أُمَّةٍ يعرف جميع ألفاظ لغتها.

٤- تفاوتهم في ملازمة الرسول ﷺ، فمنهم مَن كان يُلازم النبي ﷺ؛ فيعرف من أسباب النزول ما لا يعرفه غيره، كان أبو هريرة ﷺ ملازمًا لرسولِ الله ﷺ لا يكادُ يفارقُهُ، روى البخاريُّ بسنده عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَأَبِي سَلَمَةَ بْنِ عبدالرحمن أن أبا هريرة ﷺ قال: "إِنَّكُمْ تَقُولُونَ إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ مَا بَالُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لَا يُحَدِّثُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ؟ وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنْ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ صَفْقٌ بِالْأَسْوَاقِ، وَكُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي، فَأَشْهَدُ إِذَا غَابُوا، وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا، وَكَانَ يَشْغَلُ إِخْوَتِي مِنْ الْأَنْصَارِ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ، وَكُنْتُ امْرَءًا مِسْكِينًا مِنْ مَسَاكِينِ الصُّفَّةِ أَعِي حِينَ يَنْسَوْنَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثٍ يُحَدِّثُهُ: «**إِنَّهُ لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي هَذِهِ ثُمَّ يَجْمَعَ إِلَيْهِ ثَوْبَهُ إِلَّا وَعَى مَا أَقُولُ**» فَبَسَطْتُ نَمِرَةً عَلَيَّ حَتَّى إِذَا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ جَمَعْتُهَا إِلَى صَدْرِي، فَمَا

(١) الذهبي، التفسير والمفسرون: (٣٦/١).

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القرَّاءِ من أصحاب النبي ﷺ: (١٨٧/٦)، (ح٥٠٠٢).

نَسِيتُ مِنْ مَقَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ مِنْ شَيْءٍ"[١].

٥- **تفاوت معرفتهم بأيام العرب وعاداتهم في الجاهلية وأحوال اليهود**، فلا شكَّ أن لمعرفة أيام العرب وأحوالهم وعاداتهم في الجاهلية، أثرٌ مهمٌّ في فهم القرآن الذي جاء مُبطلاً لذميم عاداتهم ومدحضًا لفاسد تصوراتهم، وقد يخفى معنى الآية أو يقع الإشكال؛ بسبب عدم معرفة أحوال العرب الذين نزلت فيهم: **مثال ذلك**: عن عُرْوَةَ بن الزبير، قَالَ: "قُلْتُ لِعَائِشَةَ: مَا أَرَى عَلَيَّ جُنَاحًا أَنْ لَا أَتَطَوَّفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ"، قَالَتْ: "لِمَ؟" قُلْتُ: لِأَنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨]، فَقَالَتْ: "لَوْ كَانَ كَمَا تَقُولُ، لَكَانَ: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا، إِنَّمَا أُنْزِلَ هَذَا فِي أُنَاسٍ مِنَ الْأَنْصَارِ كَانُوا إِذَا أَهَلُّوا، أَهَلُّوا لِمَنَاةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَا يَحِلُّ لَهُمْ أَنْ يَطَّوَّفُوا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا قَدِمُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لِلْحَجِّ، ذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، فَلَعَمْرِي، مَا أَتَمَّ اللهُ حَجَّ مَنْ لَمْ يَطُفْ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ"[٢].

٦- تنوع اهتمامات الصحابة ﵃، فمنهم من عُنِيَ بالتفسير، ومنهم عني بمسائل الحلال والحرام، ومنهم من بَدَع في الفرائض، ومنهم من عني برواية الحديث، روى الترمذي في سُنَنِه عن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَقْرَأُهُمْ أُبَيٌّ، وَلِكلّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ**»[٣].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب (١)، (ح١٩٤٢)، والنَّمِرَة: بُردةٌ من صوفٍ، أو من غيرِه مُخططة.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الحج، بَابُ وُجُوبِ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ: (٢/١٥٧)، (ح١٦٤٣)، وصحيح مسلم واللفظ له: (٢/٩٢٨)، (ح٣٦٠) - (ح١٢٧٧).

(٣) سنن الترمذي: باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، (ح٢١٥٠)، قال الألباني: (صحيح).

مميزات تفسير الصحابة ﷺ:

تميَّز تفسير الصحابة بمزايا منها ﷺ:

١- توضيح بعض المفردات الغريبة والمعاني المُشْكِلة، أو بيان ما يتعلق بأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، ونحو ذلك، ولم يكن تفسيرًا شاملاً لِكُلِّ القرآن الكريم؛ وذلك لأنهم كانوا عربًا خُلَّصًا يفهمون المعنى دون شرح، إضافة إلى إلمامهم الواسع بأحوال نزول الآيات ومعرفة أسباب النزول وزمانه ومكانه؛ مما يُعين على فهم المعنى؛ ولذا فإنَّ أقوالهم في التفسير جاءت في أمورٍ مهمةٍ، لا يُمكن لأحدٍ ممن بعدهم أن يستغني عنها.

٢- اعتمدوا في تفسيرهم على الكلمات الجامعة والعبارات الواضحة التي تدل على المعنى، دون استطراد إلى ما لا صلة له بالتفسير، أو لا فائدة كبيرة في الخوض في تفاصيله.

٣- الصفاء من كلِّ أنواع البدع التي وقعت بعدهم في الأمة، فأقوالهم أصفى الأقوال عقيدةً ومنهجًا؛ وذلك لعدم ظهور أهل الأهواء في تلك الحقبة المباركة.

٤- قلة الاختلاف بينهم في التفسير، وما وُجِدَ يرجع غالبه إلى اختلاف التنوع لا التضاد؛ وذلك لأنه كُلَّما قرُب الإنسان من عهد النبوة نجد الاجتماع والائتلاف علمًا وعملاً كان هو الذي يسُود، وكلّما بَعُدَ الإنسان عن تلك الحقبة المباركة وجد العكس تمامًا، والله المستعان، ولم يُنقل عنهم خلافٌ إلا في رؤية النبي ﷺ لله تعالى في ليلة الإسراء والمعراج.

٥- قِلَّةُ الأخذ بالإسرائيليات وتناولها في التفسير، ولعلَّ لتربية النبي ﷺ الخاصة لهم لها أثرٌ على ذلك في الاعتزاز بما عندهم، وعدم الالتفات إلى ما عند أهل الكتاب؛ خاصة وهي روايات أغلبها محرَّفة وفيها الكثير من الأباطيل والخرافات، ولهذا غضب ﷺ حينما رأى في يد عمر ﷺ صحيفة من التوراة، كما جاء عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَّى النَّبِيُّ ﷺ فَغَضِبَ، وَقَالَ: «**أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً،**

لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِه، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»[(١)].

٦- كان تفسيرهم منقولاً بالرواية شأنه شأن الحديث، فلم يُدوَّن التفسير في عصرهم.

٧- التزموا أحسن طرق التفسير من تفسير القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة، وتفسير القرآن بمن يعلم من أصحاب النبي ﷺ، وتفسير الاجتهاد القائم على الإلمام الكامل بلغة القرآن، وأحوال نزول الآيات، وأحوال العرب عند نزول القرآن، مع معرفةٍ تامة بعاداتهم وتقاليدهم، إضافة إلى ما كانوا عليه من تقوى وورع؛ جعلهم لا يتكلّمون إلا بعلم، كما جاء عن حماد بن زيد قال: حدثنا عبيدالله بن عمر قال: "لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليغلِظُون القول في التفسير منهم: سالم بن عبدالله، والقاسم بن مُحمد، وسعيد بن المسيّب، ونافع"، وقد جاء عن أيوب عن ابن أبي مُلَيْكة: "أن ابن عباس سُئِلَ عن آية لو سُئِل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها"، وعن يحيى بن سعيد عن ابن المسيّب: "أنه كان لا يتكلّم إلا في المعلوم من القرآن"[(٢)].

مصادر الصحابة في التفسير:

كان الصحابة يعتمدون في تفسيرهم للقرآن الكريم على أربعة مصادر:

الأول: تفسير القرآن بالقرآن.

الثاني: النبي ﷺ.

الثالث: الاجتهاد وقوة الاستنباط.

الرابع: أهل الكتاب (اليهود والنصارى).

ونُوضِح كلّ مصدر من هذه المصادر الأربعة فنقول:

---

(١) مسند الإمام أحمد: (ح١٤٨٦٥)، والبيهقي في شُعب الإيمان: (ح١٧١).

(٢) الطبري، جامع البيان: (٦٢/١).

المصدر الأول: تفسير القرآن بالقرآن:

المتأمل في القرآن الكريم يجد أن ما أُوجِزَ في مكان قد يُبْسطَ في مكان آخر، وما أُجْمِلَ في موضع قد يُبيَّن في موضع آخر، وما جاء مطلقًا في ناحية قد يلحقه التقييد في ناحية أخرى، وما كان عامًا في آية قد يدخله التخصيص في آية أُخرى.

ولهذا كان لا بد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً، فيجمع ما تكرَّرَ منه في موضوع واحد، ويُقابل الآيات بعضها ببعض؛ ليستعين بما جاء مسهَبًا على معرفة ما جاء موجَزًا، وبما جاء مُبيَّنًا على فهم ما جاء مُجْملاً، وليحمِلَ المُطْلَق على المقيَّد، والعام على الخاصَ، وبهذا يكون قد فسرَّ القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله، وهذا أحسن طرق التفسير.

مثال تطبيقي:

عن عمر بن الخطاب ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧﴾ [التكوير:٧]، قال: تزويجها: أن يؤلف كلّ قوم إلى شبههم، وقال: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢﴾ [الصافات:٢٢][١].

المصدر الثاني: تفسير القرآن بأقوال الرسول ﷺ:

المصدر الثاني: الذى كان يرجع إليه الصحابة ﷺ في تفسيرهم لكتاب الله تعالى هو رسول الله ﷺ، فكان الواحد منهم إذا أُشكلت عليه آية من كتاب الله؛ رجع إلى رسول الله ﷺ في تفسيرها، فيُبَيَنُ له ما خفي عليه؛ لأن وظيفته البيان، كما أخبر الله عنه بذلك في كتابه حيث قال: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل:٤٤].

أمثلة تطبيقية:

عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ يَوْمِ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، فَقَالَ: «يَوْمُ النَّحْرِ». وعَنْ أُبَيِّ بنِ

---

(١) السيوطي، الدُّر المنثور: (٨/٤٣٠).

كَعبٍ أنه سَمِعَ رَسُول اللهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ [الفتح:٢٦]،. قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»(١).

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ»، قُلْتُ: أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق:٨]؟ قال: «ذَلِكَ الْعَرْضُ»(٢).

وكان عليه السلام يُفسّر وإن لم يُسْأل، رَوَى مُسلِمٌ بسَنَدِه عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْكَوْثَرُ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ رَبِّي فِي الْجَنَّةِ»(٣).

المصدر الثالث: الاجتهاد وقوة الاستنباط:

كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله، ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله ﷺ رجعوا في ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم، وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واجتهاد، أما ما يُمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة العربية فكانوا لا يحتاجون في فهمه إلى إعمال النظر، ضرورةَ أنهم من خُلَّصِ العرب، يعرفون كلام العرب ومناحيهم في القول، ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد من ذلك في الشِّعر الجاهلي الذي هو ديوان العرب، كما يقول عمر رضي الله عنه.

أدوات الاجتهاد في التفسير عند الصحابة:

وكثير من الصحابة كان يُفسِّر بعض آي القرآن بهذا الطريق، أعني طريق الرأي والاجتهاد، مستعينًا على ذلك بما يأتي:

أولاً: معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

ثانيًا: معرفة عادات العرب.

ثالثًا: معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن.

---

(١) المرجع السابق:(٢٢/٢٥٣).

(٢) صحيح البخاري، باب من نوقش الحساب عذب: (ح٦٥٣٦).

(٣) السُّنن الكبرى للنَّسائي: سورة الكوثر (ح١١٦٣٩)، قال الألباني: (صحيح)، صحيح الجامع الصغير وزياداته: (ح٧٠٢١).

رابعًا: قوة الفهم وسعة الإدراك.

فمعرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها، تُعين على فهم الآيات التي لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب، ومعرفة عادات العرب تُعين على فهم كثير من الآيات التي لها صلة بعاداتهم، فمثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة:١٨٩]، لا يُمكن فَهْم المراد منه إلا لمن عرف عادات العرب في الجاهلية وقت نزول القرآن.

ومعرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن، تُعين على فهم الآيات التي فيها الإشارة إلى أعمالهم والرد عليهم.

ومعرفة أسباب النزول، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، تُعين على فهم كثير من الآيات القرآنية، ولهذا قال الواحدي - رحمه الله - : "لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قِصَّتِها وبيان نزولها"[(١)]، وقال ابن دقيق العيد - رحمه الله - :"بيان سبب النُّزول طريقٌ قويٌّ في فهم معاني القرآن"[(٢)]، وقال ابن تيمية - رحمه الله - :"معرفة سبب النُّزول يُعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يُورث العلم بالمُسبب"[(٣)].

وأما قوة الفهم وسعة الإدراك، فهذا فضل الله يؤتيه مَن يشاء من عباده، وكثير من آيات القرآن يدِّقُ معناها، ويخفى المراد منها، ولا يظهر إلا لمن أُوتى حظًا من الفهم ونور البصيرة، ولقد كان ابن عباس صاحب النصيب الأكبر والحظ الأوفر من ذلك، وهذا ببركة دعاء رسول الله ﷺ له بذلك حيث قال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»[(٤)].

---

(١) الواحدي، أسباب النزول: (ص٤-٥).

(٢) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: (١/٨٣).

(٣) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: (ص١٦).

(٤) صحيح ابن حبان: ذكر وصف الفقه والحكمة الذين دعا المصطفى ﷺ لابن عباس بهما: (ح٧٠٥٥)، قال الألباني: (صحيح).

وقد روى البخاري في صحيحه بسنده إلى أبي جحيفة ﷺ أنه قال: "قلت لعليٍّ ﷺ: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: لا، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهمًا يُعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفِكاك الأسير، وألا يُقتل مسلم بكافر"(١).

هذه هي أدوات الفهم والاستنباط التي استعان بها الصحابة ﷺ على فهم كثير من آيات القرآن، وهذا هو مبلغ أثرها في الكشف عن غوامضه وأسراره.

أشهر المفسِّرين من الصحابة:

اشتُهر بالتفسير من الصحابة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأُبَيّ بن كعب، وزيد ابن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبدالله بن الزبير، رضى الله عنهم أجمعين.

وهناك مَن تكلّم في التفسير من الصحابة ﷺ غير هؤلاء: كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وعبدالله ابن عمر، وجابر بن عبدالله، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعائشة، غير أن ما نُقِل عنهم في التفسير قليل جدًا.

كما أن العشرة الذين اشتُهِروا بالتفسير تفاوتوا قِلَّة وكثرة، فأبو بكر وعمر وعثمان لم يَرد عنهم في التفسير إلا النزر اليسير، ويرجع السبب في ذلك إلى تقدم وفاتهم، واشتغالهم بمهام الخلافة والفُتُوحات، أَضِف إلى ذلك وجودهم في وسطٍ أغْلَبَ أهله عُلماءٌ بكتاب الله، واقفون على أسراره، عارفون بمعانيه وأحكامه، مكتملة فيهم خصائص العروبة، مما جعل الحاجة إلى الرجوع إليهم في التفسير غير كبيرة.

أما عليّ بن أبي طالب ﷺ، فهو أكثر الخلفاء الراشدين رواية عنه في التفسير، والسبب في ذلك راجع إلى تفرُّغه عن مهام الخلافة مُدةً طويلة، دامت إلى نهاية خلافة عثمان ﷺ، وتأخُّر وفاته إلى زمنٍ كثرت فيه حاجة الناس إلى مَن يُفسِّر لهم ما خفى عنهم من معانى القرآن؛ وذلك ناشئٌ من اتساع رُقعة الإسلام، ودخول كثير من الأعاجم في دين الله، مما كاد يذهب بخصائص اللغة العربية.

وكذلك كثرت الرّواية في التفسير عن عبدالله بن عباس، وعبدالله بن مسعود، وأُبَيّ بن كعب؛

(١) صحيح البخاري: باب العاقلة: (ح٦٩٠٣).

لحاجة الناس إليهم، ولصفات عامة مكّنت لهم ولعليّ بن أبي طالب أيضًا في التفسير، **هذه الصفات هي:**

١- قُوتهم في اللغة العربية، وإحاطتهم بمناحيها وأساليبها.

٢- عدم تحرّجهم من الاجتهاد وتقرير ما وصلوا إليه باجتهادهم.

٣- مخالطتهم للنبي ﷺ مخالطةً مكّنتهم من معرفة الحوادث التي نزلت فيها آيات القرآن، نستثنى من ذلك ابن عباس، فإنه لم يلازم النبي ﷺ في شبابه؛ لوفاة النبي ﷺ وهو في سِنِ الثالثة عشرة أو قريبًا منها، لكنه استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة ﷺ، يأخذ عنهم ويروى لهم[١].

مدارس التفسير:

قال ابن تيمية - رحمه الله - : "وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة؛ لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم. وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزّوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير، وأخذ عنه أيضًا ابنه عبدالرحمن، وعبدالله بن وهب"[٢].

مدرسة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في مكة:

هو عبدالله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، وأمُّه لُبابة الكبرى بنت الحارث بن حَزَن الهلالية. ولُدَ والنبي ﷺ وأهل بيته بالشِّعْب بمكة، فأُتِيَ به النبي ﷺ فحنكه بريقه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، ولازم النبي ﷺ في صغره؛ لقرابته منه؛ ولأن خالته ميمونة كانت من أزواج رسول الله ﷺ، وقد توفي سنة (٦٨هـ).

كان ابن عباس يُلقَّب بالحَبْر والبحر لكثرة علمه، وكان على درجة عظيمة من الاجتهاد والمعرفة

---

(١) الذهبي، التفسير والمفسرون: (١/٥٠).

(٢) ابن تيمية، مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير: (ص١٥).

بمعنى كتاب الله؛ ولذا انتهت إليه الرِّياسة في الفتوى والتفسير.

قال فيه ابن مسعود ﷺ: "نِعْمَ تُرجمان القرآن ابن عباس"(١)، وقيل لطاووس: لزمتَ هذا الغلام – يعني ابن عباس – وتركتَ الأكابر من أصحاب رسول الله – قال: "إني رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارءوا في أمرٍ صاروا إلى قول ابن عباس"(٢).

وروى الأعمش عن أبي وائل شقيق ابن سلمة، قال: "قرأ ابنُ عباسٍ سورة البقرة، فجعل يُفسِّرها، فقال رجل: لو سَمِعَت هذا الديلمُ؛ لأَسْلَمَت"(٣).

وقال ابن عمر رضى الله عنهما: "ابن عباس أعلم أُمَّة مُحمد بما نزل على مُحمد ﷺ"(٤).

وقد اشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس بن كيسان اليماني، وعطاء ابن أبي رباح، وهؤلاء كلّهم كانوا من الموالي.

مدرسة عبدالله بن مسعود في الكوفة:

هو عبدالله بن مسعود بن غافل، يصل نسبه إلى مُضَر، ويُكنَّى بأبي عبدالرحمن الهُذَلي، وأُمُّه أُمّ عبد بنت عبدود، من هُذَيل، وكان يُنسب إليها أحيانًا فيقال: ابن أم عبد، أسلم قديمًا. روى الأعمش، عن القاسم بن عبدالرحمن، عن أبيه قال: قال عبدالله – يعني ابن مسعود – : "لقد رأيتُني سادِس سِتَّةٍ ما على ظهر الأرض مسلمٍ غيرنا"(٥)، وهو أوّل مَن جَهَر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشًا بعد رسول الله ﷺ، وأُوذى في الله من أجل ذلك، وكان ابن مسعود ﷺ من أحفظ الصحابة لكتاب الله، وكان رسول الله ﷺ يُحب أن يسمع منه القرآن، روى البخاري بسنده عن عبدالله قَالَ: قَالَ لِي رسول الله : ﷺ «اقْرَأْ عَلَيَّ»، فَقُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». قَالَ:

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء: (٣/٣٤٧).

(٢) ابن حجر، الإصابة: (٢/٣٣٣).

(٣) الطبري، جامع البيان: (١/٨١).

(٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب: (٥/٢٧٨).

(٥) صحيح ابن حبان، ذكر البيان بأن عبد الله بن مسعود كان سُدس الإسلام: (ح٧٠٦٢).

فَافْتَتَحْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ، فَلَمَّا بَلَغْت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾[النساء:٤١]. قال لي: «كُفَّ – أَو أَمْسِكْ –»، فَرَأَيْتُ عَيْنَيهِ تَذْرِفَانِ[(١)].

وكان رسول الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ القُرآنَ رَطبًا كَمَا أُنزِلَ، فَلْيَقرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمّ عَبْدٍ»[(٢)].

وقد أقام رضي الله عنه بالكوفة يأخذ عنه أهلها الحديث، والتفسير، والفقه، وهو معلمهم وقاضيهم، ومؤسس طريقتهم في الاعتداد بالرأي حيث لا يُوجد النَّص، ولمَّا قَدِم عليٌّ رضي الله عنه الكوفة، حضر عنده قوم وذكروا له بعض قول عبدالله رضي الله عنه، وقالوا: يا أمير المؤمنين؛ ما رأينا رجلاً أحسن خُلُقًا، ولا أرْفَقَ تعليمًا، ولا أَحسنَ مجالسة، ولا أشدَّ ورعًا من ابن مسعود رضي الله عنه، قال عليٌّ رضي الله عنه: "أَنْشُدُكم الله أهو الصِّدق من قلوبكم؟" قالوا: نعم، قال: "اللَّهم اشهد أني أقول مثل ما قالوا وأفضل"[(٣)].

واشتهر من تلاميذ عبدالله بن مسعود بالعراق: علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السَّدُوسي.

أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه ومدرسة المدينة:

هو أبو المنذر، أو أبو الطفيل أُبَيّ بن كعب بن قيس الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وبدرًا، وهو أوّل مَن كتب لرسول الله ﷺ عند مَقدِمه المدينة، وقد أثنى عليه عمر رضي الله عنه فقال: "أُبَيٌّ سيّدُ المسلمين"[(٤)]، وقد اخْتُلِفُ في وفاته على أقوال كثيرة، والأكثر على أنه مات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

كان أُبَيّ بن كعب سيَّدَ القُرَّاء، وأحدُ كُتَّاب الوحي لرسول الله ﷺ، وقد قال فيه ﷺ: «وأَقْرَؤُهُمْ

---

(١) صحيح البخاري، باب البكاء عند قراءة القرآن: (ح٥٠٥٥).

(٢) صحيح ابن خزيمة، باب الجهر بالقراءة في صلاة الليل: (ح١١٥٦)

(٣) ابن الأثير، أسد الغابة: (٣/٣٨١).

(٤) النووي، تهذيب الأسماء واللغات: (١/١٠٩).

«أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ»[(١)]، وليس أدل على جودة حفظه لكتاب الله تعالى من قراءة النبي ﷺ، فقد أخرج الترمذي بسنده إلى أَنَس بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُبَيٍّ: **«إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ:** ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البينة: ١]»، قَالَ: آللَّهُ سَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: **«نَعَمْ»**، فَجَعَلَ أُبَيٌّ يَبْكِي[(٢)].

"كان أُبَيّ بن كعب من أعلم الصحابة ﷺ بكتاب الله تعالى، ولعلَّ من أهم عوامل معرفته بمعاني كتاب الله، هو أنه كان حَبْرًا من أحبار اليهود، العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها، وكونه من كُتَّاب الوحى لرسول الله ﷺ، وهذا بالضرورة يجعله على مبلغ عظيم من العلم بأسباب النزول ومواضعه، ومُقَدَّم القرآن ومُؤخره، وناسخه ومنسوخه، ثم لا يُعقل بعد ذلك أن تمرَّ عليه آية من القرآن يُشكل معناها عليه دون أن يسأل عنها رسول الله ﷺ؛ لهذا كلّه عُدَّ أُبَيّ بن كعب من المكثرين في التفسير، الذين يُعتدَّ بما صح عنهم، ويُعوَّل على تفسيرهم"[(٣)].

من أشهر تلاميذ أُبيّ بن كعب: أبو العالية الرياحي، وزيد بن أسلم، ومُحمد بن كعب القُرظي، وابنه الطفيل بن أُبيّ بن كعب.

حكم تفسير الصحابي:

إذا لم يجد المفسِّر التفسير في القرآن والسنة رجع إلى أقوال الصحابة، قال ابن تيمية – رحمه الله – : "...إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السُّنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة ﷺ، فإنهم أدرى بذلك لِما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها؛ ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيّما علماؤهم وكبراؤهم؛ كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة

---

(١) سنن الترمذي: باب مناقب معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبيّ، وأبي عبيدة بن الجراح، رضي الله عنهم، (ح٠٥١٢). قال الألباني: (صحيح).

(٢) سنن الترمذي: باب مناقب معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأُبيّ، وأبي عبيدة بن الجراح، رضي الله عنهم، (٣٧٩٢)، قال الألباني: (صحيح).

(٣) الذهبي، التفسير والمفسرون: (٢/٢٤).

المهديين؛ مثل: عبدالله بن مسعود"[١].

ويكون حكم تفسير الصحابي على النحو التالي:

أولاً: له حكم المرفوع؛ إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول، وكلّ ما ليس للرأي فيه مجال، أما ما يكون للرأي فيه مجال، فهو موقوفٌ عليه ما دام لم يُسنده إلى رسول الله ﷺ.

ثانيًا: ما حُكِمَ عليه بأنه من قبيل المرفوع لا يجوز ردُّه اتفاقًا، بل يأخذه المفسِّر ولا يعدِلُ عنه إلى غيره بأيِّ حال.

ثالثًا: ما حُكِمَ عليه بالوقف، تختلف فيه أنظار العلماء:

فذهب فريق: إلى أن الموقوف على الصحابي من التفسير لا يجب الأخذ به؛ لأنه لَمَّا لم يرفعه، عُلِم أنه اجتهد فيه، والمجتهد يُخطئ ويُصيب، والصحابة في اجتهادهم كسائر المجتهدين.

وذهب فريق آخر: إلى أنه يجب الأخذ به والرجوع إليه؛ لظنّ سماعهم له من رسول الله ﷺ، ولأنهم إن فسَّروا برأيهم فرأيهم أصوب؛ لأنهم أدرى الناس بكتاب الله، إذ هم أهل اللسان، ولِبَركة الصحابة والتخلق بأخلاق النبوّة، ولِمَا شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختُصُّوا بها، ولِمَا لهم من الفهم التام والعلم الصحيح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة، وعبدالله بن مسعود، وابن عباس وغيرهم[٢].

ثالثًا: التفسير في عهد التابعين:

للتابعين رحمهم الله دورٌ بارزٌ في التفسير؛ حيث نقلوا لنا علمَ الصَّحابةِ، فضلاً عن اجتهاداتِهم المبنيَّةِ على عِلْمٍ غزيرٍ وفهمٍ صحِيح؛ لذا فإن تفسيرَهم يُعَدُّ منَ المصادرِ المهمةِ بعد تفسيرِ الصحابةِ رضي الله عنهم أجمعين.

ولقد بدأ تدوين التفسير في نهاية القرن الأوّل الهجري، بجهودٍ مباركة من بعض المفسِّرين إلى جانب تدوين موضوعات علوم القرآن، حتى ظهرت المؤلفات الموسوعيّة في مَطلَعِ القرن الثالث

---

(١) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: (ص٢٥٤).

(٢) الذهبي، التفسير والمفسرون: (٧٢/١).

الهجري.

التابعي: هو من لقي الصحابي وهو مؤمن، ومات على ذلك[١].

قال ابن تيمية – رحمه الله – : "... إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السُّنة ولا وجدته عن الصحابة؛ فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين"[٢].

وقد اعتمد المفسِّرون من التابعين في فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء في القرآن الكريم، وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ، وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء في كتبهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله تعالى.

مصادر التابعين ومنهجهم في التفسير:

لم يختلف منهج التابعين عن طرق التفسير التي كان عليها أصحاب النبي ﷺ إلا في إضافات يسيرة؛ نتيجة لبعض المستجدات التي عاشوها بعد أصحاب النبي ﷺ بسبب توسع الفتوحات الإسلامية؛ وكذلك؛ لأنهم تلاميذهم ومنهم أخذوا، ونجد منهجهم كان قائمًا على ما يلي:

١. **تفسيرُ القرآنِ بالقرآن**، فكان للتابعين اجتهاداتهم في فهم القرآن، والجمع بين الآيات، والنظرة الكليَّة لها، واستنباط المعاني، ودفع الإشكال.

٢. **تفسيرُ القرآنِ بالسُّنة النبوية**، فهي المصدر الثاني للتفسير، والتابعون هم الحلقة الثانية في سلسلة رواية الأحاديث.

٣. **تفسيرُ القرآنِ بأقوال الصحابة**، فَهُم تلامذة الصحابة ﷺ، وعنهم أخذوا التفسير.

٤. **تفسيرُ القرآنِ بالرأي والاجتهاد**، فكان للتابعين اجتهاداتهم في التفسير وآراؤهم المعتبرة.

٥. **الرجوعُ إلى مسْلَمَةِ أهلِ الكتابِ**، فيما يتعلَّقُ بقصصِ الأنبياءِ والأُممِ السابقةِ، فكان من التابعين أمثال وهب بن منبه، وكعب الأحبار، وغيرهما من أحبار اليهود الذين

---

(١) يُنظر: ابن الصلاح، معرفة أنواع علوم الحديث: (ص٤٠٥).

(٢) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: (ص٢٨).

أسلموا، ونقلوا مروياتٍ عن الكتب السّابقة من تلقاء أنفسهم أو جوابًا عن سؤالٍ وُجّه إليهم، وكان من التابعين من يرجع لمسلَمَةِ أهل الكتاب فينقُلُ عنهم من باب الاستشهاد والاستئناس، وهذا العمل مع خطورته إلا أنه لا يخلو من فوائد، فالإسرائيليات كما سنُبيّن لاحقًا ليست مرفوضةً كلّيّةً، ولا يُمكن أن نقبلها كافةً، بل منها المقبول ومنها المردود.

مميزات تفسير التابعين:

تميَّز التفسير في عهد التابعين بمزايا عديدة منها:

١- دخول الإسرائيليات في التفسير.

٢- الاهتمام بالإسناد في الرواية، ونسبة كلّ قول لصاحبه حتى تُعرف الأقوال، ويُميَّزُ بين قويِّهَا وضعيفها، وصحيحها وسقيمها.

٣- الاحتفاظ بطابع التلقي والرواية، وقد تلقَّى وروى أهل كلّ مِصْرٍ التفسير عن إمامهم، فالمكيُّون يروون عن عبدالله ابن عباس - رضي الله عنهما - ، والمدنيُّون يروون عن أُبيٍّ ﵁، والعراقيُّون يروون عن عبدالله بن مسعود[(١)].

٤- التوسع في التفسير أكثر مما كان عليه في عهد الصحابة ﵃ حتى شمل القرآن كاملاً؛ وذلك لتوسع الدولة، ودخول العجم، وبروز الحاجة إلى اجتهاد أوسع.

٥- كثرة الخلافات في التفسير أكثر مما كان عليه الوضع في عهد الصحابة ﵃، فنجد أقوالاً متعددة في معنى الآية، وإن كانت أحيانًا تُحمل على اختلاف التنوع لا التضاد.

٦- بُرُوز نواة الخلاف المذهبي.

حُجيَّةُ تفسير التابعيّ:

اختلف العلماء في الرّجوع إلى تفسير التابعين، والأخذ بأقوالهم؛ إذا لم يُؤثَر في ذلك شيء من الرسول ﷺ، أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

فنُقِل عن الإمام أحمد - رضى الله عنه - روايتان في ذلك: رواية بالقبول، ورواية بعدم القبول،

(١) الذهبي، التفسير والمفسرون: (١٣١/١).

وذهب بعض العلماء: إلى أنه لا يُؤخذ بتفسير التابعي، واختاره ابن عقيل، وحُكيَ عن شُعبة.

واستدل أصحاب هذا الرأي على ما ذهبوا إليه بما يلي:

- أن التابعين ليس لهم سماع من الرسول ﷺ، فلا يمكن الحمل عليه كما قيل في تفسير الصحابي: إنه محمول على سماعه من النبي ﷺ.
- أنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن، فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد، وظن ما ليس بدليل دليلاً.
- عدالة التابعين غير منصوص عليها كما نُصَّ على عدالة الصحابة.

وذهب أكثر المفسِّرين: إلى أنه يؤخذ بقول التابعي في التفسير؛ لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة، فمجاهدٌ مثلاً يقول: "عرضتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أُوقِفُهُ عند كلّ آية منه وأسأله عنها"[(١)]، وقتادة يقول: "ما في القرآن آية إلا وقد سمعتُ فيها شيئًا"[(٢)]؛ ولذا حكى أكثر المفسِّرين أقوال التابعين في كتبهم، ونقلوها عنهم مع اعتمادهم لها.

الرأي الراجح:

أنَّ قول التابعيّ في التفسير لا يجب الأخذ به إلا إذا كان مما لا مجال للرأي فيه، فإنه يُؤخذ به حينئذٍ عند عدم الرِّيبة، فإن ارتبنا فيه بأن كان يأخذ من أهل الكتاب، فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه، أما إذا أجمع التابعون على رأيٍ فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره، قال ابن تيمية – رحمه الله – : "إذا أجمعوا على الشيء؛ فلا يُرتاب في كونه حُجَّة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حُجَّة على بعض، ولا على مَن بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السُّنَّة، أو عموم لُغَةِ العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك"[(٣)].

---

(١) الطبري، جامع البيان، تحقيق شاكر: (١/٩٠).

(٢) الذهبي، التفسير والمفسرون: (١/١٢٩).

(٣) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: (ص٢٩).

أشهر المفسِّرين من التابعين:

اشتُهِرَ بالتفسير من التابعين عدد كبير على رأسهم:

١- **سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الكوفي:** المقرئ، المفسِّر، الفقيه، والمحدث، أحد الأعلام الذين عُرفوا بالعلم وكثرة العمل الصالح، ورأى خلقًا من أصحاب النبي ﷺ، قُتل في سنة (٩٥هـ).

٢- **مجاهد بن جبر الإمام الحَبْرُ المكيّ:** قال مجاهد: "عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة"، وفي رواية: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أُوقفه عند كلّ آية منه وأسأله عنها"(١)، وقال عنه سفيان الثوري - رحمه الله - : "إذا جاءك التفسير من مجاهد فحسبك به"، تُوفي سنة (١٠٣هـ) بمكة وهو ساجد.

٣- **عِكْرِمةُ مولى ابن عباس:** أحد أعلام التابعين، والمفسِّرين المكثرين، والعلماء الربانيين، والرحالين الجوالين، قال عنه الإمام الشعبي: "ما بقِيَ أحدٌ أعلم بكتاب الله من عكرمة"(٢)، توفي سنة (١٠٥هـ).

٤- **شهر بن حوشب الأشعري الحمصي:** ويُقال إنه دِمشقي، قرأ القرآن على ابن عباس رضي الله عنه، وكان عالمًا كبيرًا،توفي سنة (١٠٠هـ).

٥- **زيد بن أسلم العدوي:** الفقيه العابد المفسِّر، مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان من كبار التابعين الذين عُرِفوا بالتفسير والعبادة، وله تفسير يرويه عنه ابنه عبدالرحمن، توفي سنة (١٣٦هـ).

٦- **الحسنُ البصريّ:** وهو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري إمامُ أهل البصرة، وخيرُ أهل زمانه، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه كان فقهيًا ورعًا زاهدًا شجاعًا في الحق، وقال أبو بكر الهذلي: قال لي السفاح: "بأي شيء بلغ حَسَنكم ما بلغ؟ فقلت: جمع القرآن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ثم لم يخرج من سورة إلى غيرها حتى يعرِفَ تأويلها،

---

(١) ابن جرير، تفسير الطبري، تحقيق شاكر: (٩٠/١).

(٢) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: (٢٤١/٤).

وفيما أُنزلت"، فقال: "بهذا بلغ الشيّخ ما سمع عن جماعة من أصحاب النبي ﷺ منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه"، توفي في سنة (١١٠هـ).

٧- **قتادة بن دعامة الدوسي**: وهو أبو الخطاب الضرير الأكْمَه، مُفسِّرُ كتاب الله، كان آية في الحفظ، قال: "ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا"، مات بواسط في الطاعون، في سنة (١١٧هـ).

٨- **أبو العالية الرياحي**: وهو أبو العالية رفيع بن مهران، كان إمامًا في القراءة والتفسير والعلم والعمل، قرأ القرآن على أُبيّ بن كعب، قال أبو بكر بن أبي داود: "ليس بعد الصحابة أحد أعلم بالقرآن من أبي العالية، وبعده سعيد بن جبير"[(١)]، توفى سنة (٩٣هـ).

٩- **سعيد بن المسيّب المخزومي**: المدني، أحد أعلام الدُّنيا، وسيّد التابعين، قال ابن عمر: لو رأى رسول الله ﷺ هذا لَسَرَّه، وقال مكحول، وقتادة، والزهري، وغيرهم: "ما رأينا أعلم من ابن المسيب"[(٢)]، وقال علي بن المديني: "لا أعلم في التابعين أوسع علمًا منه، وهو عندي أَجَلَّ التابعين"[(٣)]، وقد جمع بين الحديث، والتفسير، والفقه، والورع، والعبادة، وقال عن نفسه: "حججت أربعين حجة، وما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت إلى قفا رَجُلٍ في الصلاة"، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر رضي الله عنه، وتوفي بالمدينة سنة (٩٤هـ).

١٠- **أبو عبدالرحمن السلمي**: وهو عبدالله بن حبيب، مُقرئ أهل الكوفة بلا مُدافعة، قرأ القرآن على عثمان بن عفان، وعلي، وعبدالله بن مسعود، رضي الله عنهم، وسمع من جماعة من الصحابة، وأقرأ القرآن من خلافة عثمان إلى إمرَةِ الحجاج، أي نحو أربعين سنة، توفي بالكوفة سنة (٧٣هـ)، أو بعدها في إمرَةِ بِشْر بن مروان في خلافة عبد الملك بن مروان.

---

(١) ابن العماد العَكري، شذرات الذهب: (١/٩٦).

(٢) المرجع السابق: (١/١٠٢).

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب: (٤/٨٤).

رابعًا: التفسير في عصر التدوين:

مَرّ تدوين التفسير بثلاثة مراحل يُمكن أن نُجملها في الآتي:

المرحلة الأولى: تدوين التفسير في باب من أبواب الحديث:

بدأ العلماء أولاً في تدوين المرويّات والأقوال في التفسير إلى جانب المرويات في سائر كتب السُّنة، كما نجد ذلك اليوم في بعض كتب السنة، كالبخاري، ومسلم، وغيرها، نجد فيها كتابًا يُسمَّى كتاب التفسير، ولم تُفرد له مؤلفات خاصة.

وأشهر من دوَّن التفسير في هذه المرحلة هم:

١- يزيد بن هارون السُّلمي (ت: ١١٧هـ).

٢- شُعبَة بن الحجاج (ت: ١٦٠هـ).

٣- وَكِيع بن الجرّاح (ت: ١٩٧هـ).

٤- سُفيان بن عيينة (ت: ١٩٨هـ).

٥- عبد الرزَّاق بن همام (ت: ٢١١هـ).

٦- وآدم بن أبي إياس (ت: ٢٢٠هـ).

٧- وعبد بن حميد (ت: ٢٤٩هـ).

أبرز مميزات هذه المرحلة:

تميزت هذه المرحلة بمزايا منها:

١. الاهتمام بالإسناد في الرواية.
٢. جمع ما ورد من تفسير للآية من أقوال النبي ﷺ ، والصحابة، وأئمة التابعين.
٣. جمع التفسير كبَابٍ من أبواب الحديث، ولم يكن مستقلاً في مصنفات خاصة، ثم جاءت المرحلة الثانية التي أُفْرِدَ فيها التفسير بمؤلفات خاصة.

المرحلة الثانية: إفراد التفسير في مؤلفات خاصة:

انتقل التفسير في هذه المرحلة الثانية إلى رِحَابٍ أوسع حيث أُفرد بالتأليف، وصار عِلْمًا مستقلاً له مؤلفاته الخاصة، وقد نصَّ شيخ الإسلام ابن تيميه[1]، وابن خِلكان[2]، على أن أوّلَ من صنَّفَ تفسيرًا لآيات القرآن وسُوره مُرَتبًا حسب ترتيب المصحف هو: "عبد الملك بن جُريج" (ت:١٤٠هـ)، ثم تتابعت المؤلّفات والكتابات في التفسير من بعده، فمن أشهر من كتبوا وصنفوا في التفسير:

١- ابن ماجة (ت: ٢٧٣هـ).

٢- ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ).

٣- أبو بكر المُنذري النيسابوري (ت: ٣١٨هـ).

٤- ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ).

٥- ابن حِبّان (ت: ٣٦٩هـ).

٦- والحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ).

٧- وابن مردويه (ت: ٤١٠هـ).

أبرز مميزات هذه المرحلة:

١- فُسِّر القرآن الكريم تفسيرًا كاملاً شاملاً لآيات القرآن وسُوره مرتبًا حسب ترتيب المصحف بما أُثِر عن النبي ﷺ ، والصحابة ﷺ، والتابعين - رحمهم الله - .

٢- الاعتناء في رواية التفسير بالإسناد إلى صاحب التفسير المروي عنه، دون الاعتناء بتحري الصِّحة في الرواية، تاركين مهمة البحث والحكم لمن يأتي من بعدهم من خلال دراسة ما جمعوه رواية ودراية.

٣- التوسع في رواية الإسرائيليات في التفسير، ودُوِّنَ الكثير منها في هذه المرحلة.

٤- جَمْعُ أقوال السابقين، ومناقشتها، ومحاولة الترجيح بينها.

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: (٣٢٢/٢٠).

(٢) ابن خِلكان، وَفَيَات الأعيان: (٣٣٨/٢).

٥- بُرُوز اجتهادات المفسِّرين بصورة واسعة، ومحاولة استنباط معاني خاصة بهم برزت من خلال تفاسيرهم مع الاعتناء بالرواية، كما فعل مُحمد بن جرير الطبري في تفسيره.

المرحلة الثالثة: اختصار الأسانيد والتوسع في التفسير:

ثم جاءت المرحلة الثالثة، وهي مرحلة اختصار الأسانيد والتوسع في التفسير، وظهور المصنفات المتنوعة من حيث الاختصار والتوسع، والتباين من حيث الاتجاهات والمناهج.

هذه المرحلة هي مرحلة واسعة وممتدة إلى يومنا هذا، وقد أخذ التفسير فيها مناحٍ شتى، ولكن أبرز ملامح هذه المرحلة ما يلي:

١- ألَّف في التفسير خلقٌ كثيرون، فاختصروا الأسانيد، وتركوا عزْوَ الأقوال إلى قائلها؛ مما أدى إلى اختلاط الصحيح والضعيف، وزُحِمت كتب التفاسير بالروايات الضعيفة والموضوعة.

٢- التوسع في التفسير بالرأي المحمود والمذموم؛ مما جعل أصحاب المِلَلِ المنحرفة من معتزلة، ورافضة، وأشاعرة، وغيرهم، يُحرّفون تفاسير الآيات وفق عقائدهم الباطلة، ومذاهبهم المنحرفة، كما فعل الزمخشري في تفسيره (الكشَّاف)[١].

٣- توسَّع الناس في رواية الإسرائيليات والخوض فيما لا فائدة في معرفته، واشتغلوا بهذا عن البحث الجاد الأسمى في أمور الدين.

٤- تنوعت اهتمامات المفسِّرين، واعتنى أصحاب كلّ علم بتقليب علمهم في التفسير، فالفقيه المفسِّر؛ نجده يعتني في تفسيره بالمسائل الفقهية واستنباط الأحكام الشرعية كما فعل ابن العربي، والقرطبي، والجصاص، وغيرهم. والنَّحوي؛ تجده ركَّز على الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه، وقد ينتصر لمذهبه النحوي، أو يردّ قراءةً متواترةً بحجة مُخالفتها لوجهٍ نحوي لا يوافق مذهبه النحوي كالزجَّاج، والواحدي، وأبي حيان. وصاحب العلوم العقلية؛ ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، وشُبَهِهم والرد عليهم، كالفخر الرازي. وصاحب البلاغة؛ يهتم بإبراز جانب البلاغة والإعجاز، كما فعل الزمخشري في الكشاف. والإخباري؛ ليس له همٌّ إلا سردُ القصص واستيفاؤها كالثعلبي. وهكذا

(١) الزُّرْقاني، مناهل العرفان: (١/ ٥٠١).

تعددت مناهج المفسِّرين، واختلفت اتجاهاتهم.

٥- تعدُد الأقوال في الآية الواحدة.

ونتيجة لهذه المرحلة الواسعة في التفسير، والتي تأثر فيها التفسير بصورة واضحة وكبيرة بعقائدِ ومذاهبِ وثقافةِ مؤلفيه، ودخل في كتب التفسير الغثُّ والسمين، والصحيح والعليل، وأصبح الأخذ من كتب التفاسير يحتاج إلى معرفة كاملة بمنهج كلّ مفسّر، والأُسس التي بنَى عليها تفسيره، وأبرز المؤثرات والملاحظات عليه؛ لذا وضَعَ العُلماء مادةَ أصول التفسير ومناهج المفسِّرين؛ لتوضيح المنهج السليم، وتكشف عن مناهج المفسِّرين أمام الباحثين والدارسين، وتزويدهم بأسُسٍ ومعالم تجعلهم يتعاملون مع هذه التفاسير بصورة علمية صحيحة، يأخذون ما فيها من خير وحق، ويدعون ما سِواه.

أشهر من دوَّن التفسير في هذه المرحلة:

١- معالم التنزيل، للبغوي.

٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية.

٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي.

٤- الكشاف للزمخشري.

٥- مفاتيح الغيب للرازي.

* * *

ملف الإنجاز:

(١) ترجمي لخمسة من أشهر المفسِّرين من التابعين؟

(٢) قارني بين تفسير الصحابة وتفسير التابعين، من حيث مصادر كلّ منهما وسماته.

(٣) اذكري ثلاثة نماذج لتفسير التابعين.

(٤) قارني بين منهج الطبري ومنهج ابن أبي حاتم في التعامل مع تفسير التابعين.

(٥) اكتبي مقالاً عن أهمية تفسير التابعين.

(٦) اكتبي مقالاً في تاريخ التفسير من بدايته بالرواية حتى التدوين؟

(٧) اذكري خمسة مراجع عُنيت بتفسير التابعين.

مصادر التعلم:

(١) الاستماع لمحاضرة: قصة التفسير لشيخنا الدكتور حكمت بشير (محاضرة صوتية).

(٢) تلخيص كتاب التفسير ورجاله للفاضل بن عاشور.

(٣) مقدمةُ تفسير ابن جرير الطبري.

(٤) مقدمةٌ في أصول التفسير لابن تيمية.

(٥) التفسير النبوي مقدمة تأصيلية مع دراسة حديثية لأحاديث التفسير النبوي الصحيح، الدكتور خالد بن عبد العزيز الباتلي، دار كنوز أشبيليا، السعودية، (١٤٣٢هـ-٢٠١١م).

(٦) تفسير الصحابة، عبدالله أبو السعود بدر، دار ابن حزم،بيروت، لبنان، (١٤٢١هـ-٢٠٠٠م).

(٧) تفسير التابعين: عرضٌ ودراسة مُقارَنة، مُحمد عبد العزيز الخضيري، دار الوطن للنشر، السعودية، بدون تاريخ.

التقويم:

(١) اذكري في نقاط الخطوات التي مرَّ بها التفسير من التلقي شفاهة حتى التدوين؟

(٢) ما القِيمةُ العلميَّة لتفسير التابعين؟ وما مدى حُجيته؟

(٣) لماذا كان لتفسير التابعين هذه القِيمة البالغة؟

(٤) كيف نُرجّح بين أقوال التابعين إن تعارضت؟

(٥) متى يُقبل تفسير التابعي؟ ومتى يُرد؟

(٦) اذكري ثلاثة من بَوَاكِيرِ كتب التفسير المُسندَة.

(٧) ما الفرق بين التفسير والتأويل؟

(٨) ما فائدة علم أصول التفسير لمن يقرأ في كتب التفاسير؟

(٩) اذكري أسباب تفاوت الصحابة ﵃ في فهم معاني القرآن.

* * *

الموضوع الثالث
طرق التفسير



أولاً: التفسير بالمأثور:

تعريفه:

هو الذي يعتمد على صحيح المنقول من تفسير القرآن بالقرآن، أو بالسُّنَّة؛ لأنها جاءت مبيِّنة لكتاب الله، أو بما رُوِي عن الصحابة؛ لأنهم أعلم الناس بكتاب الله، أو بما قاله كبار التابعين؛ لأنهم تلقوا ذلك غالبًا عن الصحابة.

وهذا المسلك يتوخى الآثار الواردة في معنى الآية فيذكرها، ولا يجتهد في بيان معنى من غير أصل، ويتوقف عمّا لا طائل تحته ولا فائدة في معرفته ما لم يرد فيه نقل صحيح.

فضله ومكانته:

هو أفضل أنواع التفسير وأعلاها؛ لأن التفسير بالمأثور إما أن يكون تفسيرًا للقرآن بكلام الله تعالى؛ فهو أعلم بمراده، وإما أن يكون تفسيرًا للقرآن بكلام الرسول ﷺ؛ فهو المبيّن لكلام الله تعالى، وإما أن يكون بأقوال الصحابة ﷺ فهم الذين شاهدوا التنزيل، وهم أهلُ اللسان، وتميزوا عن غيرهم بما شاهدوه من القرائن والأحوال حين النزول، ومن التابعين من أخذ التفسير كلّه عن الصحابة ﷺ، فعن مجاهد قال: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أستوقفه عند كلّ آية وأسأله عنها"[١].

(١) الطبري، جامع البيان، تحقيق شاكر: (١/٩٠).

أسباب الوَضْعِ في التفسير بالمأثور:

نشأة الوَضْع في التفسير:

نشأَ الوَضْعُ في التفسير مع نشأته في الحديث؛ لأنهما كانا أول الأمر مزيجًا لا يستقل أحدهما عن الآخر، فكما أننا نجد في الحديث: الصحيح، والحسن، والضعيف، وفى رُوَاته: مَنْ هو موثوقٌ به، ومَنْ هو مشكُوكٌ فيه، ومَنْ عُرِف بالوضْعِ، نجد مثل ذلك فيما رُوِيَ من التفسير، ومَنْ روَى من المفسِّرين.

وكان مبدأ ظهور الوضع في سنة إحدى وأربعين من الهجرة، حين اختلف المسلمون سياسيًا، وتفرَّقوا إلى شيعة، وخوارج، وجمهور، ووُجِدَ من أهل البدع والأهواء مَنْ روَّجوا لبدعهم، وتعصبُّوا لأهوائهم، ودخل في الإسلام مَن تَبَطَّنَ الكفر والْتَحَفَ الإسلام؛ بقصد الكيد له، وتضليل أهله، فوضعوا ما وضعوا من روايات باطلة؛ ليصلوا بها إلى أغراضهم السيّئة، ورغباتهم الخبيثة[١].

أسبابه:

يرجع الوضع في التفسير إلى أسباب متعددة، منها:

١- **التعصب المذهبي:** فإنَّ ما جَدَّ من افتراق الأُمة إلى شيعة تطرَّفوا في حب عليٍّ ﵁، وخوارج انصرفوا عنه وناصبوه العداء، وجمهور المسلمين الذين وقفوا بجانب هاتين الطائفتين بدون أن يمسهم شيءٌ من ابتداع التشيع أو الخروج؛ جعل كلّ طائفة من هذه الطوائف تُحاول بكلّ جهودها أن تؤيد مذهبها بشيءٍ من القرآن؛ فَنَسب الشيعة إلى النبي ﷺ وإلى عليّ وغيره من أهل البيت - رضى الله عنهم - أقوالاً كثيرة من التفسير تشهَدُ لمذهبهم، كما وَضَعَ الخوارجُ كثيرًا من التفسير الذى يشهدُ لمذهبهم، ونسبوه إلى النبي ﷺ أو إلى أحدِ أصحابه، وكان قصد كلّ فريقٍ من نسبة هذه الموضوعات إلى النبي ﷺ أو إلى أحد أصحابه؛ الترويج للمَرْوي، والإمعان في التدليس، فإن نسبة المروي إلى الرسول ﷺ أو إلى أحد الصحابة ﷺ، تُورث المروي ثقةً وقبولاً لا يوجد شيءٌ منهما عندما يُنسب المروي لغير النبي ﷺ أو لغير صحابي.

٢- **اللون السياسي:** في هذا العصر يَترُكُ له أثرًا بَيِّنًا في وَضْعِ التفسير، ويُلاحَظ أن المروي عن عليّ

---

(١) الذهبي، التفسير والمفسرون: (١/١١٦).

وابن عباس - رضى الله عنهما - قد جاوز حدَّ الكثرة، مما يجعلنا نميل إلى القول بأنه قد وُضع عليهما في التفسير أكثر مما وُضِع على غيرهما، والسبب في ذلك أنَّ عليًا وابن عباس - رضى الله عنهما - من بيت النبوّة، فالوضع عليهما يُكسِب الموضُوعَ ثقةً وقبولاً، وتقديسًا ورواجًا، مما لا يكون لشيء مما يُنسب إلى غيرهما، وفوق هذا فقد كان لعليّ من الشيعة ما ليس لغيره، فنسبوا إليه من القول في التفسير ما يظنّون أنه يُعلي من قدره، ويرفع من شأنه، وابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون، فوُجِد من الناس مَنْ تزَّلف إليهم، وتقرَّب بكثرة ما يرويه لهم عن جدهم ابن عباس ﵁، مما يدل على أن اللون السياسي كان له أثرٌ ظاهر في وضع التفسير.

٣- ما قصده أعداء الإسلام: الذين اندَّسوا بين أبنائه متظاهرين بالإسلام، من الكيد له ولأهله، فعمدوا إلى الدَّسِّ والوضع في التفسير بعد أن عجزوا عن أن ينالوا من هذا الدين عن طريق الحرب والقوة، أو عن طريق البرهان والحُجَّة[١].

٤- الترغيب أو الترهيب مع الجهل بالدين:

مع أن في الصحيحِ مندوحَةً عن الضَّعِيفِ والموضُوعِ؛ فَقَدْ لَجَأَ بعضُ الجُهَّال إلى وضعِ أحاديثَ لترغيبِ الناسِ في أعمالٍ مُعيَّنةٍ، منها ذلك الحديثُ الموضوعُ في فضائلِ القرآنِ سورةً سورةً، وَضَعَهُ قومٌ يُنْسَبُونَ إلى الزُّهدِ؛ وضعوهُ حِسْبَةً، أي احتسابًا للأجرِ عند الله في زعمِهِم، فقُبِلَتْ موضوعاتُهُمْ - عند بعض العوامّ - ثقةً بهم ورُكُونًا إليهم لِمَا نُسِبُوا إِليهِ من الزُّهدِ والصَّلاحِ، ولهذا قال يحي القطَّان: "ما رأيتُ الكذبَ في أحدٍ أكثرَ منهُ فيمنْ يُنْسَبُ إلى الخيرِ"؛ أي لعدمِ علمِهم بتفرقةِ ما يجوزُ لهم وما يمتنعُ عليهم، أو لأن عندهم حُسْنُ ظَنٍّ وسلامةُ صدرٍ؛ فيحملون ما سمعوه على الصدق، ولا يهتدون لتمييز الخطأ من الصواب، لكنِ الوضَّاعُون منهم وإن خَفِيَ حالُهم على كثيرٍ من الناسِ فإنه لم يخفَ على جهابذةِ الحديثِ ونُقَّادِهِ، وقد قيل لابن المباركِ: هذه الأحاديثُ الموضوعةُ؟ فقال: "تعيشُ لها الجهابِذَةُ"[٢].

---

(١) الذهبي، التفسير والمفسرون: (١/١١٦).

(٢) زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)

ومن أمثلة ما وُضِعَ حِسْبَةً ما رواه الحاكمُ بسندِهِ إلى ابنِ عمَّارٍ المَرْوَزِيّ أنه قيل لأبي عصمة نوح بن أبي مريم: "من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورةً سورةً، وليس عند أصحابِ عكرمةَ هذا"؟ فقال: "إني رأيت الناسَ قد أعرضوا عن القرآنِ واشتغلوا بفقهِ أبي حنيفة ومغازي ابنِ إسحاق؛ فوضعتُ هذا الحديثَ حِسْبَةً"، وكان يُقال لأبي عصمة هذا: نوحٌ الجامعُ، قال ابن حبَّان: "جَمَعَ كلّ شيءٍ إلا الصِّدقَ!"[1]

"ومن هؤلاء الوَضَّاعِينَ غُلام خَلِيل، وقد كان زاهدًا متخلِّيًا عن الدُّنيا وشهواتها، منقطعًا إلى العبادة والتقوى، محبوبًا من العامة، ومع ذلك فقد زَيَّنَ له الشيطان وضْعَ أحاديث في فضائل الأذكار والأوْرَادِ حتى قيل له: هذه الأحاديث التي تَحَدَّثَ بها من الرقائق؟ فقال:"وَضَعْنَاهَا لِنُرَقِّقَ بِهَا قُلُوبَ العَامَّةِ".[2] ومن العجيب أن بغداد أغلقت أسواقها يوم وفاته حُزنًا عليه، قال الذهبي في السير في ترجمة (غُلام خليل): "الشيخ، العالم، الزاهد، الواعظ، شيخ بغداد... سكن بغداد وكان له جلالة عجيبة، وصَوْلَةَ مهيبة، وأمرٌ بالمعروف، وأتباعٌ كثير، وصحة معتقد، إلا أنه يروي الكذب الفاحش، ويرى وضع الحديث. نسأل الله العافية".[3]

أنواع التفسير بالموضوع:

ينقسم التفسير بالموضوع إلى قسمين:

القسم الأول: وضع في القول المفسِّر:

لو نظرنا إلى هذا القسم من ناحيته الذاتية بصرف النظر عن ناحيته الإسنادية، لوجدنا أنه لا يخلو من قيمته العلمية؛ لأنه مهما كثر الوضع في التفسير؛ فإن الوضع ينصبُّ على الرواية نفسها، أما

شرح عِلل الترمذي، تحقيق الدكتور همام عبد الرحيم سعيد ط. مكتبة المنار – الزرقاء – الأردن. ط.١ (١٤٠٧هـ): (٤٧٧/١).

(١) السيوطي، تدريب الراوي، مكتبة الرياض الحديثة: (٢٨٣/١).

(٢) مصطفى السباعي، السُّنة ومكانتها للسباعي ط. المكتب الإسلامي: (٨٧/١).

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء: (٢٨٣/١٣).

التفسير في حدّ ذاته فليس دائمًا أمرًا خياليًا بعيدًا عن الآية، وإنما هو - في كثير من الأحيان - نتيجة اجتهاد علمي له قيمته.

فمثلاً مَنْ يضع في التفسير شيئًا وينسبه إلى عليّ أو إلى ابن عباس، لا يضعه على أنه مجرد قول يُلقيه على عواهنه، وإنما هو رأى له، واجتهاد منه في تفسير الآية، بناه على تفكيره الشخصي، وكثيرًا ما يكون صحيحًا، غاية الأمر أنه أراد لرأيه رَواجًا وقَبولاً، فنسبه إلى مَنْ نُسِب إليه من الصحابة، ثم إن هذا التفسير المنسوب إلى عليّ أو ابن عباس لم يفقد شيئًا من قيمته العلميّة غالبًا، وإنما الشيء الذى لا قيمة له فيه هو نسبته إلى عليّ أو ابن عباس.

القسم الثاني: وضعٌ في الرواية المُسْنَدة ونسبتها:

هذا النوعُ يُهم الباحث في التفسير درسه وبحثه، ومعرفة صحيحه وسقيمه.

مصادر التفسير بالمأثور:

١- القرآن:

تفسير القرآن بالقرآن أفضل طرق التفسير، ومن أمثلته تفسير الكلمات في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة:٣٧]، بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف:٢٣].

٢- السُّنة:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل:٤٤]، وقال الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - : "السُّنة تفسِّر القرآن وتبينه"[١].

ومن أمثلة تفسير القرآن بالسُّنة، تفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى، وتفسير الخيط الأبيض والخيط الأسود بأنه بياض النهار وسواد الليل.

(١) القرطبي، جامع لأحكام القرآن: (٣٩/١).

٣- أقوال الصحابة:

وإذا لم تجد تفسير القرآن في القرآن، ولا في السّنة؛ فعليك بتفسير الصحابة - رضي الله عنهم - فإنهم أعلم بذلك لما اختُصُّوا به من مجالسة الرسول ﷺ ومشاهدة القرائن والأحداث والوقائع.

٤- أقوال التابعين:

وقد اختلف العلماء - رحمهم الله تعالى - في الرّجوع إلى أقوال التابعين إذا لم نجد التفسير في القرآن، ولا في السُّنة، ولا في أقوال الصحابة رضي الله عنهم، فمنهم من عدَّ أقوال التابعين مصدرًا من مصادر التفسير بالمأثور، ومنهم من عدَّها كسائر أقوال العلماء.

** إثراء:

أوجه بيان السُّنة للكتاب:

السُّنةُ النبويةُ: هي المصدرُ الثاني من مصادرِ التفسيرِ، ولقد جاءتْ مبيّنةً للقُرآنِ الكريمِ، ومن أَوْجُهِ بيانِهَا:

الوجه الأول: بيان المُجمل في القرآن، وتوضيح المُشكل، وتخصيص العام، وتقييد المطلق:

فمن الأول: بيانه عليه الصلاة والسلام لمواقيت الصلوات الخمس، وعدد ركعاتها، وكيفيتها، وبيانه لمقادير الزّكاة، وأوقاتها، وأنواعها، وبيانه لمناسك الحج.

ومن ذلك قوله ﷺ: «... **وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»[١]، وعن جابرٍ رضي الله عنه قالُ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَرْمِي عَلَىَ رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: «**لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ**»[٢].

ومن الثاني: تفسيره ﷺ للخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧]، بأنه بياض النهار وسواد الليل.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة، وكذلك بعرفة وجمع، وقول المؤذن: الصلاة في الرحال في الليلة الباردة أو المطيرة: (١/١٥٤)، (ح٦٣١).

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا، وبيان قوله ﷺ «**لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ**»: (٢/٩٤٣)، (ح١٢٩٧).

ومن الثالث: تخصيصه ﷺ الظلم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾[الأنعام:٨٢] بالشرك، فإن بعض الصحابة ﷺ فهم أَنَّ الظلم مُرادٌ منه العموم، حتى قالوا: وأيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «لَيْسِ بذَلِك، إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ».

ومن الرابع: تقييده اليد في قوله تعالى: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾[المائدة:٣٨] باليمين، وأنه إلى مِفْصَلُ الكَفِّ.

الوجه الثاني: بيان معنى لفظٍ أو مُتعلِقِهِ، كبيان: (المغضوب عَلَيْهِم) باليهود، و(الضآلين) بالنصارى، وكبيان قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾[البقرة:٢٥]، بأنها مُطهَّرة من الحيض والبُزَاق والنُخامة.

الوجه الثالث: بيان أحكام زائدة على ما جاء في القرآن الكريم، كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها، وصدقة الفطر، ورجم الزاني المحصن، وميراث الجدة، والحكم بشاهد ويمين.

الوجه الرابع: بيان النسخ: كأن يُبيِّن رسول الله ﷺ أن آيةَ كذا نُسِخَت بكذا، من ذلك نسخُ آياتِ المواريث لآيةِ الوصية للوارث: روى الترمذيُّ في السُّنن عن أبي أُمامةَ الباهليِّ ﷺ قال: سمعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول في خُطبتهِ عامَ حجَّةِ الوداعِ: «إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى قد أعطَى كلّ ذِي حقٍّ حقَّهُ، فَلا وَصيَّةَ لوارثٍ»[(١)].

فلقد نَسخت آياتُ المواريثِ آيةَ الوصيَّةِ، كما جاء بيانُ ذلك في السُّنَّة.

الوجه الخامس: بيان التأكيد، وذلك بأن تأتي السُّنَّة موافقة لما جاء به الكتاب، ويكون القصد من ذلك تأكيد الحكم وتقويته، وذلك كقوله ﷺ: «لا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ»[(٢)]، فإنه يوافق قوله تعالى: ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾[النساء:٢٩].

---

(١) رواه الترمذي في سُنَنه كتاب الْوَصَايَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، باب ما جاء لا وصية لوارث: (ح٢٢٠٣)، وقال: (هذا حديثٌ حسنٌ)، ورواه ابن ماجة في السُّنن، كِتَاب الْوَصَايَا، باب لا وصية لوارث: (ح٢٧١٤)، وقال صاحب الزوائد: (إسنادُهُ صحيحٌ).

(٢) السُّنن الكبرى للبيهقي، باب من غَصَب لوحًا فأدخله في سفينة، أو بنى عليه جدارًا: (ح١١٥٤٥).

حُكم التفسير بالمأثور:

التفسير بالمأثور ينقسم إلى قسمين:

١- ما توافرت الأدلة على صحته؛ فهذا يجب قبوله، ولا يجوز العُدُول عنه.

٢- ما لم يصح؛ فيجب ردّه، ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به؛ إلا للتحذير منه[١].

أهم المؤلفات في التفسير بالمأثور:

١. جامع البيان في تأويل آي القرآن: للإمام أبي جعفر مُحمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، وهذا الكتاب عُمْدَةٌ في باب التفسير بالمأثور، وموسوعة في اللغة والقراءات، وللإمام الطبري اجتهادات واختيارات مُوفَّقة.

٢. تفسير القرآن العظيم: لابن أبي حاتم، الإمام الحافظ عبدالرحمن بن مُحمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ)، وهو موسوعةٌ فريدةٌ في أقوال الصحابة والتابعين ﭫ.

٣. الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي: أبي إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري (ت: ٤٢٧هـ)، وهو مرجعٌ أساسيٌ استفاد منه البغوي كثيراً.

٤. النُّكت والعيون (تفسير الماوردي): لأبي الحسن علي بن مُحمد بن حبيب الماوردي البصري (ت: ٤٥٠هـ)، وهو جامعٌ مختصر للتفسير بالمأثور عن السَّلف.

٥. معالم التنزيل: للبغوي الحسين بن مسعود (ت: ٥١٦هـ)، وله أسانيده التي ذكرها في مقدمة كتابه، فضلاً عن استفادته من تفسير الثعلبي، وله عناية باللغة والقراءات.

٦. زادُ المسير في علم التفسير: للإمام أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي (ت: ٥٩٦هـ)، وهو جامع مختصر للتفسير بالمأثور عن السَّلف.

٧. تفسير القرآن العظيم: للإمام الحافظ عماد الدِّين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القُرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، وهو مرجع أساسي لا غِنى عنه، وقد جمع فيه الأحاديث والآثار، وله صياغة رصِينَةٌ، وتحقيقات علميّة، وتتبعٌ للإسرائيليات، وعناية بالفقه.

---

(١) دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي: (ص١٥٤).

٨. الدر المنثور في التفسير بالمأثور: للسيوطي (ت: ٩١١هـ)، وقد جمع فيه من مراجع أَصِيلةٍ مُسنَدة، منها ما هو موجود، ومنها ما هو مفقود، كتفسير ابن مردويه.

٩. فتحُ القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: للإمام مُحمد بن علي بن مُحمد الشوكاني (ت: ١٢٥٥هـ)، وقد اعتمد على تفسير القرطبي في جانب الرأي والدر المنثور في جانب الرواية، مع دِقةٍ ورَصَانةٍ، وإسقاطات كثيرة على عصره وانتقادات للبدع والأهواء.

هذا فضلاً عن أبواب التفسير بالمأثور في كتب السنة.

* * *

ثانيًا: التفسير بالرأي:

المراد منه: الرَّأْيُ: يُطْلَقُ في الُّلغة لمعانٍ متعددةٍ، فالرأيُ بمعنى الاجتهاد، والرأيُ بمعنى الاعتقاد، والرأيُ بمعنى القياس، والرأيُ: التفَكُّرُ في مباديءِ الأُمور، والنَّظر في عواقِبِهَا[١].

والمرادُ بالرأيِ هنا هو الاجتهادُ في فهمِ القرآنِ.

التعريف بالتفسير بالرأي:

التفسير بالرأي: عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد[٢].

شرطُه:

تفسير القرآن بالاجتهاد؛ بما لا يُخالف نصًّا، ووفقًا للقواعد والأصول التي بيَّنها المفسِّرون، ومع الدِّرايةِ الكافيةِ بكلّ ما يحتاجه المفسّر من علومٍ وأدوات.

أقسام التفسير بالرأي:

ينقسم التفسير بالرأي إلى قسمين:

القسم الأول: التفسير بالرأي المحمود:

"وهو ما كان على علم، أو غلبة ظن، فيكون بعد معرفة المفسّر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالاتها، ومستندًا للنصوص، والأدلة الشرعيّة".

و هذا النوع هو الذي دعا به رسول الله ﷺ لابن عباس – رضي الله عنهما –: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»[٣].

حُكم التفسير بالرأي المحمود:

أجاز العلماء هذا النوع، واستدلوا على ما ذهبوا إليه بما يأتي:

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: (١٥٣٧/٣)، والفيومي، المصباح المنير: (٢٤٧/١).

(٢) الذهبي، التفسير والمفسرون: (١٨٣/١).

(٣) صحيح ابن حبان: ذِكْرُ وَصْفِ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ اللَّذَيْنِ دَعا الْمُصْطَفَى ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ بِهِمَا،(ح٧٠٥٥)، قال الألباني: صحيح.

أولاً – بنصوصٍ وردت في كتاب الله تعالى، منها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٤]، وقوله: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩]،. وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء:٨٣]، ووجه الدّلالة في هذه الآيات: أنه تعالى حَثَّ في الآيتين الأولتين على تدبّر القرآن والاعتبار بآياته، والاتعاظ بعظاته، كما دلّت الآية الأخيرة على أن في القرآن ما يستنبطه أُولوا الألباب باجتهادهم، ويصِلُون إليه بإعْمَال عقولهم.

ثانيًا – قالوا: لو كان التفسير بالرأي غير جائز لما كان الاجتهاد جائزًا، ولتعطَّل كثير من الأحكام، وهذا باطلٌ بَيِّنُ البطلان، وذلك لأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحًا إلى اليوم أمام أربابه، والمجتهد في حكم الشرع مأجور، أصاب أو أخطأ، والنبي ﷺ لم يُفسِّر كلّ آيات القرآن، ولم يستخرج لنا جميع ما فيه من أحكام.

ثالثًا – استدلوا بما ثبت من أن الصحابة ﭫ قرأوا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كلّ ما قالوه في تفسير القرآن من النبي ﷺ، إذ أنه لم يُبيِّن لهم كلّ معانى القرآن، بل بَيَّنَ لهم بعض معانيه، وبعضه الآخر تَوَصَّلُوا إلى معرفته بعقولهم واجتهادهم.

رابعًا – قالوا: إنَّ النبي ﷺ دعا لابن عباس – رضى الله عنهما – ، فقال في دعائه له: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»[١]، فلو كان التأويل مقصورًا على السَّماعِ والنّقلِ كالتَّنزيل، لما كان هناك فائدةٌ لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء؛ فَدَلَّ ذلك على أن التأويل الذى دعا به الرسول ﷺ لابن عباس أمْرٌ آخرٌ وراء النقل والسماع، ذلك هو التفسير بالرأي والاجتهاد، وهذا بَيّنٌ لا إشكال فيه.

قال ابن تيمية – رحمه الله – : "فأما مَن تكلّم – يعني في التفسير – بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا حَرَج عليه"[٢].

(١) سبق تخريجه.

(٢) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: (ص١١٤).

القسم الثاني: التفسير بالرأي المذموم:

تعريفه: "هو تفسير القرآن الكريم دون مراعاة لأصول التفسير وقواعده؛ تعصُّبًا لمذهبٍ ضالٍّ، كالمعتزلة، والخوارج، والمرجئة، والرافضة".

ظهر الرأي المذموم في التفسير وانتشر؛ لمّا ظهرت البدع؛ لأن أهل البدع يعتقدون رأيًا، ثم يكون لهم مع النصوص طريقان:

الأول: نفي الدّلالة الظاهرة التي تُخالف مذهبهم.

الثاني: حمْلُ المعنى على ما يعتقدون، وإن لم يكن يُراد به المعنى الذي ذهبوا إليه.

وفي مثل هؤلاء قال ابن تيمية – رحمه الله – : "أن مِثلَ هؤلاء اعتقدوا رأيًا ثم حمَلُوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم"[(١)].

حكم التفسير بالرأي المذموم:

حرَّم العلماء هذا النوع من التفسير، واستدلوا على ما ذهبوا إليه بما يأتي:

أولاً: فمن القرآن: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف:٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:٣٦].

في هذه الآيات نّهْيٌ وتشنيع على القول على الله بغير علم؛ ففي الآية الأولى جعله من المحرّمات، وفي الآية الثانية جعله من اتباع خطوات الشيطان، وفي الآية الثالثة جعله منهيًا عنه، وفي هذا كلّه

---

(١) المرجع السابق: (ص٢١).

دليلٌ على عدم جواز القول على الله بغير علم.

ثانيًا: استدلوا بقوله تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[النحل:٤٤]، فقد أضاف البيان إليه، فعُلِمَ أنه ليس لغيره شيءٌ من البيان لمعاني القرآن.

ثالثًا: استدَّلوا بما ورد في السُّنَّة من تحريم القول في القرآن بالرأي فمن ذلك:

١- رَوَى التِّرْمِذِيُّ بِسَنَدِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**اتَّقُوا الْحَدِيثَ عَنِّي إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»(١).

٢- رَوَى التِّرْمِذِيُّ بِسَنَدِهِ عَنِ جُنْدُبٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ**»(٢).

رابعًا: ما ورد عن السَّلف من الصحابة والتابعين، من الآثار التي تدُّل على أنهم كانوا يُعَظِّمون تفسير القرآن ويتحرَّجون من القول فيه بآرائهم.

فمن ذلك: ما جاء عن أبي مُليكة أنه قال: سُئل أبو بكر الصِدِّيق رضي الله عنه في تفسير حرفٍ من القرآن فقال:"أيُّ سماءٍ تُظلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقلُّني، وأين أذهب، وكيف أصنع إذا قلتُ في حرفٍ من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى"(٣)؟

وما ورد عن سعيد بن المسيّب: أنه كان إذا سُئل عن الحلال والحرام تكلّم، وإذا سُئل عن تفسير آية من القرآن سَكَت كأن لم يسمع شيئًا(٤).

وما رُويَ عن الشَّعبي أنه قال: "ثلاثٌ لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن، والروح، والرأي"(٥).

---

(١) سُنن الترمذي: باب الذي يُفسّر القرآن برأيه: (ح٢٩٥١)، قال أبو عيسى: (هذا حديث حسن).

(٢) سُنن الترمذي: باب الذي يُفسّر القرآن برأيه: (ح٢٩٥٢).

(٣) الطبري، جامع البيان: (٧٨/١).

(٤) المرجع السابق: (٧٨/١).

(٥) المرجع السابق: (٧٨/١).

وهذا ابن مجاهد يقول: "قال رجل لأَبي: أنت الذى تُفسِّر القرآن برأيك؟ فبكى أُبَيّ، ثم قال: إني إذن لجريء، لقد حملتُ التفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ورضى عنهم"[(١)].

قال ابن تيمية - رحمه الله - : "فهذه الآثار الصحيحة وما شَاكلها عن أئمة السَّلف، محمُولةٌ على تحرُّجِهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأمّا مَن تكلّم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا حَرَج عليه، ولهذا رُوِي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلّموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، هذا هو الواجب على كلّ أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سُئِل عنه مما يعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ولِما جاء في الحديث المروي من طُرقٍ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يومَ القِيَامةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ[(٢)]» [(٣)].

وقال النووي - رحمه الله - : "ويَحرُمُ تفسيره بغير علم، والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها، والأحاديث في ذلك كثيرة، والإجماع منعقدٌ عليه، وأما تفسيره للعلماء فجائزٌ حسَنٌ، والإجماع مُنعقد عليه...، وأمّا من كان ليس من أهله لكونه غير جامعٍ لأدواته؛ فحرامٌ عليه التفسير؛ لكن له أن ينقُل التفسير عن المعتمدين من أهله"[(٤)].

إذا عُلِم هذا؛ فينبغي الحذر الشديد من القول في التفسير بغير علم.

أهمُّ الكتب المؤلفة في التفسير بالرأي المحمود:

- **معاني القرآن**: للفرَّاء الحافظ أبي زكريا يحي بن زياد بن عبدالله بن منظور الديلمي الكوفي اللغوي المقري البغدادي (ت: ٢٠٧هـ).
- **المحرر الوجيز**: لابن عطية عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٦هـ).

---

(١) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: (١٢/١).

(٢) سُنن ابن ماجة: باب من سئل عن علم فكتمه :(ح٢٦٤)، قال الشيخ الألباني: (صحيح).

(٣) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: (١١٤-١١٥).

(٤) النووي، التبيان في آداب حملة القرآن: (ص١٦٥).

- **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**: لفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ).
- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**: للبيضاوي عبدالله بن عمر (ت: ٦٨٥هـ).
- **البحر المحيط**: لأبي حيان مُحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (ت:٧٥٤هـ).
- **اللُّباب في علوم الكتاب**: لابن عادل الحنبلي الدمشقي، فرغ من تأليفه في رمضان من سنة (٨٧٩هـ).
- **تفسير الجلالين**: لجلال الدين مُحمد بن أحمد المحلي (ت: ٦٨٤هـ)، وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ).
- **إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم**: لأبي السعود مُحمد بن مُحمد مصطفي العمادي الحنفي (ت: ٩٨٢هـ).
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: للألوسي شهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ).
- **تفسير القرآن الحكيم "تفسير المنار"**: للسيد مُحمد رشيد رضا (ت:١٣٥٤هـ).
- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**: للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي(ت:١٣٧٦هـ).
- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: للشيخ الشنقيطي مُحمد الأمين بن مُحمد المختار الجكني (ت: ١٣٩٣هـ).
- **أيسر التفاسير**: للشيخ أبي بكر جابر الجزائري.
- **حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن**: لمُحمد الأمين بن عبدالله الأرمي العلوي الهرري الشافعي.

أهم الكتب المؤلفة في التفسير بالرأي المذموم:

١- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل:** للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ).

٢- **هميان الزاد إلى دار المعاد:** لمحمد بن يوسف أطفيش.

٣- **حقائق التفسير**: أبو عبدالرحمن السلمي.

٤- **تنزيه القرآن عن المطاعن**: القاضي عبد الجبار المعتزلي.

٥- **غرر الفوائد ودرر القلائد**: الشريف المرتضي على بن الطاهر أبي أحمد الحسين الشيعي.

٦- **مجمع البيان في تفسير القرآن**: أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي.

٧- **تفسير كتاب الله العزيز**: هود بن مُحَكَّم الهواري.

٨- **تفسير القرآن العظيم**: أبو مُحمد سهل التستري.

٩- **الميزان في تفسير القرآن**: مُحمد حسين الطباطبائي.

١٠- **البيان في تفسير القرآن**: مُحمد جواد مَغْنية.

نموذج من التفسير الصوفي المنحرف:

ذكر ابن عربي في تفسيره لقوله تعالى في سورة نوح: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ [نوح:٢٥] يقول: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾، فهي التي خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله وهو الحيرة، ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ في عين الماء، ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلى الأبد"[١].

(١) الذهبي، التفسير والمفسرون: (٢/٣٠٤).

الموضوع الرابع
مناهج المفسّرين

جامع البيان في تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري

أولاً: مع المفسِّر: هو الإمامُ الفقيهُ المؤرّخُ المحدِّثُ المفسِّر: أبو جعفر مُحمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ).

ثانيًا مع التفسير: طريقته في التفسير: قام المفسِّر - رحمهُ الله - بتقسيم الآيات إلى مقاطع يبدأ كلّ مقطع بقوله: "القول في تأويل قوله تعالى..." ثم يفسِّرُ الآيةَ ويستشهدُ على ما يذكرُهُ بالمأثورِ عن الصحابةِ والتابعينَ، وإذا كان في تفسير الآية اختلافٌ بين المفسِّرين فإنه يعْرِضُ له، ثم يذكر أدلة كلّ فريق، ويرجِّح بين الآراء بعد عرضه لأدلة كلّ فريق.

● **مصادره:** اعتمد الطبريُّ في تفسيره على مصادر التفسير بالمأثور، كما رجع إلى كتب اللغة، واستعان بكتب الفقه وغيرها، فجمع بين المأثور والرأي، وأثرى تفسيره بتنوع مصادره.

موقفه من اللغة: إلى جانب عنايته بالتفسير المأثور، فإن الطبري يعتبر اللغة العربية مصدرًا أساسيًا من مصادر التفسير فيرجع إليها، ويحتكم إلى كلام العرب، ويستشهد بالشِّعر وهو ديوان العرب.[١]

(١) **نموذج من تفسيره:** عند تفسيره لقوله تعالى في سورة هود: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود:٤٠]: أورد أقوال المفسرين في معنى﴿التَّنُّور﴾، فقال: "قال بعضهم: معناه: انبجس الماء من وجه الأرض، وفار التنور، وهو وجه الأرض، وقيل التنور: هو تنوير الصبح من قولهم: نور الصبح تنويرًا، وقيل: التنور أشرف الأرض، والمعنى: أشرف الأرض وأرفعها فار الماء منه، وقال آخرون: هو التنور الذي يُختبز فيه، أي: إذا رأيت تنور أهلك يخرج منه الماء فإنه هلاك قومك، عن=

موقفه من الأسانيد: تميَّز هذا التفسيرُ بأسانيده المتصلة إلى رسول الله ﷺ وإلى الصحابة والتابعين ﷺ، لكن جُلُّ اهتمامِه انصرف إلى جمعِ أكبرِ قدرٍ من الروايات المسندةِ؛ حتى يتمكَّن من يأتي بعده من البداية من حيث انتهى - رحمه الله - ، فيُمحِّصوا تلك الرِّوايات ويُحققوها سندًا ومتنًا، وقد قيل: "من أسند لك فقد حمَّلك"، أي حمَّلك مُهمــة البحــث في الإسناد؛ لذا لم يهتم - رحمه الله - بنقد الروايات إلا في أحيان قليلة، نجده يقف من الروايات موقف الناقد البصير:

من ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف:٩٤]، ينتقد ما رُوي عن عكرمة في بيان معنى السَّد فيقول: "قال عكرمة: ما كان من صنعة بني آدم فهو السَّد، يعني بالفتح، وما كان من صنع الله فهو السُّد، وكان الكِسائي يقول: هما لغتان بمعنى واحد، والصواب من القول في ذلك عندي أن يُقال: إنهما قراءتان مُستَفِيضَتَان في قراءة الأمْصَار، ولُغتان مُتفقتا المعنى غير مختلفتان، فبأيَّتهما قرأَ القارئُ فمُصِيب، ولا معنى للفرق الذي ذُكِرَ عن أبي عمرو بن العلاء، وعكرمة بين السَّد والسُّد، لأنَّا لم نجد لذلك شاهدًا يبينُ عن فرقانِ ما بين ذلك على ما حُكي عنهما. ومما يُبينُ ذلك أن جميعَ أهلِ التأويلِ الذي رُوي لنا عنهم في ذلك قول، لم يُحْكَ لنا عن أحدٍ منهم تفصيلٌ بين فتحِ ذلك وضمّه، ولو كانا مختلفِي المعنَى لنُقِلَ الفصلُ مع التأويل إن شاء الله، ولكن معنى ذلك كان عندهم غير مُفترقٍ، فيُفسّر الحرف بغير تفصيل منهم بين ذلك، وأما ما ذكر عن عكرمة في ذلك، فإن الذي نقلَ ذلك عن أيوب: هارون، وفي نقله نظر، ولا نعرف ذلك عن أيوب من رواية ثقات

=مجاهد قال: نبع الماء في التنور، فعلمت به امرأته فأخبرته". ثم قال بعد أن ذكر اختلاف المفسرين في معنى التنور: "وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله: ﴿التَّنُّورُ﴾ قول من قال: هو التنور الذي يُخبز فيه؛ لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يوجَّه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك فيُسلَّم لها، وذلك أنه جلَّ ثناؤُهُ إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به". جامع البيان للطبري: (٢٥/١٢). كما يُكثِر من استشهاده بالشِّعر في بيان المعنى وفي المسائل النحويّة، يُراجع ما ذكره في معنى كلمة السورة والآية في جامع البيان: (٣٦/١).

أصحابه، والسَّد والسُّد جميعًا: الحاجز بين الشيئين، وهما هاهنا فيما ذُكر جبلان سُدَّ ما بينهما، فَرَدَمَ ذو القرنين حاجزًا بين يأجوج ومأجوج ومن وراءهم، ليقطع مادة غوائلهم وعيثهم عنهم".[(١)]

وكان – رحمه الله – دقيقًا في ذكرِ السّندِ وفي تسجيلِ أسماءِ الرُّواةِ، لأنه اتصل بكثيرٍ من العلماءِ وسمع منهم، فإذا كان قد سمع هو وغيره قال: "حدثنا"...، وإذا كان قد سمع وحده قال: "حدثني"...، وإذا نسي واحدًا من سلسلة الرواية صرَّح بنسيان اسمه.

عنايته بالقراءات: عَرَضَ وجوهَ القراءاتِ وَعَزَاهَا إلى من قَرَأَ بها من الأئِمَّةِ القراءِ ورجَّحَ ما ارتضاه فقد كان عالـمًا بالقراءات، وإن كان لا يجوز الترجيح بين قراءتين متواترتين، ولا تضعيف إحداهما طالما أنها قراءة متواترةٌ موافقةٌ لوجهٍ من وجُوه اللغة، ولرسم المصحف ولو احتمالاً كما ذكر أئمة القراءات.

موقفه من الفقه: للطبري كتاب اختلاف الفقهاء...، فهو فقيهٌ دارسٌ لاختلاف الفقهاء، بل ومجتهدٌ صاحبُ آراءَ واجتهاداتٍ...، ومن البداهة أن يعرضَ للآراءِ الفقهيةِ ويناقشَها في مناسباتِها من آياتِ الأحكامِ...، وينتهي في مناقشةِ كلّ منها إلى ما يَسْتَصْوِبهُ لكنَّه لا يسترسلُ كثيرًا في هذا الأمرِ، ولا يتوسَّعُ فيه.

عرضه للمسائل العقدية: ولقد اهتمَّ الطبريُّ بعرض آراء المتكلّمين ومناقشتها ومناصرة مذهب أهل السُّنة، والرّد على الفرق الضالة، لكنه لم يتوسَّع في ذلك[(٢)].

القِيمَةُ العلميَّة لهذا التفسير: لقد أثنى عليه المحققون من العلماء، من ذلك ما ورد عن أبي حامد الإسفراييني قال: "لو سافر رجلٌ إلى الصينِ حتى يحصلَ له كتابُ تفسيرِ ابنِ جريرٍ لم يكن ذلك كثيرًا".[(٣)]

---

(١) المرجع نفسه: (١٦/١٣).

(٢) يُراجع ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران:٨]، جامع البيان للطبري: (٣/١٢٥)، وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة:٧]، نفس المرجع: (١/٨٨)، وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، نفس المرجع: (٦/١٩٤).

(٣) معجم الأدباء لياقوت الحموي: (١٨/٤٢).

وسُئِلَ ابنُ تيمية عن أيِّ التفاسير إلى الكتاب والسنة أقربُ؟ الزمخشري، أو القرطبي، أم البغوي، أم غير هؤلاء؟ فأجاب – رحمه الله – : "الحمد لله، أما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحُّها تفسير مُحمد بن جرير الطبري فإنه يذكُرُ مقالات السَّلف بالأسانيد الثَّابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين كمقاتل بن بكير والكلبي".[١]

معالم التنزيل للبغوي

أولاً: التعريف بالمفسِّر: هو العلَّامةُ الفقيهُ المحدِّثُ المفسِّر: الحسين بن مسعود بن مُحمد البغوي[٢]. يُعرف بابن الفراء[٣]، ويُلّقب بمحيي السُّنة ورُكن الدّين، ولد سنة (٤٣٣هـ)، وكانت وفاته في شهر شوال سنة (٥١٦هـ) وقد جاوز الثمانين[٤].

ثانيًا: التعريف بالتفسير: مصادره في التفسير:

- اعتمد البغوي في تفسيره على التفسير بالمأثور، وقد ذَكَرَ في مقدمةِ تفسيرِهِ أسانيدَهُ التي اعتمد عليها غالبًا في روايتِهِ عن الصحابة والتابعين ﷺ.
- كما أنه استفاد كثيرًا من تفسيرِ الثعلبيِّ "الكشف والبيان" مع تجنُّبِهِ – في الأعمِّ الأغلبِ – ما في هذا التفسيرِ من إسرائيلياتٍ.
- هذا فضلاً عن رُجوعِهِ إلى كتبِ اللغةِ ونقلِهِ عن كثيرٍ من علماءِ اللغةِ: كابن الأنباري، والأخفش، والأزهري، والخليل بن أحمد الفراهيدي، والزجَّاج، وسِيبويه، والفرّاء، والكِسائي،

(١) مقدمة التفسير ضمن مجموع فتاوى الإمام ابن تيمية: (١٣/٣٨٥).

(٢) نسبة على غير قياس إلى بلدته (بغشور)، وهي بلدة من بلاد (خُراسان) بين (هراة) و(مرو الروذ)، و(هراة) مدينة كبيرة من مدن (خراسان)، فيها بساتين كثيرة، ومياهٌ غزيرة، وهي من المدن التي خربها التتار، و(مروروذ) مدينة على نهر عظيم إليه تنسب – معجم البلدان: (٥/١١٢).

(٣) نسبة إلى صنعة أبيه.

(٤) طبقات المفسرين، للداوودي: (١/١٥٨)، وطبقات الحفاظ: (١/٤٥٧)، وطبقات الشافعية الكبرى: (٧/٧٥)، وشذرات الذهب: (٣/٢١٣).

وقطرب، والمبرّد، وغيرهم.

قال ابن تيمية: "والبغويُّ تفسيرُه مختصرٌ من الثعلبيّ، لكنّه صَانَ تفسيرَهُ عن الأحاديثِ الموضوعةِ، والآراءِ المبتدَعَةِ"، وقد سُئِلَ عن أيِّ التفاسيرِ أقربُ إلى الكتابِ والسنةِ؟ الزمخشري أمِ القرطبي أمِ البغوي؟ أو غيرِ هؤلاءِ؟ فأجابَ: "... أما التفاسيرُ الثلاثةُ المسئولُ عنها فأسلمُها مِنَ البِدْعَةِ والأحاديثِ الضعيفةِ: البغوي"[1].

موقفه من الإسرائيليات: تجنَّب البغويُّ في تفسيره كثيرًا من الإسرائيليات، لكنه في أحيانٍ قليلةٍ قد يذكرُها بدونِ تعقيبٍ عليها.

موقفُهُ من القراءاتِ: عُنِيَ المفسِّر بالقراءاتِ فَحَرَصَ على عزوِها وتوجيهِها في ضوء علمِهِ الغزيرِ بها؛ فهو عَلَمٌ من أعلامِ القراءاتِ، وله فيها كتاب بعنوان الكفايةِ[2]، ولقد ذَكَر في مقدمة تفسيره مصادره في القراءات.

موقفه من المسائل النحويّة والبلاغيّة: الـمُلاحظ أنه لا يستطرد إلى بيان ذلك كثيرًا، إلا في حدود ما يخدِمُ المعنى، أو يُبيِّن معنى القراءة وتوجيهها، أو يدفعُ إشكالاً.

موقفه من الفقه: اهتمّ البغويُّ بإبرازِ المسائِلِ الفقهيةِ، وعَرْضِ الآراءِ مع الترجيحِ تارةً، وتارة أخرى يعرضُ دون أن يرجِّح، لكنّه لم يتوسَّع في ذلك[3].

موقفه من قضايا العقيدة: الْتَزم المفسِّر بمنهجِ أهلِ السنةِ في فهمِ العقيدةِ، لكنَّه لم يتوسَّع في عرضِ قضايا العقيدة، كما أنه انتَقَد من خلال تفسيره الفِرَق الضالَّة دون إسهابٍ[4].

---

(١) فتاوى ابن تيمية: (١٣/٣٨٦).

(٢) أشار إليه صاحب كشف الظُّنون: (٢/١٤٩٩).

(٣) نموذج من التفسير: يُراجع على سبيل المثال ما ذكره البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة:٢٢٣]، معالم التنزيل للبغوي: (١/٢٦١).

(٤) نموذج من التفسير: يُراجع على سبيل المثال ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ=

قيمة هذا التفسير العلميّة: يُعَدُّ هذا التفسيرُ من أهمِّ مراجِعِ التفسيرِ بالمأثورِ، وقد كُتِبَ له الانتشارُ والقبولُ وأثنَى عليه العلماءُ، قال الإمامُ الذهبيُّ: "وله القَدَمُ الرَّاسِخُ في التفسير"، وقال الإمامُ السُّبْكِيُّ: "وقدرُهُ عالٍ في الدينِ والتفسيرِ"[١]، وقال السيوطيُّ: "وكان إمامًا في التفسير"[٢].

تفسير القرآن العظيم، لابن كثير

أولاً: مع المفسِّر: هو الإمامُ الحافظُ إسماعيلُ بنُ عُمَر بنِ كثيرٍ بنِ ضوء المعروف بـ (عماد الدين أبي الفداء) الدمشقي، محدِّثٌ، مؤرخٌ، مفسّرٌ، فقيهٌ، ولد سنة (٧٠١هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٧٧٤هـ)، وله مؤلفاتٌ كثيرةٌ في التفسيرِ، والحديثِ، وعلوم الحديث، وفي التاريخ.

ثانيًا: مع التفسير: طريقته في التفسير: يذكر الإمام ابن كثير الآية أو الآيات فيشرحها بعبارة سهلة مُوجزة، ثم يوضح ما ورد في تفسيرها من المأثور معتمدًا على القرآن والسُّنة وأقوال الصحابة والتابعين ﷺ.

ومن سمات هذا التفسير: عقْدِهِ فُصولاً في موضوعات معينة من خلال التفسير[٣]، هذا إلى جانب اهتمامه بالمأثور الوارد في سياق التفسير، وفي فضائل السُّور، وأسباب النزول.

- ومن مميزات هذا التفسير:
  - تنبيهه على الإسرائيليات، والأحاديث الضعيفة والموضوعة التي ساقها كثير من المفسِّرين دون إشارة إلى وضعها وضعفها.

=﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، معالم التنزيل: (٢٣٦/٣)، ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام:١٠٣]، معالم التنزيل: (١٧٤/٣).

(١) طبقات الشافعية الكبرى، للسُّبكي: (٧٦/٧).

(٢) طبقات المفسرين للسيوطي: (ص١٢).

(٣) على سبيل المثال لا الحصر ما ذكره في تفسير سورة الإسراء تحت عنوان: (ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء): (٢/٣)، وما ذكره في تفسير سورة لقمان تحت عنوان: (فصل في الخُمُول والتواضع): (٤٤٧/٣).

- كما أنه يُشير في بعض المواضع إلى المناسبة بين الآيات.
- هذا إلى جانب استعراضه للأحكام الفقهية الواردة من خلال التفسير[(١)]، وترجيحه بين المذاهب الفقهية، ولكنه في هذا مُقتصد لا يُسرف في عرض الأحكام الفقهية، ولا يستطرد إلى ذكر التفريعات، والاختلافات المذهبية التي تخرج عن نطاق التفسير[(٢)].

الدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي

الدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي: من أشهر المؤلفات في التفسير بالمأثورِ، ومن المراجِعِ الأساسِيةِ في بابِهِ: ومؤلِفُهُ عَلَمٌ من أعلامِ التفسيرِ، له إسهاماتٌ عديدةٌ في هذا العلمِ، وفيما يلي نتحدثُ عن المفسِّر والتفسيرِ:

أولاً: المفسِّر: اسمه ونسبه: هو الإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن مُحمد الخضيري السيوطي، وفاته سنة (٩١١هـ)[(٣)].

ثانيًا: التعريف بالتفسير: هذا التفسير ملخَّصٌ من تفسير "تُرْجمان القرآن"، حيث اختصر السيوطي الأسانيد واكتفى بذكر الراوي الأعلى مع عَزْوِ الأحاديث إلى مواضعها من كتب السُّنة، وكتب التفسير المسندة، وفي ذلك يقول في مقدمة تفسيره بعد حمد الله ﷻ والصلاة والسلام على النبي ﷺ: وبعد: "فلما ألفتُ كتابَ "ترجمانِ القرآنِ"، وهو التفسيرُ الـمُسْنَدُ عن رسولِ الله ﷺ وأصحابِهِ رضي الله عنهم، وتم بحمد الله في مجلدات، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرج منها واردات، رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله، ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله، فخلَّصتُ منه هذا المختصرَ مقتصِرًا فيه على متنِ الأثرِ، مُصدِّرًا بالعزوِ والتخريجِ إلى

---

(١) يُراجع التفسير: (٣/٣٣٦،٢٢٩،١٨٩).

(٢) يُراجع التفسير: (٤/٣٨٤،٣٣٧).

(٣) تُراجع ترجمته لنفسه في مقدمة كتابه: "حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة"، وكتاب: "جلال الدين السيوطي" تأليف: مصطفى الشكعة.

كُلِّ كتاب مُعتبر، وسميته: "الدر المنثور في التفسير بالمأثور"، واللهَ أسأل أن يُضاعف لمؤلفه الأجور، ويعصمه من الخطأ والزُّور، بمنِّه وكرمه إنه البرُّ الغفور"[١].

مصادره: رجع المفسِّر إلى كُلِّ ما تيسَّر له الرجوع إليه من كتب السُّنة: الصحيحين، والسُّنَن، والمسَانِيد، والمصنَّفات، والمعاجِم، والأجزاء، بالإضافة إلى كتب التفسير المُسْنَدة: كجامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري، وتفسير ابن أبي حاتم، وتفسير ابن مردويه، ومعالم التنزيل للبغوي، وتفسير الثعلبي، والمصنفات في أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وفضائل السُّور والآيات.

طريقته في التفسير: يذكر ما ورد مرفوعًا إلى النبي ﷺ من تفسير مأثور، وما رُوي من أقوال الصحابة ﷺ، وما نُقل عن التابعين، لكنه يعتمدُ على مجرّدِ النقلِ دون تعقيبٍ وتمحيصٍ، ومن ثَمَّ فقد اشتمل الكتابُ على الصحيح والضعيف، ومع ذلك فللكتابِ قيمتُهُ العلميّةُ: حيث يُعَدُّ مرجِعًا أساسيًّا للباحثين في التفسير بالمأثور[٢].

* * *

(١) الدر المنثور، للسيوطي: (٢/١).

(٢) نفس المرجع: (٢٥/١) باختصار.

التفسير الكبير للرازي

التعريف بالمفسِّر:

هو مُحمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري الطبرستاني، ابنُ خطيب الرَّيّ المشهور بفخرِ الدينِ الرازي، الفقيه، المتكلّم، اللغوي، الخطيب: (ت: ٦٠٦هـ).

منهجه في التفسير:

عنايتُهُ بإبرازِ المناسباتِ بين السُّور والآياتِ؛ وفي ذلك إثراءٌ للمعنَى وكشفٌ عن وجهٍ من وجوهِ إعجازِ القرآنِ مِن خلالِ تناسُقِ السُّور وتناسُبِ الآياتِ.

موقفُهُ من اللغة:

لا يتوسَّعُ الرازي في عرض المسائل النحوية والنِّكات البلاغية، لكنه يذكُرُ منها ما يُعينُ على فهمِ المعنَى أو يوجِّهُ قراءةً أو يوضِّحُ إشكالاً، أو يدفَعُ إيهامًا.

موقفُه من الفقهِ:

يستطرِدُ الرازي كثيرًا لعرضِ المسائلِ الفقهيةِ، فيذكرُ المذاهبَ في المسألةِ، وكثيرًا ما يميلُ إلى مذهبِهِ الشافِعِي.

موقفُهُ من الإسرائيليات:

الرازي مُقِلٌّ جِدًّا في هذا الشأن، وكثيرًا ما يتعقَّبُها ويردُّ عليها، لا سيَّما تلك التي تقدحُ في سلامةِ العقيدةِ؛ فتنالُ من عصمةِ الأنبياءِ والملائكةِ عليهم السلام.

موقفه من القراءات:

يتعرَّض المفسِّر لها فيوجِّهُهَا ويُفَسِّرُهَا مع عزوِها للأئمةِ الأعلامِ الذين رُوِيَتْ عنهم.

اهتمامُهُ البالغُ بقضايا العقيدةِ وعلمِ الكلامِ:

وقد شَغَلَ ذلك حيِّزا كبيرًا من تفسيره، حتى غَلَبَ عليه هذا الجانبُ، فكان مُولَعًا بعرضِ آراءِ وحُجَجِ الفِرقِ المنحرفةِ عن منهجِ أهل السنة والجماعة كالمعتزلة وغيرها.

البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي

التعريف بالمفسِّر:

هو الإمامُ النحوي الفقيه المفسِّر: مُحمد بن يوسف بن علي بن حيان الغرناطي الأندلسي النَّفْزِيُّ. أثيرُ الدِّين، توفي رحمه الله في القاهرة عام (٧٤٥هـ)[١].

التعريف بالتفسير:

يُعَدُّ هذا الكتابُ من أهمّ كتبِ التفسيرِ بالرأيِ ومرجعًا من مراجعِ التفسيرِ اللغوي للقرآنِ الكريمِ، حيث يغلُبُ عليه الاهتمامُ بالجانبِ النحوي والعناية بالقراءاتِ القرآنيةِ، روايةً وعزوًا وحكمًا وتوجيهًا.

ومع هذا الاهتمامِ البالغِ بمسائلِ النحوِ، فلقد اهتمَّ المفسِّر بالجوانبِ الأخرى، فتراه يُبيّنُ معانِيَ المفرداتِ، وأسبابَ النُّزول، والناسخَ والمنسوخِ، ويستطردُ إلى ذكرِ الأحكامِ، ويُورِدُ التفسيرَ بالمأثورِ، وغيرِ ذلك من موضوعاتِ التفسيرِ.

مصادرُهُ في التفسير:

من المصادرِ الأساسيةِ لهذا التفسيرِ كتاب "التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير"، وهو من جمع شيخه جمال الدين أبي عبدالله مُحمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي المعروف بابن النقيب، كما أكثر أبو حيان النقل عن "الكشاف" للزمخشري، و"المحرر الوجيز" لابن عطية، خاصة ما يتعلق بالمسائل النحوية والأساليب البلاغية مع كثرة تعقُّبِهِ لهما في مسائل النّحو، فضلاً عن انتقاده لِما في الكشاف من اعتزاليَّات، ونظرًا لكثرة هذه التعقيبات؛ فلقد قام تلميذه تاج الدِّين أحمد بن عبد القادر بن أحمد (ت: ٧٤٩هـ) بجمع هذه التعقيبات ودراستها، وذلك في كتابه "الدُّر اللقيط من البحر المحيط"، وهو مطبوع بهامش البحر المحيط، كما قام الشيخ يحي الشاوي المغربي بجمع تعقيبات أبي حيان على الزمخشري في كتاب بعنوان "بين أبي حيان والزمخشري".

---

(١) الوافي بالوفيات: (٥/٢٦٧)، شذرات الذهب: (٦/١٤٥)، نفح الطِّيب: (٣/٢٢٩-٣٢١-٣٤٠)، النجوم الزاهرة: (١٠/١١١)، الدُّرر الكامنة: (٢/٢٦٦)، فوات الوَفَيَات: (٢/٥٥٥)، الأعلام: (٨/٢٦).

هذا ولقد أبان في مقدمة تفسيره عن طريقته ومنهجه: وفي ذلك يقول – رحمه الله – : "وترتيبي في هذا الكتاب أني أبتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية لفظةً لفظة فيما يُحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة معنيان أو أكثر؛ ذكرت ذلك في أوَّلِ موضعٍ لتلك الكلمة؛ ليُنظَر ما يُناسب لها من تلك المعاني في كلِّ موضعٍ تقع فيه فتُحمل عليه، ثم أَشْرُعُ في تفسيرِ الآيةِ ذاكرًا سببَ نزولِها إذا كان لها سببٌ، ونسخَها ومناسبتَها وارتباطَها بما قبلها، حاشدًا فيها القراءاتِ شاذَّها ومستعمَلَها، ذاكرًا توجيهَ ذلك في علمِ العربيةِ، ناقلاً أقاويلَ السَّلف والخلفِ في فهمِ معانيها، متكلّمًا على جليّها وخفيّها، بحيثُ أني لا أغادرُ منها كلمةً وإن اشتُهِرَت حتى أتكلّم عليها، مُبديًا ما فيها من غوامضِ الإعرابِ ودقائقِ الآدابِ، من بديعٍ وبيانٍ، مجتهدًا أني لا أكرّرُ الكلامَ في لفظٍ سَبَقَ، ولا في جملةٍ تقدَّم الكلامُ عليها، ولا في آيةٍ فُسِّرَت، بل أذكر في كثيرٍ منها الحَوَالةَ على الموضِعِ الذي تُكلّمَ فيه على تلك اللفظةِ أو الجملةِ أو الآيةِ، وإن عرَض تكريرٌ فبمزيدِ فائدةٍ، ناقلاً أقاويلَ الفقهاءِ الأربعةِ وغيرِهم في الأحكامِ الشرعيةِ مما فيه تعلقٌ باللفظِ القرآني، مُحيلاً على الدلائل التي في كتب الفقه، وكذلك ما نذكره من القواعد النحوية أُحيلُ في تقريرها والاستدلالِ عليها على كتبِ النَّحو، وربما أذكرُ الدّليلَ إذا كان الحكمُ غريبًا أو خلافَ مشهورٍ ما قال معظمُ الناس، بادئًا بمقتضَى الدليلِ وما دلَّ عليه ظاهرُ اللفظ، مرجّحًا له لذلك ما لم يصدّ عن الظّاهِرِ ما يجبُ إخراجُهُ به عنه معرِضًا عن الوجوهِ الإعرابيةِ التي تنزَّهَ القرآنُ عنها، مبيّنًا أنها مما يجبُ أن يُعدلَ عنه، وأنه ينبغِي أن يُحْمَلَ على أحسنِ إعرابٍ وأحسنِ تركيبٍ، إذ كلامُ اللهِ تعالى أفصحُ الكلام فلا يجوزُ فيه جميعُ ما يُجوّزُهُ النُّحاةُ في شِعْرِ الشّماخ، والطرماح، وغيرِهما، من سلوكِ التقاديرِ البعيدةِ والتراكيبِ القلقةِ والمجازاتِ المعقَّدةِ، ثم أختتمُ في جملةٍ من الآيات التي فسرتُها إفرادًا وتركيبًا بما ذكروا فيها من علمِ البيانِ والبديعِ ملخّصًا، ثم أُتبعُ آخرَ الآيات بكلامٍ منثورٍ أشرح به مضمونَ تلك الآيات على ما أختارُه من تلك المعاني ملخّصًا جُمَلَهَا أحسنَ تلخيصٍ، وقد ينجرُّ معها ذكرُ معانٍ لم تتقدم في التفسير، وصار ذلك أُنْمُوذَجًا لمن يريد أن يسلُك ذلك فيما بقي من سائر القرآن، وستقف على هذا المنهج الذي سلكته إن شاء الله تعالى، وربما ألـمَمتُ بشيءٍ من كلام الصُّوفية بما فيه بعضُ مناسبةٍ

لمدلولِ اللفظِ، وتجنَّبتُ كثيرًا من أقاويلهم ومعانيهم التي يُحمِّلونها الألفاظ، وتركتُ أقوالَ الملحدين الباطنية، المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها في اللغة إلى هَذَيَانٍ افترَوه على الله ﷻ، وعلى عليٍّ ؓ، وعلى ذريَّتِهِ ويسمُّونَه علم التأويل!"[١].

ومن خلال هذه المقدمة، فضلاً عن التأمل في الكتابِ: نضع أيدينا على المنهج الذي سلكَهُ أبو حيَّان، حيثُ يُمْكِنُنَا تلخيصه في النِّقاط الآتية:

طريقته في التفسير:

يقومُ المفسِّر بتقسيم السُّورة إلى مقاطع، ويتناول كلَّ مقطعٍ على حِدةٍ، ثم يبدأ ببيان بعض المفردات، فإذا كان للكلمة أكثر من معنى؛ بيَّن ذلك، ثم بيَّن المعنى الذي يتناسب مع السِّياق.

وإذا كان للآية سببُ نزول بيَّنَه، وقد يذكر مناسبتها وارتباطها بما قبلها وما بعدها، كما يتناول القراءات الواردة في الآية مع توجيهها، وبيان معانيها، وإذا كان في الآية أحكامٌ بيَّنها ناقلاً كلامَ الفُقَهَاء بدونِ توسُّعٍ في هذا الشأنِ.

سمات التفسير:

- التوسُّعُ في عرضِ المسائلِ النحويَّةِ، مع بسطِ الكلامِ في المسائِلِ الخلافيَّةِ بين النحويين في ضوءِ الآياتِ القرآنيةِ.
- العنايةُ بالقراءاتِ: عزوًا، وتوجيهًا، وتفسيرًا.
- بيانُ الأحكامِ الفقهيَّةِ الواردةِ والمستنبطةِ من الآياتِ بدونِ توسُّعٍ في ذلك، مع الإحالةِ إلى الكُتُبِ الفقهيَّةِ.
- إيرادُ المناسَبَاتِ بين الآياتِ.
- الإحالةُ إلى المواضِعِ السابقةِ في التفسيرِ تجنُّبًا للإطالةِ.
- نقلُ بعضِ كلام الصوفيةِ مما فيه مناسبةٌ بين الآيات، مع تجنُّب تلك الأقاويلِ والتأويلاتِ التي لا تتوافقُ مع ظاهرِ الكتابِ والسُّنةِ.

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان: (١/٥،٤).

▪ كما تعقَّب أبو حيان الزمخشريَّ في مواضعَ كثيرةٍ من تفسيره، حيث أنكر عليه كثيرًا من الاعتزاليَّات وغيرها.

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود

يُعَدُّ هذا الكتابُ من أهمّ كُتُبِ التفسير بالرأي، فهو مرجعٌ من المراجِعِ القيّمةِ في بابِهِ، وفيما يلي نتحدثُ عن التفسيرِ والمفسِّر، فنقولُ وباللهِ التوفيق:

التعريف بالمفسِّر:

هو أبو السعود مُحمد بن مُحمد بن مصطفى العمادي الفقيه المفسِّر، ولد في شهر صفر سنة ست وتسعين وثمانمائة بقرية قريبة من القسطنطينية (استانبول)، في بيت من بيوت العلم، فيه نشأ وترعرع وأزهر وأينع، وقرأ على والده، وتنقَّل في المدارس، واكتسب علمًا كثيرًا، وَدَرَسَ عند (مؤيَّد زاده)، و(قادري جلبي)، ثم درَّس في مُدُنٍ متعددةٍ، وتقلَّد القضاء، ثم أُضيف إليه الإفتاء سنة (٩٥٢هـ)، وصار مرجع الحنفيّة في الديار الرُّومية، وكان يُجيد اللغات: العربية، والفارسية، والتركية، وكان سريع البديهة، واسع الفكر.

له مؤلفات عِدة منها: "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، وله حاشية على تفسير "الكشاف" بَلَغَ فيهَا إلى آخر سورة الفتح، وكانت تُقْرَأ عقيب درس التفسير وسماها "معاقِدَ النَّظَر"، وله رسالة في المسح على الخفَّين، و"تحفة الطلاب في المناظرة"، وكتاب فتاوى جمعه أحد تلامذته.

وكانت وفاته: سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة[(١)].

---

(١) تُراجع ترجمته في العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم، لعلاء الدين الرومي: (ص٤٣٩)، الكواكب السائرة في تراجم أعيان المائة العاشرة، لنجم الدين الغزي الدمشقي: (٣/٣٥)، كشف الظنون لحاجي خليفة: (٢/١٢١٩)، شذرات الذهب في أخبار من قد ذهب، لابن العماد الحنبلي الدمشقي: (٨/٣٩٨)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني: (١/٢٦١) برقم (١٨٠)، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، لعبد الحي اللكنوي: (ص٨١)، هداية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المُصنِّفين، إسماعيل باشا البغدادي: (٢/٢٥٣)، الأعلام، لخير الدين الزركلي: (٧/٥٩)، معجم المؤَلفين، لعمر رضا كحالة: (١١/٣٠١).

التعريف بالتفسير:

هذا التفسيرُ من أهمِّ كُتُبِ التفسيرِ بالرأي، يتَّسمُ بحُسنِ الصياغةِ ودقَّةِ العبارةِ، كَتَبَهُ صاحبُه حين لاحت له الفرصةُ لكتابتِهِ، مع كثرةِ مشاغلِهِ وأعبائِهِ في القضاءِ، والفُتيا، والخروجِ للجهادِ.

قال عنه الشيخ مُحمد حسين الذهبي – رحمه الله – : "والحقُّ إنَّ هذا التفسيرَ غايةٌ في بابه، ونهايةٌ في حُسْنِ الصَّوغ وجمال التعبير، كَشَفَ فيه صاحبُه عن أسرارِ البلاغةِ القرآنيةِ بما لم يسبقْهُ أحدٌ إليه، ومن أجلِ ذلك ذاعتْ شهرةُ هذا التفسيرِ بين أهلِ العلمِ، وشَهِدَ له كثيرُ من العلماء ..."(١).

وقال عنه صاحبُ الفوائدِ البهيَّةِ في تراجِمِ الحنفيَّةِ: "وقد طالعتُ تفسيرَه وانتفعتُ به، وهو تفسيرٌ حَسَنٌ، ليس بالطويلِ المُملِّ، ولا بالقصيرِ المُخِلِّ، متضمِّنٌ لطائفَ ونِكَاتٍ، ومشتملٌ على فوائدَ وإِشَارَاتٍ"(٢).

مصادره في التفسير:

رجع المفسِّر إلى كثيرٍ من كتبِ التفسيرِ بالمأثورِ والرأي، ومن أهمِّ الكتبِ التي استفاد منها: "الكشاف للزمخشري"، و"أنوار التنزيل وأسرار التأويل" للبيضاوي، مع حَذَرِهِ الشديدِ مما في الكشافِ من اعتزاليَّاتٍ.

سمات التفسير:

- اهتمامُهُ في تفسيرِهِ بإبراز بلاغة القرآن الكريم في جمال عباراته، وروعة أساليبه، وسَبْكِ تراكيبه.
- عنايتُهُ بعرضِ المسائلِ النحويةِ؛ لإبرازِ المعانِي.
- توجيهُهُ للقراءاتِ مع عزوِهِ لها دونَ توسُّعٍ في ذلك.
- عنايتُهُ بعلمِ المُنَاسَبَاتِ لا سيَّما بين الآياتِ، وفي هذا أيضًا ما يكشِفُ عنْ روعةِ النَّظْمِ

---

(١) التفسير والمفسرون، للذهبيّ: (٣٤٧/١).

(٢) الفوائد البهيَّة في تراجم الحنفيَّة، للكنويّ: (ص٨٢).

وجمالِ السَّبْكِ[(١)].

- تجنُّبه للإسرائيليات وتحذيرُهُ منها:
  - من ذلك ردُّهُ على ما وَرَدَ في قِصَّةِ هاروت وماروت من إسرائيلياتٍ تقدحُ في عِصْمَةِ هذينِ الملَكَينِ[(٢)]، لكنَّه في مواطنَ قليلةٍ ينقلُها دون تعقيبٍ عليها مكتفيًا بروايتِهَا بصيغةِ التمريضِ فيقول رُوِيَ، أو حُكِيَ، من ذلك ما أورده في شأن هدية بلقيس لسليمان عليه السلام مما هو منقول عن الإسرائيليات[(٣)].

قِلَّةُ استطرادِهِ إلى ذكرِ المسائلِ الفقهيَّةِ: لكنه يتناول آيات الأحكام بالتفسير والبيان دون توسُّعٍ في ذلك.

  - ومن المآخذ عليه: إيرادُهُ للحديثِ الموضوعِ في فضائلِ السُّور دون تعقيبٍ عليه، متأثِّرًا في ذلك بالزمخشريّ والبيضاويّ، من ذلك ما ذكره في خاتمةِ سورة آل عمران[(٤)].

---

(١) من ذلك قوله في بيان الصلة بين قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝١٤﴾ [آل عمران:١٤]، وبين ما قبلها: "﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كلام مستأنف؛ سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها، وتزهيد الناس فيها، وتوجيه رغباتهم إلى ما عنده تعالى إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها"، نفس المرجع: (١٤/٢)، ويُراجع تفسيره: (٢٥/٢).

(٢) يُراجع تفسيره: (١٢٨/١).

(٣) يراجع تفسيره: (١٣١/٤)، وقد يقع فيها بحسن نية من ذلك ما أورده في قصة امرأة (أوريا) أن داود عليه السلام لما أُعْجِبَ بها؛ طلب من زوجِها أن يطلقها ليتزوج بها، وزعمه أن ذلك كان جائزًا في شريعته، مع أنه غيرُ لائقٍ بمقامِ النبوةِ، والقصة مكذوبةٌ مفتراة، نفس المرجع: (٢٢١/٧)، وأقول: "إن هذه القِصَّة برمَّتها لا أساس لها من الصحة، ولقد بيّنت ذلك في كتابي "المرأة في القصص القرآني"، وأثبتُّ بطلانَ هذه القصةِ سندًا ومتنًا، وأن مَرْجِعَهَا إلى العهدِ القديمِ، وهي إفكٌ عظيمٌ افتراهُ اليهودُ لَعَنَهُمُ اللهُ، يُراجع كتابي "المرأة في القصص القرآني": (٥٧٤/٢: ٥٨٧).

(٤) التفسير: (١٣٧/٢).

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي

يُعَدُّ هذا الكتاب من أهم كتب التفسير وأشهرها، وفيما يلي نتحدَّث عن مؤلفه ومنهجه فيه: فنقول وبالله التوفيق:

التعريف بالمفسِّر:

هو الإمام شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي.(ت: ١٢٧٠هـ)[(١)].

التعريف بالتفسير:

- سَلَكَ الأَلُوسِيُّ في تفسيرِهِ منهجَ أهلِ السُّنَّةِ، وردَّ على المخالفين لهم.
- توسَّع في ذكر المسائل النحوية، والتحقيق في الخلافاتِ بين النُّحَاةِ، وفي هذا يقول الفاضل ابن عاشور: "ويُغْرِقُ الألوسيُّ إغراقًا يُسْرِفُ فيه في مسائل الاشتقاق والإعراب حتى يتجاوز محلَّ البيانِ إلى القواعِدِ والمباحِثِ"[(٢)].
- توسَّع في بيانِ النِّكات البلاغيّة وإبرازِ روعةِ وجمالِ الأساليبِ القرآنيةِ.
- عُنِيَ بإيرادِ القراءاتِ مَعَ عَزْوِهَا وتوجِيهِهَا.
- اهتمَّ بتخريجِ الأحاديثِ بذكرِ الراوي الأعلى، وعزوِ الأحاديثِ إلى مواضِعِها من كتبِ السُّنةِ، مع حرصِهِ على الدِّقةِ والتحري في النقلِ، وفي هذا يقولُ ابن عاشور: "ويتحرَّى في إيرادِ الأحاديث فيتجنبُ الأحاديثَ الواهيةَ، ويحرصُ على ذكرِ الأسانيدِ"[(٣)].
- كما يتميَّزُ هذا التفسيرُ بشدَّةِ انتقادِهِ للإسرائيلياتِ، سيَّما تلك التي تخالفُ النقلَ والعقلَ وتقدَحُ في عصمَةِ الأنبياءِ عليهم السَّلام.

---

(١) تُراجع ترجمته في أعيان القرن الثالث عشر، لخليل مردم بك: (ص٤٧-٥٢)، ومعجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة: (١٧٥/١٢)، والأعلام، للزركلي: (٥٣/٨).

(٢) التفسير ورجاله، للفاضل بن عاشور: (ص١٣٨) باختصار.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

- كما عُني المفسّر ببيانِ المناسباتِ بين السُّور والآياتِ عنايةً بالغةً.
- وتميَّز بتحقيقاتِهِ العلميةِ الموسوعيةِ في موضوعاتٍ شتَّى.
- ومن المآخِذِ عليه استطرادُه إلى الحديثِ عن موضوعاتٍ لا صلَةَ لها بالتفسيرِ، والإسهابُ في أشياء تصرِفُ القارئَ عن المعانِي والمقاصِدِ القرآنيَّةِ.

الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي

التعريف بالمفسِّر:

هو مُحمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي المالكي أبو عبدالله القرطبي، الفقيه المفسّر، (ت: ٦٧١هـ)[(١)].

التعريف بالتفسير:

يقعُ هذا التفسيرُ في عشرِ مجلداتٍ فهو كبيرٌ في حجمِه، كبيرٌ في قيمتِهِ العلميةِ، عُنِي فيه المفسّر بالجوانبِ الآتيةِ:

- التحليلُ اللغويُّ للألفاظِ، مع الاستطرادِ للمسائِلِ النحويَّةِ والنِّكاتِ البلاغِيَّةِ دون إسرافٍ في ذلك.
- عنايتُه أيضًا بتوجيهِ القراءاتِ وبيانِ معانِيها، بعد عزوِها إلى من قَرَأَ بها من الأئمةِ الأعلامِ.
- تجنُّبُهُ للإسرائيلياتِ، وتعقُّبُه لها، لكنَّه في أحيانٍ قليلةٍ يذكرُها دون أن يُعقِّبَ عليها تاركًا الحكمَ لعقليَّةِ القارئِ وثقافتِهِ.
- ذكرُهُ للمناسباتِ بين الآياتِ دون توسُّعٍ في ذلك.
- توسُّعُه في عرضِ الأحكامِ الفقهِيَّةِ، وكثرةِ الاستنباطاتِ، دونَ تعصُّبٍ لمذهبِهِ المالِكِيِّ.
- رُجُوعُهُ إلى كثيرٍ من كُتُبِ: التفسيرِ، واللغةِ، والقراءاتِ، والفقهِ، وربَّما ينقلُ دونَ أن

(١) طبقات المفسرين، للداوودي: (٢/٦٥)، وطبقات المفسرين، للسيوطي: (ص٢٨)، والأعلام، للزركلي: (٦/٢١٧).

يعزوَ النّقلَ، وهذهِ من المآخذِ على هذا التفسيرِ، لكنَّهُ يتميَّزُ باعتدالِهِ وإنصافِهِ وتعليقاتِهِ.

- عنايتُهُ بالقضايا العَقَدِيَّةِ، مع ردِّه على المخالفينَ لمذهبِ أهلِ السنةِ والجماعةِ
- كثرةُ إحالاتِهِ على المواضعِ السابقةِ في تفسيرِهِ؛ خشيةَ الإطالةِ، وكثيرًا ما يُحيلُ على كتبه، خاصة كتابه "الأسنى" و"التذكرة".

* * *

أنشطة/ ملف الإنجاز:

أنشطة

١. اذكري كتابًا في التفسير بالمأثور وبيني مزاياه.

٢. ما هي مصادر الطبري في تفسيره؟

٣. قارني بين منهج ابن أبي حاتم ومنهج الثعلبي في التفسير بالمأثور.

٤. اذكري ثلاثة من صور التفسير بالرأي المذموم؟

٥. اذكري نموذجًا للتفسير الصوفي المنحرف، وناقشيه؟

٦. اذكري نموذجًا لتفسير المعتزلة المخالف لأهل السنة، وناقشيه؟

٧. اذكري نموذجًا لتفسير الرَّافضة المخالف لأهل السنة، وناقشيه؟

٨. اذكري نموذجًا لتفسير الأشاعرة المخالف لأهل السنة وناقشيه.

ملف الإنجاز

١. اكتبي مقالة رَصِينةً حول التفسير بالمأثور.

٢. لخِّصي ما تضمنته مقدمة الطبري في تفسيره.

٣. ما هي مصادر السيوطي في الدُّر المنثور؟

٤. لخِّصي ما تضمنته مقدمة البغوي في تفسيره.

٥. لخِّصي ما تضمنته مقدمة السيوطي في الدر المنثور.

٦. لخِّصي ما تضمنته مقدمة ابن عطية في المحرر الوجيز.

مصادر التعلم:

١. شيخ الإسلام ابن تيمية، مقدمة التفسير.

٢. د.مُحمد أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السُّنة بالقاهرة.

٣. د.مُحمد حسين الذهبي، التفسير والمفسِّرون.
٤. د.مُحمد بن لطفي الصباغ، بحوث في أصول التفسير المكتب الإسلامي.
٥. د.فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن.
٦. د فهد الرومي، بحوث في أصول التفسير ومناهجه، مكتبة التوبة.
٧. الشيخ مُحمد بن صالح العثيمين، شرح (مقدمة التفسير) لابن تيمية، إعداد وتقديم: الدكتور عبدالله الطيَّار، ط. دار الوطن، الرياض.
٨. الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، أ.د. حكمت بن بشير بن ياسين، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة، المدينة النبوية، ط.١ (١٤٢٠هـ) - (١٩٩٩م).
٩. التفسير بالرأي والمأثور، د. مساعد بن سليمان الطيَّار، الموقع الالكتروني للدكتور.

التقويم:

١. بيّني أهمية التفسير بالمأثور.
٢. عرّفي التفسير بالمأثور لغة واصطلاحًا؟
٣. ما هي طُرق التفسير بالمأثور؟
٤. ما هي أسباب الضعف في رواية التفسير بالمأثور؟
٥. كيف نتعامل مع الإسرائيليات؟
٦. ما هي أوجه بيان السُّنة للقرآن؟
٧. عرّفي التفسير بالرأي لغة واصطلاحًا؟
٨. ما هي أقسام التفسير بالرأي وحكمُ كلّ قسم؟
٩. بيني أدلة الـمُجيزين والمانعين للتفسير بالرأي؟
١٠. كيف نُوجِّه الآثار التي تحرّج القول في التفسير بالرأي؟
١١. اذكري أهم المؤلفات في التفسير بالرأي المحمود.
١٢. اذكري أهم المؤلفات في التفسير بالرأي المذموم.

الوحدة الثانية



مفاهيم أساسية تتعلق بالمفسِّـــر

أهداف الوحدة:

يُتوقع من الدارس بعد إنهائه هذه الوحدة أن:

(١) يشرحُ شروط المفسِّر.

(٢) يشرح آداب المفسِّر.

(٣) يُناقشُ أبرز القواعد التي يحتاج إليها المفسِّر.

مفردات الوحدة:

الموضوع الأول: شروط المفسِّر.

الموضوع الثاني: آداب المفسِّر.

الموضوع الثالث: القواعد التي يحتاج إليها المفسِّر.

عدد المحاضرات:

الدبلوم: (١٢) محاضرة.

الدبلوم العالي: (٦) محاضرات.

تمهيد:

البحث العلمي النزيه؛ أساسُ المعرفة الحقَّة التي تعود على طلابها بالنّفع، وثمرته من أشهى الأكل لغذاء الفكر وتنمية العقل؛ ولذلك فإن تهيُؤَ أسبابه لأي باحثٍ أمْرٌ له اعتباره في نُضج ثماره ودُنوِّ قُطُوفه، والبحث في العلوم الشرعيّة عامةً، وفي التفسير خاصةً، من أهم ما يجبُ الاعتناء به، والتعرُّف على شروطه وآدابه، حتى يصْفُو مَشرَبَهُ، ويحفظُ روعةَ الوحي وجلاله.

*　　*　　*

الموضوع الأول
شروط المفسِّر

ذكر العلماء للمفسر شروطًا نُجمِلُها فيما يأتي:

أولاً: سلامة العقيدة:

فإنَّ مَن انحرَفتْ عقيدته يعتقِدُ رأيًا؛ ثُم يحمِلُ ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلفٌ من الصحابة والتابعين[(١)]، فإذا فَسَّرَ القرآنَ أوَّلَ الآيات التي تُخالف مذهبَهُ الباطل، وحرَّفها حتى تُوافق مذهبه، ومثلُ هذا لا يَطلب الحقَّ فكيف يُطلَبُ مِنه! ومِن هؤلاء فِرَقُ: الخوارج، والروافض، والمعتزلة، وغلاة الصوفية، وغيرهم.

قال ابن القيم - رحمه الله - : "لا يُدرِكُ معاني القرآن ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرامٌ على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه"[(٢)].

مثال:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة:٢٧٥].

قال الزمخشري - رحمه الله - : "وهذا دليلٌ بيِّنٌ على تخليد الفُسَّاق"[(٣)]، وقد بنى الزمخشري هذا الدليل على مذهب المعتزلة الذين يَروْنَ تخليد مُرتكب الكبيرة، وهم لا يخلَّدون عند أهل السُّنة.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية: (ص٨٥).

(٢) التبيان في أقسام القرآن: (ص١٤٣)، ط. دار الكتاب العربي - بيروت (١٤١٤هـ).

(٣) الكشاف: (١/٣٢١).

قال ابن المنير – رحمه الله – في تعقيبه على قول الزمخشري: "وهو يبنى على أن المتوعَّد عليه بالخلود العوْد إلى فعل الرّبا خاصة، ولا يُساعده على ذلك الظاهر الذي استدل به، فإن الذي وقع العود إليه مسكوتٌ عنه في الآية، ألا تراه قال: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ فلم يذكر المعُوْد إليه؛ فيُحمل على ما تقدَّم، كأنه قال: ومن عاد إلى ما سلَفَ ذِكرهُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، والذي سلف ذكرُهُ فعل الربا واعتقاد جوازه، والاحتجاج عليه بقياسه على البيع.

ولا شكَّ عندنا – أهل السُّنة والجماعة – أن من تعاطى معاملةً الربا مُستَحلاً لها، مُكابرًا في تحريمها، مسندًا إحلالها إلى معارضة آيات الله البيّنات بما يتوهمه من الخيالات؛ فقد كفر ثم ازداد كفرًا، وإذ ذاك يكونُ الموعودُ بالخلودِ في الآيةِ من يُقال إنه كافرٌ مُكذّبٌ غيرُ مؤمن، وهذا لا خلاف فيه، فلا دليل للزمخشري إذًا على اعتزاله في هذه الآية"[(١)].

ومذهب أهل السنة والجماعة أن مرتكب الكبيرة مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، ولا يخلَّد في النّـار إلا المشـرك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء:٤٨].

ثانيًا: التجرد عن الهوى:

فإن الهوى يحمل صاحبه على نُصرة مذهبه ولو كان باطلاً، ويصرفه عن غيره ولو كان حقًا.

قال الشاطبي – رحمه الله – : "جعل الله اتباع الهوى مضادًا للحق، وعدّه قسيمًا له؛ كما في قوله تعالى ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [ص:٢٦]،وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم:٤]، فقد حصَرَ الأمر في شيئين: الوحي وهو الشريعة، والهوى؛ فلا ثالث لهما، وإذا كان كذلك فهما متضادان. وحين توجه الحق في الوحي توجه للهوى ضده"[(٢)].

---

(١) تفسير الزمخشري: (٣٢١/١)، تعليق ابن المنير في الحاشية.

(٢) الموافقات: (١٢٩/٢).

مثال:

قال الجصَّاص – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور:٥٥]: "فيه دلالة على صحة إمامة الخلفاء الأربعة؛ لأن الله استخلفهم على الأرض، ومكَّن لهم كما جاء الوعد، ولا يدخل فيهم معاوية؛ لأنه لم يكن مؤمنًا في ذلك الوقت"[١]، وإخراج معاوية من تلك الأوصاف ليس إلا لهوى في نفسه، قال د. مُحمد حسين الذهبي: "وما كان أولى بصاحبنا أن يترك هذا التحامل على معاوية الصحابي، ويُفوّض أمره إلى الله، ولا يلوي مثل هذه الآيات إلى ميوله وهواه"[٢].

ثالثًا: أن يكون المفسّر عالمًا بأصول التفسير وقواعِدِه:

وذلك أن أصول التفسير بمثابة المفتاح لعلم التفسير، وقواعِد الترجيح مفتاح للترجيح عند التعارضِ أو الجمعِ بين الأقوالِ إذا أمكَنَ ذلك، ومراعاة السِّياقِ والاعتبار بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السببِ، وأن الأصلَ هو الأخذُ بظاهِرِ النَّصِ، وحمل اللفظِ على أشهرِ معانِيهِ وغير ذلك.

رابعًا: أن يكون عالمًا بالحديث رواية ودراية:

إذ إن أحاديث الرسول ﷺ هي المبيّنة للقرآن، بل قد قال الإمام الشافعي – رحمه الله – تعالى: "كلّ ما حكَم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن"[٣]، وقال الإمام أحمد – رحمه الله تعالى – : "السّنة تفسر القرآن وتبينه"[٤].

خامسًا: أن يكون عالمًا بأصول الدين:

وهو "علم التوحيد"؛ حتى لا يقع في آيات الأسماء والصفات في التشبيه، أو التمثيل، أو التعطيل.

---

(١) أحكام القرآن، للجصاص: (١٩١/٥).

(٢) التفسير والمفسرون: (٣١١/٢).

(٣) المرجع السابق: (ص٩٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: (٣٩/١).

سادسًا: أن يكون عالمًا بأصول الفقه:

إذ به يُعرف كيف تُستَنْبَطُ الأحكام من الآيات، ويُستدل عليها، ويُعرف الإجمال والتبيين، والعموم والخصوص، والمطلَق المقيّد، ودلالة النص وإشارته، ودلالة الأمر والنهي...، وغير ذلك[١].

سابعًا: معرفةُ بسائرِ علومِ القرآنِ الكريمِ: كالناسخِ والمنسوخِ، وأسبابِ النزولِ، والمناسباتِ، والعامِّ والخاصِّ، والمطلقِ والمقيدِ، والقراءاتِ.

ثامنًا: أن يكون عالمًا باللغة وعلومها:

كالنحو، والصرف، والاشتقاق، والبلاغة بأقسامها الثلاثة: "المعاني، والبيان، والبديع"؛ ذلكم أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وهذه العلوم مما يُتوصَّلُ به إلى معرفة المعنى، وخواصّ التركيب، ووجوه الإعجاز فيه.

تاسعًا: معرفةُ الدَّخِيل في التفسير:

لتجنُّبِهِ، كالإسرائيلياتِ، والموضوعاتِ، وبِدَعِ بعضِ المفسِّرينَ، وآراءِ أهلِ الفِرَقِ الضالةِ.

عاشرًا: دِقَةُ الفَهْم:

والتي تُمكِّن المفسِّر من ترجيح معنى على آخر، أو استنباط معنى يتفق مع نصوص الشريعة.

وهذه الشروط عزيزةُ المنال؛ ولهذا تحرّج كثير من السَّلف من القول في القرآن بغير علم؛ لتمكُّنِ الإيمان من قلوبهم، واستحضارهم الخوف من الله تعالى، وإذا رأيت من يجترئ على القول في القرآن بغير علم؛ فاعلم أنه من نقصِ إيمانه.

* * *

(١) أصول التفسير وقواعده، خالد العك: (ص١٨٧).

الموضوع الثاني

آدابُ المفسِّر



لا يحصُل للنّاظر فهمُ معاني الوحي، ولا يظهر له أسراره؛ وفي قلبه بدعة، أو كِبْر، أو هوى، أو حبُّ الدُّنيا، أو هو على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو يعتمد على قولِ مفسِّرٍ ليس عنده علْمٌ أو راجعٌ إلى معقوله، وهذه كُلّها حُجُبٌ وموانعُ بعضها آكد من بعض، قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ﴾ [الأعراف:١٤٦]، قال سفيان بن عيينة – رحمه الله – : "أُنزِعَ عنهم فهم القرآن"[١].

وكما أن للمفسِّر شروطًا؛ فإن له آدابًا ينبغي عليه الالتزام بها، وهي كثيرة منها:

١) **حسن النية وصحة المقصد**: فإنما الأعمال بالنيات، والعلوم الشرعية أولى بأن يكون هدف صاحبها منها الخير العام، وإسداءُ المعروف لصالح الإسلام، وأن يتطهر من أعراض الدُّنيا؛ ليسدد الله خطاه، والانتفاع بالعلم ثمرة الإخلاص فيه.

٢) **حسن الخُلُق**: فالمفسِّر في موقف المؤدِّب، ولا تبلغ الآداب مبلغها في النفس؛ إلا إذا كان المؤدِّب مثالاً يُحتذى في الخُلُق والفضيلة، والكلمة النابيَةُ قد تصرِفُ الطالب عن الاستفادة مما يسمع أو يقرأ وتقطع عليه مجرى تفكيره.

٣) **الامتثال والعمل**: فإن العلم يجد قبولاً من العاملين أضعاف ما يجد من سُمُوِّ معارفه ودِقة مباحثه، وحسنُ السيرة يجعل المفسِّر قدوة حسنة لما يُقرّره من مسائل الدين، وكثيرًا ما يُصَدُّ الناس عن تلقي العلم من بحر زاخر في المعرفة؛ لسوء سلوكه وعدم تطبيقه.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: (١٥٦٧/٥)، رقم الأثر(٨٩٨٢).

٤) **تحري الصدق والضبط في النقل**: فلا يتكلم أو يكتب إلا عن تثبُّتٍ لما يرويه حتى يكون في مأمن من التصحيف واللَّحن.

٥) **التواضع ولِين الجانب**: فالصَّلَفُ العلمي حاجزٌ حصين يحُوُل بين العالِم والانتفاع بعلمه.

٦) **عزة النفس**: فمن حق العالِم أن يترَفَّع عن سَفَاسِفِ الأمور، ولا يغشى أعتاب الجاه والسلطان كالسائل المتكفف.

٧) **الجهر بالحق**: فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.

٨) **حسن السَّمْتِ**: الذي يُكسب المفسِّر هيْبَةً ووقارًا في مظهره العام وجلوسه ووقوفه ومشيته دون تكلّف.

٩) **الأناة والروية**: فلا يسرد الكلام سردًا، بل يُفصِّله، ويبين عن مخارج حروفه.

١٠) **تقديم من هو أولى منه**: فلا يتصدى للتفسير بحضرتهم وهم أحياء، ولا يغمطهم حقهم بعد الممات، بل يُرشد إلى الأخذ عنهم وقراءة كتبهم.

١١) **حسن الإعداد وطريقة الأداء**: كأن يبدأ بذكر سبب النزول، ثم معاني المفردات وشرح التراكيب، وبيان وجوه البلاغة والإعراب الذي يتوقف عليه تحديد المعنى، ثم يُبين المعنى العام، ويصله بالحياة العامة التي يعيشها الناس في عصره، ثم يأتي إلى الاستنباط والأحكام.

١٢) **استشعار جلالة هذا العلم**: فعلم التفسير من أجل العلوم، ذكر الشوكاني في تفسيره: "... فإن أشرف العلوم على الإطلاق، وأولاها بالتفضيل على الاستحقاق، وأرفعها قدرًا بالاتفاق، هو علم التفسير لكلام القوي القدير"[١]، وهذه الفكرة - وهي جلالة علم التفسير وعلو مكانته - إن امتلأت بها نفْسُ طالب العلم؛ دفعته إلى مضاعفة جهده، وحثَّتْهُ على مواصلة ليله بنهاره في البحث، والدرس، والتنقيب، وجعلت التعب لديه راحة، وحوّلت ألَمَ الحرمان من النوم والطعام والمسرات إلى لذة؛ لأن السعي إلى الغايات يكون

---

(١) الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: (١٧/١) بتصرف، وقريبٌ من ذلك ما ذكره البيضاوي في مقدمة تفسيره، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للإمام البيضاوي: (٣/١).

بحسب أهميتها وقيمتها[(١)].

١٣) **الجدّ والمُثابرة في طلب هذا العلم**: كما كان يفعل سلفنا الصالح الذين ضربوا أروع الأمثلة في الطلب، وعُرفوا بالدّقة والتحرّي، مهما كابَدُوا في سبيل ذلك من مشقة، قال ابن عباسٍ – رضي الله عنهما – : "مَكَثْتُ سنتينِ أُريدُ أن أسألَ عمر ﷺ عن المرأتَين اللّتين تظاهرَتا على رسول الله ﷺ، ما يمنعني إلا مهابتُه، فسألتُه فقال: هما حَفْصة وعائشة". وقال عكرمةُ في قوله عز وجلَّ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء:١٠٠]: "طلبتُ اسم هذا الرَّجُل الذي خرج من بيته مهاجِرًا إلى الله ورسوله أربعَ عشرةَ سنةً حتى وجدتُه". وقال مجاهد – رحمه الله – : "أحبّ الخلق إلى الله تعالى، أعلمهم بما أُنزِل"، وقال الحسن – رحمه الله – : "والله ما أنزلَ الله آيةً إلا أَحبَّ أن يُعلمَ فيمَ أُنزِلَتْ وما يَعني بها". وقال الشعبيُّ – رحمه الله – : "رحَلَ مسروقٌ إلى البصرة في تفسيرِ آيةٍ، فقيل له: إن الذي يفسِّرُهَا رحلَ إلى الشام، فتجهَّز ورَحَلَ إلى الشام، حتَّى عَلِمَ تَفْسِيرَهَا"[(٢)].

١٤) **الاستعانة بالله تعالى على فهم كلامه**: إذا كان علْمُ التفسير من أجلِّ العلوم وأشرفها؛ فإنه من أجلِّ النّعم وأعظمها؛ لذا ينبغي على كلِّ من طَرَقَ هذا البابَ أن يستعينَ بالعزيز الوهاب، وأن يتوجَّه إليه سبحانه بإخلاصٍ وتجرُّدٍ كي يفتحَ عليه ويبصِّرَهُ بكلامه تعالى، فالعلمُ والفهمُ فضلٌ إلهيٌّ، والحكمةُ عطاءٌ ربانيٌّ، قال بعض السلف : "فإذا أقبلتَ على اللهِ تعالى بصدقِ نيةٍ ورغبةٍ لفهمِ كتابِهِ باجتماعِ هَمٍّ مُتَوَكلا عليهِ أَنَّهُ هُوَ الذي يفتحُ لك الفهمَ لا على نفسِكَ فيما تطلبُ ولا بما لَزِمَ قلبَكَ مِنَ الذكرِ؛ لم يخيِّبْك من الفهمِ والعقلِ عنه إنْ شاءَ اللهُ".



(١) مُحمد بن لطفي الصباغ، بحوث في أصول التفسير المكتب الإسلامي ط.١ (١٤٠٨هـ):.(ص٢٠).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، المقدمة: باب ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله" (٥٩/١).

الموضوع الثالث
القواعد التي يحتاج إليها المفسّر



كما أن لمعرفة القواعد الفقهيّة والقواعد اللغويّة أهمية بالغة، كذلك لمعرفة القواعد التفسيرية؛ لذا اعتنى العلماء بهذه القواعد وتمثّلوا بها في كتبهم، وعُني بعض المتقدمين والمتأخرين بجمعها، وتأصيلها، وتطبيقاتها، وفيما يلي نتحدث عن هذه القواعد، ونُفصّلُ القول في بعضها.

تعريف قواعد التفسير وبيان أهميتها ومصادرها :

أولاً: القواعد لغةً: جمعُ قاعدة، وهي الأساسُ الذي يُبْنَى عليه، وكلُّ قاعدة تُعدُّ أصلاً لما فوقها، **ومعنى القواعد اصطلاحًا**: هي: "كلُّ حكمٍ كُلّيٍّ يُتَعَّرفُ مِنْ خِلالِهِ على أحكامِ ما يندرجُ تحتَهُ مِنْ جُزْئِيَّاتٍ".

وقواعدُ التفسيرِ هِيَ: "أحكامٌ كلّيّةٌ تُعينُ على فهمِ القرآنِ واستنباطِ أحكامِهِ".

ثانيًا: أهميتها: ولا بد لمن طَرَقَ بَابَ التفسيرِ أن يكون على درايةٍ بقواعِدِهِ التي يُسْتَضَاءُ بها في هذا الطريق؛ فمن خلالها يسيرُ المفسّر على بيّنةٍ من أمرِه، ويستعينُ بمعرفتِهَا على فهمِ كلّامِ اللهِ ﷻ واستخلاصِ المعاني واستنباطِ الأحكامِ والوقوفِ على العِبَرِ والفوائِدِ، ويتجنَّبُ الأخْطَاءَ التي وَقَعَ فيها بعضُ المفسّرين.
قال الإمام الزركشيُّ – رحمه الله – : "ومعلومٌ أن تفسيرَه يكونُ بعضُهُ من قبيلِ بَسْطِ الألفاظِ الوجيزةِ وكَشْفِ معانيها، وبعضُهُ من قبيلِ ترجيحِ بعضِ الاحتمالاتِ على بعضٍ لبلاغتِهِ ولُطْفِ معانيه؛ ولهذا لا يُسْتَغْنَى عن قانونٍ عامٍّ يُعَوَّلُ في تفسيرِهِ عليه ويُرْجَعُ في تفسيره إليه: مِنْ معرفةِ مفرداتِ ألفاظِهِ ومركبَّاتِهَا، وسياقِهِ، وظاهِرِهِ، وباطِنِهِ، وغيرِ ذلكَ مما لا يدخلُ تحتَ الوهمِ، ويدِقُّ عنه الفهمُ".[١]

وفى هذا تتفاوتُ الأذهانُ وتتسابقُ في النظرِ إليهِ مسابقةُ الرِّهَانِ، فَمَنْ سَابَقَ بِفَهْمِهِ وَرَاشَقَ كَبِدَ

(١) البيتُ لابن المعتزِّ، والأَحَادِيثُ القِصَارُ: الجامِعَةُ المفِيدَة، الزبيدي، تاج العروس: (١/٣٤٠٦).

الرَّمِيَّةِ بِسَهْمِهِ، وآخرُ رَمَى فَأَشْوَى وَخَبَطَ فِي النَّظَرِ خَبْطَ عَشْوَا، كما قيل: وأينَ الدقيقُ؟

ثالثًا: مصادرها: وهذه القواعدُ يُمكنُ الرُّجوعُ إليها واستخلاصُها من القرآنِ الكريمِ فهو المصدرُ الأولُ للتفسير، فالقرآنُ يُفسّرُ بعضُهُ بعضًا، ثم من السُّنةِ وهي الشارحةُ للقرآن، ثم بالرجوعِ إلى أقوالِ الصحابةِ والتابعين، فلهم القدمُ الراسخُ في فهمِ كتابِ الله تعالى واستنباطِ أحكامِهِ واستخلاصِ دُرَرِهِ، إضافةً إلى كتبِ أصولِ الفقهِ واللغةِ فهي من المصادر الأساسية في استمداد القواعد واستخلاصِها، كذلك الرجوعُ إلى كتب التفسيرِ وجمعِ القواعدِ الواردةِ في مقدماتِهَا أو المبثوثةُ في ثناياها، فضلاً عن الرجوعِ إلى كُتُبِ علومِ القرآنِ فقد حَوَتْ الكثيرَ والكثيرَ من تلك القواعدِ المهمةِ، كذلك الرجوعُ إلى الكتبِ التي تناولتْ مناهجَ المفسّرين، واتجاهاتِهِمْ في التفسيرِ، ومن الكتب التي اشتملت على جملة من القواعد:

- إيثار الحق على الخلق لابن الوزير: مُحمد بن إبراهيم الوزير اليماني (ت: ٨٤٠هـ)، حيث عقد فصلاً كاملاً بعنوان: "الإرشاد إلى طريق المعرفة لصحيح التفسير".
- التيسير في قواعد علم التفسير، للكافيجي: مُحمد بن سليمان (ت: ٨٧٩هـ).
- القواعد الحسان لتفسير القرآن، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت: ١٣٧٦هـ)، وقد اشتمل مع قواعد التفسير على جملة من الفوائد واللطائف المُعينة على فهم كتاب الله تعالى، واستخلاص الأحكام والعِبَر.
- أصول التفسير وقواعده، للشيخ خالد بن عبدالرحمن العك: وقد أورد عديدًا من القواعد، إلى جانب تناول بعض موضوعات علوم القرآن.
- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ، للشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، وقد ضمَّنه العديد من القواعد إلى جانب الفوائد التي نقلها عمن سبقه أو استخلصها من خلال تدبره لكتاب الله تعالى ومعرفته باللغة العربية.
- قواعد التفسير: جمعًا ودراسة: للشيخ خالد بن عثمان السّبت، وهذا الكتاب من أجمع الكتب في هذا الباب، حيث اشتمل هذا الكتاب الذي يقع في مجلدين على (٣٨٠) قاعدة، منها

(٢٨٠) قاعدة أصليَّة، و(١٠٠) قاعدة تَبعيَّة تقريبًا، استنبطها من بطون كتب الأصول واللغة والتفسير.

- قواعد الترجيح بين المفسِّرين للشيخ الدكتور حسين الحربي، وهو دراسة لقواعد الترجيح من خلال "جامع البيان" للطبري، و"المحرر الوجيز" لابن عطية، و"أضواء البيان" للشنقيطي.

وقواعد التفسير يمكن الرجوع إليها أيضًا: في بعض مقدمات كتب التفسير، ويمكن استخراجها من ثناياها، وقد قام بعض الباحثين في رسائل جامعيّة بجمع القواعد من أمّهات كتب التفسير، ومن كتب علوم القرآن، فضلاً عمَّا يمكن جمعه من كتب أصول الفقه، والقواعد الفقهية، وكتب اللغة.

القاعدة الأولى: كلّ عامٍ يبقى على عمومه حتى يأتي ما يُخصِّصُّهُ:

بمعنى أن لفظ الآية الذي يحتمل أكثر من معنى يُفسَّر بكلِّ هذه المعاني حتى يقوم دليل على تخصيص أحدها دون الباقي، قال الطبري – رحمه الله – : "غيرُ جائزٍ ادِّعاءُ خصوصٍ في آية عامٌ ظاهرها إلا بحجة يجب التسليم لها"[١]؛ أي: أن الخبر على عمومه؛ حتى يأتي ما يُخصصه.

أمثلة تطبيقية:

المثال الأول:

قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ [البلد:٣].

قيل: آدم وولده. وقيل: إبراهيم وولده. وقيل: عامٌ في كلِّ والد وما ولد.

قال ابن جرير الطبري – رحمه الله – : "والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا: إن الله أقسم بكلّ والدٍ وولده؛ لأن الله عمَّ كلّ والدٍ وما ولد".

وغير جائز أن يُخصَّ ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر، أو عقل، ولا خبر بخصوص ذلك، ولا بُرهان يجب التسليم له بخصوصه، فهو على عمومه كما عمَّه"[٢].

---

(١) الطبري، جامع البيان: (٥٠٨/١).

(٢) المرجع السابق: (١٢٥/٣٠).

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة:١١٦].

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: معنى ذلك: مُطيعون.

وقال آخرون: معنى ذلك: كلٌّ له مقرون بالعبودية.

وقال آخرون: كلٌّ له قائمٌ يوم القيامة.

ولِ "القنوت" في كلام العرب معان: أحدها الطاعة، والثاني القيام، والثالث: الكفُّ عن الكلام والإمساك عنه.

وأولى معاني "القنوت" في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾، الطاعة والإقرار لله ﷻ بالعبودية، بشهادة أجسامهم بما فيها من آثار الصَّنْعَةِ، والدلالة على وحدانية الله ﷻ، وأن الله – تعالى ذكره – بارئها وخالقها؛ وذلك أن الله جلَّ ثناؤه أكذَبَ الذين زعموا أن لله ولدًا بقوله: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، مُلْكًا وخلقًا. ثم أخبر عن جميع ما في السماوات والأرض أنها مُقرّة بدلالتها على ربها وخالقها، وأن الله تعالى بارئها وصانعها، وإن جحد ذلك بعضهم، فألسنتهم مُذْعِنَةٌ له بالطاعة، بشهادتها له بآثار الصَّنعة التي فيها بذلك، وأن المسيح أحدهم، فأنَّى يكون لله ولدًا وهذه صفته؟

وقد زعم بعض من قصرت معرفته عن توجيه الكلام وِجْهتَه، أن قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾، خاصة لأهل الطاعة وليست بعامة، وغير جائز ادّعاء خُصوصٍ في آية عام ظاهرها، إلا بحجة يجب التسليم لها[١].

القاعدة الثانية: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

إذا قيل في آية: إنها نزلت في كذا، فهذا لا يعني أنها تُقصَرُ على هذا السبب، بل المراد هنا الألفاظ، ولذا تُعمَّم هذه الألفاظ وإن كان السبب خاصًّا.

---

(١) المرجع السابق: (١٢٥/٣٠).

أمثلة تطبيقية:

المثال الأول:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر:٣].

قيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي.

وقيل: نزلت في عقبة بن أبي معيط.

وقيل: نزلت في جماعة من قريش.

قـال ابن جرير الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يُقـال: إن الله – تعالى ذِكْرُه – أخبر أن مُبْغِضَ رسول الله ﷺ هو الأقلّ الأذلّ المنقطع عَقِبُه، فذلك صِفَة كلّ من أبغضه من الناس، وإن كانت الآية نزلت في شخص بعينه"[(١)].

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾ [البقرة:١٩].

قال الشنقيطي: "والآية التي نحن بصددها وإن كانت في المنافقين، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص الأسباب"[(٢)].

قال ابن تيمية – رحمه الله – : "ومثل ذلك قولهم: هذه الآية نزلت في كذا... لم يقصدوا أن حُكم الآية مختصٌ بأولئك دون غيرهم؛ فإن هذا لا يقوله مسلم، ولا عاقل على الإطلاق"[(٣)].

القاعدة الثالثة: اختلاف القراءات في الآية يُعدِّدُ معانيها:

لا يخْلُو اختلاف القراءات من حالتين:

الأولى: أن يكون الاختلاف في وجوه النُّطق بالحروف والحركات، كالإظهار، والإدغام، والإمالة،

---

(١) تفسير الطبري: (٢/٥٣٩).

(٢) الشنقيطي، أضواء البيان: (١/١١٣).

(٣) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: (٤٤).

والمد، ونحو ذلك، وهذا لا تعلُّق له بالتفسير كبير.

الثانية: أن يكون الاختلاف في الكلمات، أو اختلاف الحركات الذي يُؤدِّي إلى اختلاف المعنى، وهذا له تأثير في التفسير.

فإن الاختلاف في القراءات يُؤدي إلى تَعدُّد المعاني للآية، فلِكُلِّ قراءة معناها الخاصّ بها.

قال ابن تيمية – رحمه الله – : "القراءتين كالآيتين، فزيادة القراءات لزيادة الآيات".(١)

وقال ابن عاشور – رحمه الله – : "على المفسّر أن يُبيّن اختلاف القراءات المتواترة؛ لأن في اختلافها توفيرًا لمعاني الآية غالبًا، فيقوم تعدد القراءات مقام تعدد كلمات القرآن".(٢)

أمثلة تطبيقية:

المثال الأول:

قال تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ [البقرة:٢٥٩].

القراءات في قوله تعالى: ﴿نُنشِزُهَا﴾:

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب: (نُنْشِرُهَا) بالرّاء، وَقَرَأَ عَاصِم، وَابْن عَامر، وَحَمْزَة، وَالْكِسَائِيّ: (نُنْشِزُهَا) بالزّاي.(٣)

الجمع بين القراءتين:

حاصل القراءتين أن الله بيَّن كيفية إحياء الموتى، وذلك بإحياء العظام وبعثها من موتها الذي كانت فيه كما دلَّت عليه القراءة بالراء، وبيَّنت القراءة بالزاي كيفية إحياء العظام، وذلك برفع بعضها إلى بعض حتى الْتَأَمَتْ، فضَمِن الله تعالى المعنيين في القراءتين.

وفي هذا يقول الداني – رحمه الله – : "المُراد بهاتين القراءتين جميعًا هي العظام، وذلك أن الله تعالى أنشرها، أي: أحياها، وأنشزها أي: رفع بعضها إلى بعض حتى الْتَأَمَتْ، فأخبر سبحانه أنه جمع

(١) ابن تيمية، إقامة الدليل على إبطال التحليل: (٣/٣٧٩).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١/٥٥).

(٣) الداني، الأحرف السبعة للقرآن: (١/١٨٩).

لها هذين الأمرين من إحيائها بعد الممات ورفع بعضها إلى بعض؛ لِتَلْتَئِم، فضمن تعالى المعنيين في القراءتين؛ تنبيهًا على عظيم قدرته".[١]

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

القراءات في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾:

قرأ أبو عمرو: ﴿وأَتْبَعْنَاهُم﴾ بقطع الهمزة وفتحها، وإسكان التاءِ والعينِ، ونُونٍ وألفٍ بعدها، وقرأ الباقون بوصل الهمزة، وتشديد التاء، وفتح العين، وتاءٍ ساكنة بعدها.

﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾: قرأ البصريان وابن عامر بألف على الجمع، وقرأ الباقون بغير ألف على التوحيد، وكسر التاء أبو عمرو وحده، وضمها الباقون.[٢]

الجمع بين القراءتين:

إن القراءتين كالآيتين، وبالتدبُّر فيهما نُلاحظ دلالتهما على نوعين من الأبناء:

الأبناء البالغين بإيمانهم بأنفسهم:

في قراءة من قرأ: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾، فهذا من حق البالغين الذين تصِّحُّ نِسْبةُ فِعْلِ الأتباع إليهم.

الأبناء الصغار بإيمان آبائهم:

في قراءة من قرأ: (وأتبعناهم ذرياتهم) فهذا في حق الصغار الذين أتبعهم الله بآبائهم في الإيمان حكمًا.

ويُؤيد هذا ما روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – حيث قال: "إن كان الآباء أرفع درجة من الأبناء؛ رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجة من الآباء؛ رفع الله الآباء إلى الأبناء"[٣].

---

(١) المرجع السابق: (١/١٣-١٤).

(٢) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: (٢/٤١٧).

(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: (ص٣٩٨).

القاعدة الرابعة: المعنى يختلف باختلاف رسم الكلمة:

فقد يكون لبعض الكلمات أكثر من معنى إلا أن رسمها في المصحف يُرجِّحُ أحد المعنيين.

المثال الأول:

قوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾ [الأعلى:٦].

قيل في (لا) قولان:

الأول: أنها نافية.

الثاني: أنها ناهية.

ويترجح الأول؛ لأن رسم (تَنسَىٰٓ) في المصحف بإثبات الألف المقصورة، والفعل المضارع إذا تقدمت عليه (لا) الناهية جزمته، فإذا جُزم وفي نهايته حرف علّة حُذِف، ولمَّا كان حرف العلة هنا غير محذوف؛ دلَّ على أنّ (لا) هنا غير ناهية.

قال القرطبي: "والأول هو المختار، أي: كونها نافية؛ إن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتًا، وأيضًا فإن الياء مُثبتة في جميع المصاحف، وعليها القرَّاء."(١)

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣﴾ [المطففين:٣].

في الضمير (هم) في (كَالُوهُمۡ) و(وَّزَنُوهُمۡ) قولان:

الأول: أنه يعود على الناس، ويكون الضمير في موضع نصب.

ويكون المعنى: إذا كال المطففون الناس، أو وزن المطففون للناس.

الثاني: أنه يعود على واو الجماعة في كالوا، ووزنوا، ويكون الضمير في موضع رفع مؤكد لواو الجماعة.

ويكون المعنى: إذا كال المطففون هم، وإذا وزن المطففون هم.

---

(١) تفسير القرطبي: (٢٠/١٩).

وقد رجَّح العلماء الأول؛ لأنه المُوافق لرسم المصحف، والثاني مخالفٌ له.

قال الزجاج: "والاختيار أن تكون (هم) في موضع نصب، بمعنى كالوا لهم، ولو كانت على معنى كالوا، ثم جاءت (هم) توكيدًا؛ لكان في المصحف ألف مثبتة قبل (هم)".(١)

القاعدة الخامسة: السِّياق القرآني:

على المفسِّر أن لا ينظر في الكلمة أو الجملة مستقلة بنفسها؛ بل عليه أن ينظر إليها في سياق النص القرآني؛ فإن ذلك مُعينٌ على تحديد المعنى المراد لاسيما إذا كان للكلمة أو الجملة أكثر من معنى.

قال العِزُّ بن عبد السلام – رحمه الله – : "إذا احتمل الكلامُ معنيين، وكان حملُه على أحدهما أوضحَ وأشدَّ موافقةً للسياقِ؛ كان الحملُ عليه أولى".(٢).

وقال الزركشي – رحمه الله – : "... من الأمور التي تُعين على المعنى عند الإشكال دلالة السياق فإنها تُرشِد إلى تبيينِ المجملِ، والقطعِ بعدمِ احتمالِ غيرِ المرادِ، وتخصيصِ العامّ وتقييدِ المطلقِ، وتنوعِ الدلالةِ، وهو من أعظمِ القرائنِ الدالةِ على مُراد المتكلّم فمن أهمله غلط في نظيره وغالط في مناظراته".(٣)

أمثلة تطبيقية:

المثال الأول:

قوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ﴾[البقرة:١٨٧].

ففي تأويل: ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾:

(١) معاني القرآن وإعرابه: (٥/٩٢٨)؛ وانظر: تفسير الطبري: (٣٠/٩١)؛ وإعراب القرآن، للنحاس: (٥/١٧٤)؛ مُشكل إعراب القرآن، لمكي بن أبي طالب: (٢/٨٠٦،٨٠٥).

(٢) العزّ بن عبد السلام (ت: ٦٦٠هـ)، الإشارة إلى الإيجاز، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة: (ص٢٢٠).

(٣) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: (٢/٢٠٠).

قيل: هو الولد. وقيل: ليلة القدر. وقيل: ما أحلَّه الله لكم ورخَّص لكم.

قال ابن جرير الطبري: "والصواب من القول في تأويل ذلك عندي أن يُقال: إن الله – تعالى ذِكْرُه – قال: ﴿وَٱبۡتَغُواْ﴾ يعني: اطلبوا ما كتب الله لكم، يعني الذي قضى الله تعالى لكم، وإنما يُريد الله – تعالى ذِكْرُه – : اطلبوا الذي كتبت لكم في اللوح المحفوظ أنه يُباح فيُطلق لكم، وطلبُ الولد إنْ طَلَبهُ الرجل بجماعِهِ المرأة مما كتب الله له في اللوح المحفوظ، وكذلك إن طلب ليلة القدر، فهو مما كتب الله له، وكذلك إن طلب ما أحل الله وأباحه، فهو مما كتبه في اللوح المحفوظ".

وقد يدخل في قوله: "﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ جميع معاني الخير المطلوبة، غير أن أشبه المعاني بظاهر الآية قول من قال معناه: وابتغوا ما كتب الله لكم من الولد؛ لأنه عقيب قوله: ﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ بمعنى: جامعوهن، فلأن يكون قوله: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ بمعنى: وابتغوا ما كتب الله في مباشرتكم إيَّاهُنَّ من الولد والنسل أشبه بالآية من غيره من التأويلات التي ليس على صحتها دلالة من ظاهر التنزيل، ولا خبرٌ عن الرسول ﷺ".[1]

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١].

نقل الطبري – رحمه الله – عن قتادة قوله: "هؤلاء أصحاب نبي الله ﷺ، آمنوا بكتاب الله وصدقوا به".

وروى عن غيره أنهم علماء بني إسرائيل الذين اتبعوا مُحمدًا، ثم رجَّح القول الثاني؛ فقال: "وهذا القول أولى بالصواب من القول الذي قاله قتادة؛ لأن الآيات قبلها مضت بأخبَار أهل الكتابين، وتبديل من بدَّل منهم كتاب الله، وتأوُّلِهم إياه على غير تأويله، وادِّعاءهم على الله الأباطيل، ولم يَجْرِ لأصحاب مُحمد في الآية التي قبلها ذِكْرٌ، ولا لهم بعدها ذِكرٌ في الآية التي تتلوها".[2]

---

(١) الطبري، جامع البيان: (٢/١٦٩-١٧٠).

(٢) المرجع السابق: (٢/٥٦٥).

المثال الثالث:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾ [عبس:٢٠]، قيل في السبيل قولان:

الأول: خروجه من بطن أمه.

الثاني: طريق الحق والباطل، بيَّناه له وأعلمناه، وسهَّلنا له العمل به.

قال ابن جرير الطبري: "وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: ثم الطريق، وهو الخروج من بطن أمه يسره، وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب؛ لأنه أشبههما بظاهر الآية، وذلك أن الخبر من الله قبلها وبعدها عن صفته خلقه، وتدبيره جسمه، وتصريفه إياه في الأحوال، فالأولى أن يكون أوسط ذلك نظير ما قبله وما بعده" [١].

القاعدة السادسة: التفسير يكون بالأغلب الظاهر من اللغة:

وذلك بأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فلا يصح تفسيره بغير الأظهر والأغلب والأبين من كلام العرب، قال الإمام الطبري – رحمه الله – : "غير جائز أن نحمل معاني كتاب الله على غير الأغلب المفهوم بالظاهر من الخطاب في كلام العرب ولنا إلى حمل ذلك على الأغلب من كلام العرب سبيل"[٢].

المثال الأول:

قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤﴾ [النبأ:٢٤].

قيل في البَرَدِ قولان:

الأول: هو برد الهواء الذي يُبرد جسم الإنسان. الثاني: النوم.

قال ابن جرير – رحمه الله – معلِّقًا على القول الثاني: "والنَّوم وإن كان يُبرد غليل العطش، فقيل له من أجل ذلك: البرد، فليس هو باسمه المعروف، وتأويل كتاب الله على الأغلب من معروف كلام

---

(١) المرجع السابق: (٣٠/٥٥).

(٢) المرجع السابق: (٨/٥٧٧).

العرب دون غيره"[١].

وقال أبو جعفر النَّحَّاس -رحمه الله - : "وأصح هذه الأقوال القول الأول؛ لأن البرَد ليس باسم من أسماء النوم، وإنما يحتال فيه فيقال للنوم: برد؛ لأنه يهدِّي العطش، والواجب أن يحمل تفسير كتاب الله جلّ وعزّ على الظاهر والمعروف من المعاني إلا أن يقع دليل على غير ذلك"[٢].

المثال الثاني:

نموذجٌ لترك المعنى الظَّاهر إلى معنى شاذ نادر الاستعمال:

ترك المعنى الظاهر إلى معنى آخر لا علاقة له بالآية من قريب أو من بعيد، وليس له أصلٌ صحيح في لغة العرب: من ذلك تفسير الضحك بالحيض في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود:٧١]، فقد ذهب بعض العلماء إلى أن معنى (فَضَحِكَتۡ) أي: (فحاضت).

قال القرطبي - رحمه الله - : "قال مجاهد وعكرمة: حاضت وكانت آيسة، تحقيقًا للبشارة، وأنشد على ذلك اللغويون:

وَضِحْكُ الأَرَانِبِ فَوْقَ الصَّفَا ... كَمِثْلِ دَمِ الجَوْفِ يَوْمَ اللِّقَا

والعرب تقول ضحكت الأرنب إذا حاضت، وقد أنكر أئمةُ اللغة أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت، وقال الجمهور: الضحك المعروف، وليس الضحك الحيض في اللغة بمستقيم، وأنكر الفراءُ ذلك، وقال لم أسمعه من ثقة، وإنما هو كناية"[٣].

وقال ابن المنيِّر وهو يردُّ على من زعم أن ضحكها بمعنى حيضها: "... ويبعد هذا التأويل أنها قالت

---

(١)الطبري، جامع البيان: (٢٤/١٦٤).

(٢) الأنصاري، إعراب القرآن: (٥/١٣٢)، وانظر: القطع والائتناف، للنحاس: (ص٧٥٨)، والتحرير والتنوير: (٣٠/٣٧).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (٩/٦٧،٦٦) بتصرف، وفى معانى القرآن وإعرابه للزجاج: "فأما من قال (ضحكت) حاضت فليس بشيء، وإنما ضحكت سرورًا بمجيئ الأمر بإهلاك المكذبين"، معانى القرآن وإعرابه للزجاج: (٣/٦٢).

بعد: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود:٧٢-٧٣]، فلو كان حيضها قبل بشارتها لما تعجَّبت إذ لا عَجَبَ في حملٍ من تَحِيضُ، والحيضُ في العادةِ علامةٌ على إمكانِ الحملِ"[١].

"والرأي المختار: ما ذهب إليه جمهور المفسّرين: أنَّ الضَّحِكَ هنا على حقيقتِهِ، وسببُهُ الفرحُ والتعجُّبُ، فَرِحَت حين سمعتِ الملائكةَ الكرام يُخبرون إبراهيم عليه السلام بأمر نجاة لوط عليه السلام ومن آمن معه، وهلاك المكذبين به المعرضين عن دعوتِهِ، وتعجَّبت من حالِ الهالكين، كيف يتمادُون في الضلال ويُصِرُّون على الانحلالِ مع قربِ هلاكِهِم؛ فالأولى بهم أن يتوبوا إلى الله قبل فوات الأوان"[٢].

القاعدة السابعة: تقديم المعنى الشرعي على المعنى اللغوي:

إذا كان للكلمة الواحدة معنيان أو أكثر، أحدهما لغوي والآخر شرعي، واختلف المعنيان قُدِّم المعنى الشرعي على اللغوي؛ لأن القرآن الكريم نزل لبيان الشرع لا لبيان اللغة، إلا أن تدل قرينة على إرادة المعنى اللغوي[٣].

المثال الأول: تقديم المعنى الشرعي على المعنى اللغوي:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[التوبة:٨٤] ففي قوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ فالصلاة لها معنيان:

الأول: **لغوي**: وهو: الدعاء. الثاني: **شرعي**: وهو هنا صلاة الجنازة.

فيُقدَّم هذا المعنى الشرعي؛ لأنه المقصود للمتكلّم المعهود للمخاطب[٤].

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (٦٦،٦٧/٩) بتصرف، الإسكندري أحمد بن المنير، الانتصاف بهامش الكشاف: (٤١٠،٤١١/٢) بتصرف.

(٢) الشرقاوي، أحمد بن مُحمد، المرأة في القصص القرآني، ط. دار السلام بالقاهرة ط.٣ (١٤٣٥هـ)، (١٦٦/١: ١٦٩).

(٣) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: (١٦٧/٢).

(٤) ابن عثيمين، أصول التفسير: (ص٢٩).

المثال الثاني: تقديم المعنى اللغوي لقرينة:

قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة:١٠٣]، فقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم، ويدل على ذلك ما رواه مسلم عن عبدالله بن أَبِي أَوْفَى قال: "كان النبي ﷺ إذا أُتي بصدقة قوم صلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقة فقال: «**اللهم صلِّ على آلِ أَبِي أَوْفَى**[(١)]»" [(٢)].

قال الزركشي – رحمه الله – : "وكلّ لفظٍ احتملَ معنيينِ فصاعدًا فهو الذي لا يجوزُ لغيرِ العلماءِ الاجتهادُ فيه، وعليهم اعتمادُ الشواهدِ والدلائلِ دون مجرَّدِ الرأيِ، فإن كان أحدُ المعنيينِ أظهرَ؛ وجبَ الحملُ عليه، إلا أن يقومَ دليلٌ على أن المرادَ هو الخفيُّ، وإن استويا والاستعمال فيهما حقيقة لكن في أحدهما حقيقة لغوية أو عرفية، وفي الآخر شرعية، فالحمل على الشرعية أولى، إلا أن يدل دليل على إرادة اللغوية، كما في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة:١٠٣]" [(٣)]، فالصلاة هنا تُحمل على معناها اللغوي وهو: الدعاء.

* * *

(١) صحيح مسلم: باب الدعاء لمن أُتِيَ بصدقة: (ح١٧٩١).

(٢) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: (١٦٧/٢)، وأصول التفسير لابن عثيمين: (ص٣٠،٢٩).

(٣) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: (١٦٧/٢،١٦٦).

ملف الإنجاز/ أنشطة:

أنشطة

١. من قواعد التفسير "العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب"، اشرحي هذه القاعدة مع ذكر مثال لها.

٢. استخرجي ثلاث ترجيحات من تفسير ابن عطية اعتمد فيها على هذه القاعدة السابقة.

٣. من قواعد التفسير "كلّ عام يبقى على عمومه، حتى يأتي ما يُخصصه"، اشرحي هذه القاعدة مع ذكر مثال لها.

ملف الإنجاز

١. استخلصي قواعد التفسير من تفسير الطبري، [يتم توزيع ٣٠ صفحة على كلّ طالبة].

٢. استخلصي قواعد التفسير من مقدمة ابن عطية.

٣. اذكري نموذجًا للخطأ في التفسير بسبب الاعتماد على اللغة وحدها دون الرجوع لأصول التفسير الأخرى.

٤. اذكري نموذجًا للخطأ في التفسير؛ بسبب إغفال قاعدة تقديم المعنى الظاهر.

٥. اذكري نموذجًا للخطأ في التفسير؛ بسبب إغفال سبب النزول.

٦. اذكري نموذجًا لأهمية معرفة رسم المصحف في الترجيح.

٧. اذكري نموذجًا لأهمية معرفة اختلاف القراءات في التفسير.

٨. اذكري نموذجًا لأهمية النظر في السياق عند الترجيح.

مصادر التعلم:

١. القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبدالرحمن السعدي.
٢. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، للشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني.
٣. قواعد التفسير جمعًا ودراسة، د خالد عثمان السبت، ط. دار ابن عفان.
٤. قواعد الترجيح بين المفسِّرين، للشيخ الدكتور حسين الحربي، وهو دراسة لقواعد الترجيح من خلال جامع البيان للطبري، والمحرر الوجيز لابن عطية.
٥. أسباب الخطأ في التفسير دراسة تأصيلية، د. طاهر محمود مُحمد يعقوب، ط. دار ابن الجوزي.
٦. أصول التفسير وقواعده، خالد عبدالرحمن العك، دار النفائس بيروت.

التقويم:

١. بيّني أهمية دراسة قواعد التفسير.
٢. ما هي أهم مصادر قواعد التفسير؟
٣. ما هي شروط المفسِّر وما آدابه؟

* * *

الوحدة الثالثة



التفسير التحليلي وتطبيقات عليه

أهداف الوحدة:

يُتوقع من الدارس بعد إنهائه هذه الوحدة أن:

(١) يشرح مفهوم التفسير التحليلي.

(٢) يُناقش أسلوب التفسير التحليلي.

(٣) يُطبق أسلوب التفسير التحليلي لسورة الأعراف من خلال كتب التفسير المشهورة.

(٤) يطبق أسلوب التفسير التحليلي لسورة الكهف من خلال كتب التفسير المشهورة.

(٥) يطبق أسلوب التفسير التحليلي لسورة النور من خلال كتب التفسير المشهورة

مفردات الوحدة:

الموضوع الأول: مفهوم التفسير التحليلي.

الموضوع الثاني: التفسير التحليلي لآيات من سورة الأعراف [الآيات: ١-٣٠].

الموضوع الثالث: التفسير التحليلي لآيات من سورة الكهف [الآيات: ٦١-١١٠].

الموضوع الرابع: التفسير التحليلي لسورة النور.

عدد المحاضرات:

الدبلوم: (٢٤) محاضرة.

الدبلوم العالي: (١٢) محاضرة.

تمهيد:

للتفسير مناهج متعددة، منها التفسير بالمأثور، أي المنقول عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين، كما اصطلح عليه المعاصرون، والتفسير بالرأي، وهو الذي يغلب عليه جانب الرأي والاجتهاد، كذلك قسّم العلماء التفسير إلى تحليلي وموضوعي ومُقَارن:

فالتفسير الموضوعي: "الدراسة الموضوعية للموضوع القرآني، أو لموضوع في سورة واحدة، أو لما اشتملت عليه سورة من موضوعات، تدور حول مِحور واحد أو هدف واحد".

والمقارن: "هو المقارنة بين مفسِّرَين فأكثر؛ للوقوف على دقائق المعاني، والترجيح بين الأقوال، أو الجمع بينها، ومعرفة منهج المفسِّر".

والتحليلي: هو التفسير المُتعارف عليه، والذي يسلكه في العادة المفسِّرون من تفسير القرآن سورة سورة، حسب تنوع اتجاهاتهم في التفسير، فمنهم من يُعنى باللغة، كأبي حيان في "البحر المحيط"، وتلميذه السمين الحلبي في "الدُّر المَصُون"، ومنهم من يُعنى بعلم الكلام، كالرازي في "التفسير الكبير"، ومنهم من يُعنى بالأحكام الفقهية، كالقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن"، ومنهم من أولى عنايةً بالبلاغة القرآنية، كالزمخشري في "الكشاف"، وأبي السعود في "إرشاد العقل السليم"، وابن عاشور في "التحرير والتنوير"، ومنهم من عُنِيَ بالمناسبات بين السُّور وبين الآيات، كصنيع البقاعي في كتابه "نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّور"، وهكذا تنوعت اهتماماتهم في تفاسيرهم.

ومنهج التفسير التحليلي منهج يغوص في أعماق النَّص القرآني، حيث يقوم المفسِّر ببيان الآيات القرآنية بيانًا مُستفيضًا من جميع نواحيها، بحيث يسير في هذا البيان مع آيات السُّورة آية آية، شارحًا مفرداتها، وموجّهًا إعرابها، وموضحًا معاني جملها، وما تهدُف إليه تراكيبها من أسرار وأحكام، ومُبيّنًا أوجه المناسبات بين الآيات والسُّور، مستعينًا في ذلك بالآيات القرآنية الأخرى ذات الصلة، وبأسباب النزول، وبالأحاديث النبوية، وبما صحَّ عن الصحابة والتابعين، وبغير ذلك من العلوم التي تُعينه على فهم النص القرآني وتوضيحه للقرَّاء، مازجًا ذلك بما يستنبطه عقله من هدايات وحِكم وأَحْكَام.

الموضوع الأول
مفهوم التفسير التحليلي

تعريف التفسير التحليلي:

التفسير التحليلي "مركب وصفي"، يحتاج لبيان جُزْأيه قبل تعريفه:

تم تعريف التفسير سابقًا.

وسوف نقوم بتعريف التحليلي، ثم التفسير التحليلي في الاصطلاح.

التحليلي في اللغة:

التحليلي: مأخوذ من الحلّ بمعنى: الفتح، ونقض المنعقد، قال ابن منظور: "وحلَّ العُقدة يحلها حلاً: فتحها ونقضها، فانحلت"[(١)]، والتحليل يُطلق على إرجاع الشيء إلى عناصره.

التفسير التحليلي في الاصطلاح:

هو أن يلتزم المفسِّر تسلسل النَّظم القرآني والسير معه سورةً سورةً، وآيةً آيةً[(٢)]، فيُبين سبب نزولها، وبيان غريبها، وإعراب مُشْكلها، وبيان مُجملها، ومن أمثلته: تفسير ابن عطية، والآلوسي، والشوكاني، وغيرهم[(٣)].

وقيل هو: هو منهج في تفسير القرآن الكريم يُراعى فيه الترتيب التعبدي للآيات والسُّور، أو الآيات لقطاع معيَّن داخل السُّورة الواحدة، يقوم على توضيح مراد الله تعالى من كلامه قدر الطاقة البشرية[(٤)].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: (١١/١٦٩).

(٢) الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: (٣/٨٦٢).

(٣)مساعد الطيار، فصول في أصول التفسير: (ص٣٣).

(٤) متولي صبري، التفسير التحليلي للقرآن الكريم: (ص٩).

قواعد التفسير التحليلي:

وهي التي لا غِنى لأي مفسر عنها أيًا ما كان اتجاهه فهي تتمثل في أفضل الطرق لتفسير القرآن:

١- تفسير القرآن بالقرآن؛ فما أُجمل في موضع فصِّل في موضع آخر.

٢- تفسير القرآن بالسُّنة؛ فالمهمة الأولى للسُّنة بيان التنزيل.

٣- تفسير القرآن بأقوال الصحابة ﭫ، فهم أطهر أجيال الأُمّة قلوبًا، وأكثرهم علمًا وأقلهم تكلُّفًا.

٤- تفسير القرآن بأقوال التابعين إذا أجمعوا على رأي، أما إذا اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم.

خطوات التفسير التحليلي:

الخطوة الأولى: بين يدي السُّورة، ويتضمن هذا العنوان النظر في:

- أسماءُ السُّورة.
- كونها: مدنية، أو مكية.
- عدد آياتها.
- فضلها.
- مقصدها العام.
- أغراض السُّورة (موضوعاتها الفرعية).
- مناسبة السُّورة لما قبلها.

والهدف من هذه الخطوة: أن تكون كالمقدمة للسورة المدروسة؛ لتكوين تصوّر شامل لها.

ومصادر هذه الخطوة: (مقدمات كتب التفسير، ومنها التحرير والتنوير لابن عاشور).

الخطوة الثانية: تقسيمها إلى مقاطع، مع بيان المناسبات بين آيات كلّ مقطع.

ومن مصادر هذه الخطوة: (نظم الدرر للبقاعي - تفسير الرازي).

الخطوة الثالثة:

- **معاني الغريب**: ومن مصادره: (المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني - عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي).

- **إعراب المُشْكِل**: ومن مصادره: (التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري – إعراب القرآن، للنحاس).

- **القراءات**: ومن مصادرها: (النشر في القراءات العشر، لابن الجزري - وكتب توجيه القراءات، مثل الحجة للقراء السبعة، لابن علي الفارسي).

- **النكات البلاغية**: ومن مصادرها: (الكشاف، للزمخشري - إرشاد العقل السليم، لأبي السعود - تفسير الألوسي - التحرير والتنوير، لابن عاشور).

الخطوة الرابعة: ذكر سبب النزول إن وجد، ومن مصادر هذه الخطوة: (أسباب النزول، للواحدي - لُباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي).

الخطوة الخامسة: ذكرُ المعنى الإجمالي للآيات، ومصادر هذه الخطوة: (تفسير السعدي - التفسير الميسر - المختصر في تفسير القرآن الكريم، لمركز تفسير).

الخطوة السادسة: استنباط الهدايات والحِكَم والأحكام، ومن مصادر هذه الخطوة: (تفسير السعدي - تفسير ابن عثيمين - المختصر في تفسير القرآن الكريم).

أهمية التفسير التحليلي:

١- أهم ما يميز هذا النوع من التفسير هو الشُّمُوليّة، وتناوله للآية الكريمة من جوانبها المختلفة؛ مما يُعطي القارئ صورة متكاملة عن معناها، وأوجه البلاغة فيها، وبيان القراءات، وأقوال أهل العلم، والفوائد المستنبطة منها إلى غير ذلك من الجوانب التي يتناولها التفسير التحليلي.

٢- المفسِّر في التفسير التحليلي ينظر في القرآن وسوره وآياته، يبدأ منه وينتهي إليه، ويجلس أمام القرآن، ويتلقى منه، ويستمع إليه، ويسجِّل ما يأخذه منه.

٣- يُقدّم فيه المفسِّر للمسلمين علمًا تفسيريًا نظريًا، ومعلومات تفسيرية ثقافية، ومجالات علمية متنوعة في: العقيدة، والحديث، والفقه، واللغة، والبلاغة، والنحو، وغير ذلك.

٤- يخدم المفسِّر في التفسير التحليلي الآية، والجملة، والمفردة القرآنية.

٥- المحافظة على الوحدة العضوية لكلّ سورة، والتي تتجلى بالملامح الشخصية المميزة، وحينئذٍ يتسنَّى لنا تطبيق علم المناسبة بين الآيات والسُّور.

٦- هذا النوع من التفسير لا يستغني عنه الباحث في التفسير: الإجمالي، أو الموضوعي، أو المقارن؛ وذلك لأن التفسير التحليلي ينصبُّ علي معرفة دلالة الكلمة اللغوية، ودلالتها الشرعية، والتعرُّف علي الرَّابط بين الكلمات والجملة، وبين الجمل في الآية الواحدة، وبين الآيات في السُّورة، وكذلك التعرف علي القراءات وأثرها على دلالة الآية، ووجوه الإعراب ودورها في الأساليب البيانيَّة وإعجاز القرآن الكريم، وغيرها من الوجوه التي تُساعد علي إجْلاء المعني.

استراتيجيات التدريس في التفسير التحليلي:

- تفسير السُّور والآيات تفسيرًا تحليليًا، مع بيان: فضل السُّورة، وأسباب النزول، وبيان غريب القرآن، وإعجازه، والعناية بالقراءات المؤثّرة في المعنى، وأوجه الإعراب، وبيان ما ترشد له الآيات من: الفوائد العامة، والعقائد، والأحكام، والأخلاق، والعظات، والعبر.
- تُدرَّس مقدمات السُّورة كاملة، مع محاولة التركيز على زمان نزول السُّورة عامة من حيث المكي والمدني من جهة، وخاصة تحديد سَنة نزول بعض الآيات حسب أسباب النزول وموضوع الآيات، مع إلقاء الضوء على أن معرفة ذلك يؤثِّر مباشرة على تحديد محور السُّورة والموضوع الرئيسي فيها.
- تُقسَّم السُّورة إلى وحدات موضوعية.
- تُدرَّس الآيات في كلِّ وحدة تحليليًا، ثم موضوعيًا، مع العناية بصلة كلِّ آية بما قبلها، وكلّ وحدة بما قبلها.

- في نهاية السُّورة يتم الربط بين الوحدات الموضوعية؛ ليصل الأستاذ مع الدَّارس في النهاية إلى تحديد الموضوع الرئيسي فيها، مع بيان وجه ارتباط كلِّ موضوعٍ تناولته السُّورة بالموضوع الرئيسي.
- المناقشة والحوار خلال المحاضرات.
- استخدام استراتيجية السؤال والجواب.
- التعليم التعاوني.
- إثارة الفضول لدراسة محتوى المقرر باستخدام بعض الوسائل التعليمية مثل: power (point).
- الاستعانة بشبكة الإنترنت؛ للاطلاع على ما يُستجد من معلومات.
- الواجبات المنزلية.

طرق تقويم المعارف المكتسبة:

- التكاليف الأسبوعية.
- البحوث الجماعية والفردية.
- المشاركة أثناء المحاضرات.
- الاختبارات التحريرية.

من مصادر التفسير التحليلي:

١- جامع البيان، لابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ).

٢- معالم التنزيل، للبغوي (ت: ٥١٦هـ).

٣- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (ت: ٧٧٤هـ).

٤- المحرر الوجيز، لابن عطية (ت: ٥٤٢هـ).

٥- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (ت: ٦٧١هـ).

٦- فتح القدير، للشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ).

٧- إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (ت: ٩٥١هـ).

٨- رُوح المعاني، للألوسي (ت: ١٢٧٠هـ).

٩- التحرير والتنوير، لابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ).

* * *

الموضوع الثاني
التفسير التحليلي لآيات من سورة الأعراف
من الآية (١) إلى الآية (٣٠)



بين يدي السُّورة:

اسم السُّورة:

هذا هو الاسم الذي عُرفت به هذه السُّورة، من عهد النبي ﷺ، روى النسائي بسنده عن ابن أبي مُليكة، عن عروة عن زيد بن ثابت: أنه قال لمروان بن الحكم: «ما لي أراك تقرأ في المغرب بقصار السُّور، وقد رأيت رسول الله - عليه الصلاة والسلام - يقرأ فيها بأطول الطوليين». قال مروان، قلت: «يا أبا عبدالله ما أطول الطولين»، قال: «الأعراف»(١).

وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها: "أن رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف فرّقها في ركعتين"(٢).

والمراد بالطوليين سورة الأعراف، وسورة الأنعام، فإن سورة الأعراف أطول من سورة الأنعام، باعتبار عدد الآيات، ويفسِّر ذلك حديث عائشة رضي الله عنها.

ووجه تسميتها؛ أنها ذُكر فيها لفظ الأعراف بقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف:٤٦]، ولم يُذكر في غيرها من سور القرآن؛ ولأنها ذُكر فيها شأن أهل الأعراف في الآخرة، ولم يُذكر في غيرها من السُّور بهذا اللفظ.

وذكر الفيروز آبادي في كتاب "بصائر ذوي التمييز": أن هذه السُّورة تُسمَّى سورة (**الميقات**)؛

---

(١) سنن النسائي: القراءة في المغرب بـ (الٓمٓصٓ): (ح٩٩٠)، قال الألباني: (صحيح).

(٢) سنن النسائي: القراءة في المغرب بـ (الٓمٓصٓ): (ح٩٩١)، قال الألباني: (صحيح).

لاشتمالها على ذكر ميقات موسى عليه السلام في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٤٣]، وأنها تُسمَّى سورة (الميثاق)؛ لاشتمالها على حديث الميثاق في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢][١].

مكيّة السُّورة أو مدنيتها:

السُّورة: مكيّة بلا خلاف.

وهي من السبع الطوال التي جُعلت في أول القرآن؛ لطولها، وهي سُوَر: (البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، الأنعام، والأعراف، وبراءة).

وهي معدودة التاسعة والثلاثين في ترتيب نزول السُّور عند جابر بن زيد عن ابن عباس، نزلت بعد سورة (ص) وقبل سورة (الجن)، قالوا: جعلها ابن مسعود في مصحفه عقب سورة (البقرة)، وجعل بعدها سورة (النساء)، ثم (آل عمران)، ووقعت في مصحف أُبيّ بعد (آل عمران)، (الأنعام) ثم (الأعراف)، وسورة (النساء) هي التي تلي سورة (البقرة) في الطول، وسورة (الأعراف) تلي سورة (النساء) في الطول.

عدد آيات السُّورة:

مئتان وخمس آيات في البصري والشامي، وست في المدنيين والمكي والكوفي[٢].

مقصد السُّورة:

تُركّز على سُنّة الصراع بين الإيمان والكفر وعاقبته.

أغراضها:

افتُتحت هذه السُّورة بالتنويه بالقرآن والوعد بتيسيره على النبي ﷺ؛ ليبلِّغَهُ، وكان افتتاحها كلامًا جامعًا، وهو مناسب لما اشتملت عليه السُّورة من المقاصد، فهو افتتاحٌ واردٌ على أحسن وجوه البيان

---

(١) التحرير والتنوير: (٨-ب/٩).

(٢) أبو عمرو الداني، البيان في عدِّ آي القرآن: (ص١٥٥).

وأكملها شأن سور القرآن.

وتدور مقاصد هذه السُّورة على محور مقاصد منها:

النهي عن اتخاذ الشُّركاء من دون الله.

وإنذار المشركين عن سُوء عاقبة الشرك في الدُّنيا والآخرة.

ووصف ما حلَّ بالمشركين والذين كذبوا الرسل من سوءِ العذاب في الدُّنيا، وما سيحُلُّ بهم في الآخرة.

تذكير الناس بنعمة خلق الأرض، وتمكين النوع الإنساني من خيرات الأرض، وبنعمة الله على هذا النوع بخلق أصله وتفضيله.

وما نشأ من عداوة جنس الشيطان لنوع الإنسان.

وتحذير الناس من التلبُّس ببقايا مكر الشيطان من تسويله إياهم حرمان أنفسهم الطيبات، ومن الوقوع فيما يزجُّ بهم في العذاب في الآخرة.

ووصف أهوال يوم الجزاء للمجرمين، وكراماته للمتقين.

والتذكير بالبعث، وتقريب دليله.

والنهي عن الفساد في الأرض التي أصلحها الله لفائدة الإنسان.

والتذكير ببديع ما أوجده الله لإصلاحها وإحيائها.

والتذكير بما أودع الله في فطرة الإنسان من وقت تكوين أصله أن يقبلوا دعوة رُسل الله إلى التقوى والإصلاح.

وأفاض في أحوال الرُّسل مع أقوامهم المشركين، وما لاقوه من عنادهم وأذاهم، وأنذر بعدم الاغترار بإمهال الله الناس قبل أن يُنزل بهم العذاب إعذارًا لهم أن يُقلعوا عن كفرهم وعنادهم، فإن العذاب يأتيهم بغتة بعد ذلك الإمهال.

وأطال القول في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وفي تصرفات بني إسرائيل مع موسى عليه السلام.

وتخلل قصته بشارة الله ببعثة محمد ﷺ، وصِفة أمَّته، وفضل دينه.

ثم تخَلُّصُ إلى موعظة المشركين كيف بدَّلوا الحنيفية وتقلَّدُوا الشِّرك، وضرب لهم مثلاً بمن آتاه الله الآيات، فوسوس له الشيطان؛ فانسَلَخَ عن الهدى.

ووصف حال أهل الضلالة، ووصف تكذيبهم بما جاء به الرسول ﷺ، ووصف آلهتهم بما يُنافي الإلهية، وأن لله الصّفات الحسنى، صفاتُ الكمال.

ثم أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام والمسلمين بسعة الصدر، والمداومة على الدعوة، وحذَّرهم من مداخل الشيطان، بمراقبة الله بذكره سرًا وجهرًا والإقبال على عبادته(١).

مناسبة السُّورة لما قبلها:

لمَّا كانت سورة الأنعام لبيان الخَلْقِ، وقال فيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام:٢]، وقال في بيان القُرُونِ: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [الأنعام:٦]، وأُشِير فيها إلى ذِكرِ المُرسلين، وتِعداد كثير منهم، وكانت الأمور الثلاثة على وجه الإجمال لا التفصيل، ذُكرت هذه السُّورة عقبها؛ لأنها مشتملة على شرح الأمور الثلاثة وتفصيلها؛ فبُسِط فيها قصة خلق آدم أبلغ بَسْطٍ؛ بحيث لم تُبْسَط في سورة كما بُسِطَت فيها، وذلك تفصيلُ إجمالِ قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، ثم فصَّلت قصص المرسلين وأُمَمِهم، وكيفية إهلاكهم تفصيلاً تامًّا شافيًا مستوعبًا لم يقع نظيره في سورة غيرها، وذلك بسْطُ حالِ القُرُون المُهلَكة ورُسُلهم، فكانت هذه السُّورة شرحًا لتلك الآيات الثلاث(٢).

مناسبة مقدمة السُّورة لخاتمتها:

افتتحت السُّورة ببيان إنزال هذا القرآن إلى الرسول، ودعوته إلى الإنذار به، وتبليغه وتذكير المؤمنين به، ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف:٢-٣]، واختتمت السُّورة بالدعوة إلى الاستماع لهذا القرآن والإنصات لتلاوته، والأمر بذكر الله، والتحذير من الغفلة، ﴿وَإِذَا قُرِئَ

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٨-ب/٩).

(٢) انظر: السيوطي، أسرار ترتيب القرآن: (٨٦).

ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف: ٢٠٤-٢٠٥]، فاتفقت البداية مع الخاتمة.

اتباع القرآن الكريم

﴿الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: ١-٣].

معاني المفردات:

﴿حَرَجٌ﴾: شكٌّ، وضِيق من تبليغه.

الإعراب:

﴿قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾ قَلِيلاً: منصوب بفعلِ تَذَكَّرُونَ، وما زائدة، وتقدير النَّصب من وجهين: إما لأنه صفةٌ لمصدرٍ محذوف تقديره: تذَّكرون تذكرًا قليلا، أو لأنه صفة لظرف زمان محذوف، تقديره: زمانًا قليلاً.

البلاغة:

١- صرح بمتعلق الذِّكرى في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دون متعلق لتنذر؛ تنويهًا بشأن المؤمنين، وتعريضًا بتحقير الكافرين تجاه ذكر المؤمنين.

٢- ﴿مِن رَّبِّكُمۡ﴾: وصفُ الربوبية مع الإضافة لضمير المخاطبين؛ فيه إشعار بمزيد اللطف بهم، وترغيب في امتثال الأوامر.

التفسير:

هذه من الحروف التي افتُتِحت بها بعض سور القرآن، وهي حروفٌ هجائية لا معنى لها في نفسها إذا جاءت مفردة هكذا (أ، ب، ت، ...إلخ)، ولها حكمةٌ ومَغْزًى؛ حيث لا يُوجد في القرآن ما لا

حكمة له، ومن أهم حِكَمها الإشارة إلى التحدّي بالقرآن الذي يتكوَّن من الحروف نفسها التي يعرفونها ويتكلّمون بها؛ لذا يأتي غالبًا بعدها ذكرٌ للقرآن الكريم، كما في هذه السُّورة.

هذا القرآن كتاب عظيم أنزله الله عليك - أيها الرسول - فلا يكُن في صدرك شكٌّ منه في أنه أُنزل من عند الله، ولا تتحرج في إبلاغه والإنذار به، أنزلناه إليك؛ لتُخوِّفَ به الكافرين وتُذَكِّر المؤمنين.

اتبعوا - أيّها الناس - ما أُنزل إليكم من ربكم من الكتاب والسُّنة بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، ولا تتبعوا من دون الله أولياء كالشياطين والأحبار والرهبان. إنكم قليلاً ما تتعظون، وتعتبرون، فترجعون إلى الحق[1].

الهدايات المستنبطة:

١- المقصود بالقرآن إنذار الكافرين والعُصَاة؛ بسبب إعراضهم عنه، وتذكير المؤمنين به؛ لأنهم المنتفعون به.

٢- الأمر العام لجميع الناس باتباع ملة الإسلام والقرآن، وإحلال حلاله، وتحريم حرامه، وامتثال أمره، واجتناب نهيه.

٣- ترك اتباع الآراء الشخصية أو الاجتهادية مع وجود النص الشرعي.

٤- المنع من عبادة أحد مع الله، واتخاذ من عدَل عن دين الله وليًا.

* * *

(١) نُخبة من العلماء، التفسير الميسر: (ص١٥١).

عاقبة تكذيب الرسل في الدُّنيا

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الأعراف: ٤-٥].

معاني المفردات:

﴿بَأْسُنَا﴾: عذابنا.

﴿بَيَاتًا﴾: نائمون ليلاً.

﴿قَائِلُونَ﴾:نائمون في نصف النهار.

البلاغة:

١- خصَّ بالذكر إهلاك القرى ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾، دون ذكر الأمم؛ لأن المواجهين بالتعريض هم أهل مكة، وهي أم القرى؛ فناسب أن يكون تهديد أهلها بما أصاب القرى وأهلها؛ ولأن تعليق فعل أهلكناها بالقرية دون أهلها؛ لقصد الإحاطة والشمول، فهو مُغْنٍ عن أدوات الشمول، فالسامع يعلم أن المراد من القرية أهلها؛ لأن العبرة والموعظة إنما هي بما حصل لأهل القرية.

٢- قوله تعالى: ﴿بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾، خصَّ هذان الوقتان من بين أوقات الليل والنهار؛ لأنهما اللذان يطلب فيهما الناس الراحة والدعة، فوقوع العذاب فيهما أشد على الناس؛ ولأن التذكير بالعذاب فيهما ينغِّصُ على المكذبين تخيل نعيم الوقتين.

المناسبة:

لما أمر الله تعالى الرسول عليه الصلاة والسلام بالإنذار والتبليغ، وأمر القوم بالقبول والاتباع، ذكر في هذه الآية ما يترتب على المخالفة من عقاب ووعيد، من طريق التذكير بإهلاك الأمم السابقة،

لمخالفتهم الرسل وتكذيبهم.

التفسير:

وكثير من القرى أهلكنا أهلها بسبب مخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي الدُّنيا موصولا بذلِّ الآخرة، فجاءهم عذابنا مرةً وهم نائمون ليلاً ومرةً وهم نائمون نهارًا. وخَصَّ الله هذين الوقتين؛ لأنهما وقتان للسكون والاستراحة، فمجيء العذاب فيهما أفظع وأشد.

فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا الإقرار بالذنوب والإساءة، وأنهم حقيقون بالعذاب الذي نزل بهم[١].

الهدايات المستنبطة:

١- إن عصيان أوامر الرسل وتكذيبهم؛ موجب للخزي في الدُّنيا والعذاب في الآخرة، وعذاب الدُّنيا يأتي في وقت الغفلة واللهو، إما ليلاً أو حين القيلولة نهارًا.

٢- كلّ مذنب حين توقيع العقاب الدنيوي عليه؛ يعترف بجرمه، ويندم على ما فرط منه.

٣- الجزاء أو العقاب الإلهي في الدُّنيا حقٌ وعدلٌ ومطابقٌ للواقع، ولا يجيءُ العذاب إلا بعد العصيان، وإعذار الناس من أنفسهم.

* * *

(١) نخبة من العلماء، التفسير الميسر: (١٥١).

عاقبة الكفر في الآخرة والحساب الدقيق على الأعمال

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف:٩].

معاني المفردات:

﴿وَٱلْوَزْنُ﴾: وزن أعمال العباد.

﴿ٱلْحَقُّ﴾: العدل.

الإعراب:

اللام في (فَلَنَسْئَلَنَّ) و(فَلَنَقُصَّنَّ) لام القسم، المراد بها التوكيد.

البلاغة:

المرادُ بالسؤال؛ توبيخُ الكفرة وتقريعُهم.

المناسبة:

بعد أن أنذر الله تعالى المخالفين رسلهم بعذاب الاستئصال في الدُّنيا، أتبعه بالتهديد بعذاب آخر يوم القيامة، وأبان أنه يسأل جميع الناس عن أعمالهم، سواءً أهل العقاب وأهل الثواب، ولمَّا بيّن في الآية الأولى أن من جملة أحوال القيامة: السؤال والحساب، بيّن أن من جملة أحوال القيامة أيضًا وزن الأعمال.

التفسير:

فلنسألن الأمم الذين أرسل إليهم المرسلون: ماذا أجبتم رسلنا إليكم؟ و(لنسْألَنَّ المرسلين) عن تبليغهم لرسالات ربهم، وعمَّا أجابتهم به أممهم.

فلَنَقُصَّنَّ على الخلق كلِّهم ما عملوا بعِلمٍ مِنَّا لأعمالهم في الدُّنيا فيما أمرناهم به، وما نهيناهم عنه، وما كُنَّا غائبين عنهم في حال من الأحوال.

ووزن أعمال الناس يوم القيامة يكون بميزان حقيقي بالعدل والقسط الذي لا ظلم فيه، فمن ثقلت موازين أعماله - لكثرة حسناته - فأولئك هم الفائزون.

ومن خَفَّتْ موازين أعماله - لكثرة سيئاته - فأولئك هم الذين أضاعوا حظَّهم من رضوان الله تعالى، بسبب تجاوزهم الحد بجحد آيات الله تعالى وعدم الانقياد لها.

الهدايات المستنبطة:

١- الآية تدل على أنه تعالى يُحاسب كلّ عباده؛ لأنهم لا يخرجوا عن أن يكونوا رسلاً أو مُرسلاً إليهم.

٢- وإثبات سؤال الأمم هنا لا يُنافي نفيه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص:٧٨]، وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن:٣٩]؛ لأن المسئول عنه هنا هو التبليغ، والمنفي في الآيتين الأُخريين هو السؤال لمعرفة تفاصيل ذنوبهم.

* * *

كثرة نِعم الله على عباده

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ١٠﴾
[الأعراف: ١٠]

معاني المفردات:

﴿مَكَّنَّٰكُمْ﴾: مكنَّا لكم فيها، وجعلناها لكم قرارًا.

﴿مَعَٰيِشَ﴾: ما تعيشون به.

البلاغة:

١. تذييل الجملة بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، توبيخٌ على قلة شكرهم؛ فإن النُّفوس التي لا يزجُرها التهديد قد تنفعها الذكريات الصالحة.

٢. تأكيد الخبر بلام القسم وقد ﴿وَلَقَدْ﴾ المفيد للتحقيق؛ تنزيل للذين هم المقصودون من الخطاب منزلةَ من يُنكر مضمون الخبر؛ لأنهم لـمَّا عبدوا غير الله كان حالهم كحال من يُنكر أن الله هو الذي مكنهم من الأرض، أو كحال من ينكر وقوع التمكين من أصله.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى الخلْقَ بمتابعة الأنبياء عليهم السلام وبقبول دعوتهم، ثم خوَّفهم بعذاب الدُّنيا: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها﴾، وبعذاب الآخرة من وجهين: السؤال والحساب: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ...﴾، ووزن الأعمال: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ رغَّبهم في هذه الآية بقبول دعوة الأنبياء عليهم السلام عن طريق التذكير بكثرة نِعم الله عليهم، وكثرة النِّعم تُوجب الطاعة.

التفسير:

ولقد مَكَّناكم - يا بني آدم - في الأرض، وجعلنا لكم فيها أسبابًا للعيش، فكان عليكم أن تشكروا الله على ذلك، لكن شكركم كان قليلاً.

الهدايات المستنبطة:

١- من أجلِّ نعم الله على البشر أن هَيَّأ لهم الأرض؛ لانتفاعهم بها، بحيث يتمكَّنون من البناء عليها وحَرْثها، واستخراج ما في باطنها للانتفاع به.

٢- إهمال شكر النعمة؛ يُعرِّض صاحبها لزَوَالها.

* * *

تكريم البشرية بالسجود لآدم وإغواء الشيطان وطرده من الجنة

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ١١-١٨].

معاني المفردات:

﴿الصَّاغرين﴾: الحقيرين، الذليلين.

﴿أنظرني﴾: أمهلني.

﴿لأقعدنَّ﴾: لأترَصَّدَنَّهم، وأصُدَّنَّهم.

﴿مذؤُومًا﴾: ممقوتًا، مذمومًا.

﴿مدْحُورًا﴾: مطرودًا.

الإعراب:

﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: (ما): استفهامية مبتدأ، (مَنَعَكَ): جملةٌ فعليةٌ خبرُ المبتدأ، و(أَلَّا تَسْجُدَ): في موضع نصب بمنعك، و(أَلَّا): صلةٌ زائدة، والتقدير: ما منعك أن تسجد، وتُزاد كثيرًا في كلام العرب، وفائدة زيادتها توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه.

البلاغة:

﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾: على حذف مضاف، أي خلقنا أباكم وصورنا أباكم.

﴿مَا مَنَعَكَ﴾: السؤال مع عِلْمِه تعالى بما منعه من السجود؛ للتوبيخ، ولإظهار معاندته، وكفره، وكبره، وافتخاره بأصله، وازْدِرَائِهِ بأصل آدم.

المناسبة:

رغَّب الله تعالى في الآيات السَّابقة بقبول دعوة الأنبياء عليهم السلام، بالتخويف أولاً، ثم بالترغيب ثانيًا بالتنبيه على كثرة نعم الله تعالى على الخلق، ثم أتبعه ببيان أنه خلق أبانا آدم وكرَّمه بأمر الملائكة بالسجود له، والإنعام على الأب إنعام على الابن، لكن قد يتعرض الناس لوسوسة الشيطان وإغوائه، ولا يليق بهم مع هذه النِّعم العظيمة التمَرُّد والجحود.

التفسير:

ولقد أنشأنا - أيها الناس - أباكم آدم، ثم صوَّرناه في أحسن صورة، وأحسن تقويم، ثم أَمَرْنا الملائكة بالسجود إكرامًا له، فامتثلوا وسجدوا، إلا إبليس أبى أن يسجد تكبرًا وعنادًا.

قال الله تعالى توبيخًا لإبليس: أيُّ شيء منعك من امتثال أمري لك بالسجود لآدم؛ قال إبليس مُجيبًا ربه: منعني أني أفضل منه، فقد خلقتني من نار، وخلقته هو من طين، والنار أشرف من الطين.

قال الله له: اهبط من الجنة، فليس لك أن تتكبر فيها؛ لأنها دار الطيِّبين الطاهرين، فما يجوز لك أن تكون فيها، إنك - يا إبليس - من الحقيرين الذليلين، وإن كنت ترى نفسك أنك أشرف من آدم.

قال إبليس: يا رب، أمهلني إلى يوم البعث حتى أُغوي من أستطيع إغواءه من الناس.

قال له الله: إنك - يا إبليس - من المُمْهَلين الذين كتبتُ عليهم الموت يوم النفخة الأولى في الصُّور حين يموت الخلق كلُّهم، ويبقى خالقهم وحده.

قال إبليس: بسبب إضلالك إياي حتى تركتُ امتثال أمرك بالسجود لآدم؛ لأُقْعُدَنَّ لبني آدم على صراطك المستقيم؛ لأصرفهم وأُضلّهم عنه كما ضَلَلْتُ أنا عن السجود لأبيهم آدم.

ثم لآتِينَّهم من جميع الجهات بالتزْهِيد في الآخرة، والترغيب في الدُّنيا، وإلقاء الشُّبهات، وتحسين الشَّهوات، ولا تجدُ - يا رب - أكثرهم شاكرين لك؛ لِما أُمليهِ عليهم من الكفر.

قال الله له: اخرج - يا إبليس - من الجنة مذمومًا مطرودًا من رحمة الله، ولأملأنَّ جهنم يوم القيامة منك، ومن كلِّ من اتبعك واطاعك، وعصى أمر ربه.

الهدايات المستنبطة:

١- دلَّت الآيات على أن من عصى مولاه فهو ذليل.

٢- أعلن الشيطان عداوته لبني آدم، وتوعَّد أن يصدُّهم عن الصراط المستقيم بكلّ أنواع الوسائل والأساليب.

٣- خطورة المعصية، وأنها سببٌ لعقوبات الله الدنيوية والأخروية.

٤- الخلق والتصوير لله وحده، ولا يستطيع أحد من البشر فعل شيء منهما.

٥- قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: يدل على أن إبليس كان عالمًا بالدين الحق، والمنهج الصحيح؛ لأن صراط الله المستقيم هو دينه الحق.

٦- محاولاَت إغواء الشياطين لا تقتصر على وجهٍ واحد، وإنما تأتي من كلِّ أوجه الحياة؛ فينبغي الحذر من الشيطان.

٧- قوله تعالى: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، أصلٌ في ثبوت الحق لأهل المحلِّة أن يُخرجوا من محلّتهم؛ من يُخشى من سيرته فُشُوِ الفساد بينهم.

* * *

قصة آدم في الجنة وخروجه منها

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف:١٩-٢٥]

معاني المفردات:

﴿ما وُوري﴾: ما سُتر، وأُخفي.

﴿سوءَاتِهما﴾: عوراتهما.

﴿وقاسَمَهُما﴾: أقسَمَ وحَلَف لهما.

﴿فدَلَّاهُمَا﴾: فجرَّأَهُما، وغرَّهُما.

﴿وطَفِقَا﴾: شَرَعا، وأخَذَا.

﴿يَخْصِفَان﴾: يَلْزِقَان.

الإعراب:

﴿إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾: (لَكُما) متعلقٌ بمحذوف، وتقديره: ناصحٌ لكما لمن الناصحين.

البلاغة:

﴿وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ﴾: عبَّر عن الأكل بالقرب؛ مبالغةً في النهي عن الأكل منها.

﴿وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما﴾: أكَّدَ الخبر بـ: القَسَم، وبأنّ، واللام؛ لدفع شبهة الكذب.

المناسبة:

الآيات استمرارٌ في الكلام عن النَّشأة الأولى للبشر، ودور شياطين الجنّ في إغواء الناس. والقصد من القصة إرشاد الناس إلى طرق الهداية، وتحذيرهم من وساوس الشياطين، فإن الشيطان بسبب حسده لآدم وحوّاء سعى في المكر، والوسوسة، والخديعة؛ ليسلُبَهُما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن.

التفسير:

وقال الله لآدم: يا آدم، اسْكُنْ أنت وزوجتك حوّاء الجنة، فكلا مما فيها من الطيبات ما شئتما، ولا تأكلا من هذه الشجرة (شجرة عَيَّنها الله لهما)، فإنكما إن أكلتما منها بعد نهيي لكما؛ كنتما من المتجاوزين لحدود الله.

فألقى لهما كلامًا خفيًّا إبليس؛ ليُظْهِر لهما ما سُتِر عنهما من عوراتهما، وقال لهما: ما نهاكما الله عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهة أن تكونا مَلَكَين، وإلا كراهة أن تكونا من الخالدين في الجنة.

وحلف لهما بالله: إني لكما – يا آدم وحوّاء – لمن الناصحين فيما أشرت عليكما به.

فَحَطَّهما من المنزلة التي كانا فيها بخداع منه وغرور، فلَّما أكلا من الشجرة التي نُهِيا عن الأكل منها ظهرت لهما عوراتهما مكشوفة، فأخذا يُلْزِقان عليهما من ورق الجنة؛ ليستُرا عوراتهما، وناداهما ربهما قائلاً: ألم أنهكما عن الأكل من هذه الشجرة، وأقل لكما محذّرًا لكما: إن الشيطان عدوٌّ لكما بيِّنُ العداوة؟!

قال آدم وحوّاء: يا ربنا، ظلمنا أنفسنا بارتكاب ما نهيتنا عنه من الأكل من الشجرة، وإن لم تغفر لنا ذنوبنا وترحمنا برحمتك؛ لنكوننَّ من الخاسرين بإضاعتنا حظّنا في الدُّنيا والآخرة.

قال الله لآم، وحوّاء، وإبليس: اهبطوا من الجنة إلى الأرض، وسيكون بعضكم عدوّ لبعض، ولكم

في الأرض مكانُ استقرارٍ إلى وقتٍ معلوم، وتمتُّعٌ بما فيها إلى أجل مسمًّى.

قال الله مخاطبًا آدم، وحوّاء، وذرِّيتهما: في هذه الأرض تَحْيَوْنَ مُدةَ ما قدَّر الله لكم من آجَالٍ، وفيها تموتون وتُدفنون، ومن قبوركم تخرجون للبعث.

الهدايات المستنبطة:

١- في توجيه الخطاب لآدم ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ بهذه الفضيلة بحضور إبليس بعد طرده؛ زيادةُ إهانةٍ؛ لأن إعطاء النّعم لمرضيٍ عليه في حين عقاب من استَأْهَلَ العقاب؛ زيادةُ حسْرَةٍ على المعاقب، وإظهارًا للتفاوت بين مُستَحِقِّ الإنعام، ومستحق العقوبة.

٢- من أَشبَهَ آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع - إذا صدرت منه الذنوب - اجتباه ربه وهداه، ومن أشْبَهَ إبليس - إذا صدر منه الذنب بالإصرار والعناد - فإنه لا يزداد من الله إلا بُعْدًا.

* * *

توفير حوائج الدُّنيا لبني آدم وتحذيرهم من فتنة الشيطان

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف:٢٦-٢٧]

معاني المفردات:

﴿يُوَارِي سوْءَاتِكم﴾: يستر عوراتكم، وهو لباس الضرورة.

﴿ورِيشًا﴾: لِبَاسُ الزِّينة.

﴿يَفْتِنَنَّكُم﴾: يُضلّنَّكم، ويَخْدَعنَّكم.

البلاغة:

﴿قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباسًا﴾: مجازٌ مرسلٌ، أي أنزلنا مطرًا يُنبت القطن والكِتَّان، ويُقيم البهائم ذات الأصواف، والأوبار، والأشعار.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى آدم وحوّاء بالهبوط إلى الأرض، وجعل الأرض مستقرًا لهما، أبان أنه تعالى أنزل كل ما يحتاجون إليه في شؤون الدِّين والدُّنيا، ومن جملتها اللباس الذي يُحتاج إليه في الدين والدُّنيا. وذلك يقتضي شكر الله على نعمه العظيمة وعبادته بحق.

التفسير:

يا بني آدم، قد جعلنا لكم لباسًا ضروريًّا لستر عوراتكم، وجعلنا لكم لباسًا كماليًّا تتجمَّلون به في الناس، ولباس التقوى – التي هي امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه- خيرٌ من هذا اللباس

الحسِّي، ذلك المذكور من اللباس من آيات الله الدالة على قُدرته، لعلكم تتذكرون نعمه عليكم فتشكرونها.

يا بني آدم، لا يَغُرَّنَّكم الشيطان بتزيين المعصية بترك اللباس الحسي لستر العورة أو ترك لباس التقوى، فقد خدع أبويكم بتزيين الأكل من الشجرة حتى كان مآل ذلك أن أخرجهما من الجنة، وبدت لهما عوراتهما، إن الشيطان وذريته يرونكم ويشاهدونكم وأنتم لا ترونهم ولا تشاهدونهم؛ فيلزمكم الحذر منه ومن ذريته، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون بالله، وأما المؤمنون الذين يعملون الصالحات فلا سبيل لهم عليهم.

الهدايات المستنبطة:

١- النّداء في الآيتين ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بعد الفراغ من ذِكر قصة خلق آدم وما لَقِيَهُ من وسوسة الشيطان؛ لِحَثّ الذرية أن تَثْأَرَ لآبائها، وتُعَادي عدوهم، وتحترس من الوقوع في شَرَكِهِ.

٢- كثيرٌ من أعوان الشيطان يدعون إلى نزع اللباس الظاهري؛ لتنكشف العورات، فيهُون على الناس فعل المنكرات وارتكاب الفواحش.

٣- دل قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ على وجوب ستر العورة عن أعين الناس.

* * *

تشريع المشركين تقليد الآباء وتشريع الله الوحي إلى رسوله

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[الأعراف: ٢٨-٣٠]

معاني المفردات:

﴿بالقسط﴾: بالعدل.

الإعراب:

﴿كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: الكاف في (كما) في موضع نصب؛ لأنها صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، تقديره: تعودون عوْدًا مثل ما بدأكم.

المناسبة:

لـمَّا ذكر الله تعالى أنه جعل الشياطين قُرَنَاء للكافرين مُسَلَّطين عليهم؛ ذكر هنا أثرًا من آثار تسلط الشياطين على الذين لا يؤمنون، وهو طاعتهم لهم.

الهدايات المستنبطة:

١- تقليد الآباء والأسلاف مرفوضٌ عقلاً وطبعًا؛ لأن الله ميّز الإنسان بالعقل الذي يستطيع به التمييز بين الحق والباطل، فإن كان الآباء على حق وخير، جاز اتباعهم وتقليدهم، وإن كانوا على ضلالة وشر، وجب البُعد عن منهجهم وطريقهم، وإلا كانوا على جهل وخطأ.

٢- لا يأمر الله إلا بالعدل والاستقامة، وهو تعالى منزّهٌ عن الأمر بالفحشاء والمنكر

والمعاصي.

٣- يزيد الله تعالى المؤمنين هداية وتوفيقًا إلى الخير، بعد هداية أصل التوحيد ومعرفة الله، وثُبوت الضلالة على الكافر بسبب إصغائه لوساوس الشيطان.

٤- الناس جميعًا عند خلقهم مخلوقون مفطورون على فطرة التوحيد ومعرفة الله تعالى، ثم يتغير حال بعضهم بمؤثرات البيئة والتعليم والتوجيه في البيت والمدرسة والمجتمع.

*　　*　　*

الموضوع الثالث

التفسير التحليلي لآيات من سورة الكهف

من الآية (٦١) حتى ختام السُّورة



المقطع الأول

رحلة موسى والخضر

﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا ﴿٦٠﴾ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا ﴿٦١﴾ فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴿٦٢﴾ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا ﴿٦٣﴾ قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا ﴿٦٤﴾ فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ﴿٦٥﴾ قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ﴿٦٦﴾ قال إنك لن تستطيع معي صبرا ﴿٦٧﴾ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ﴿٦٨﴾ قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا ﴿٦٩﴾ قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴿٧٠﴾ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا ﴿٧١﴾ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا ﴿٧٢﴾ قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا ﴿٧٣﴾ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما

فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

[الكهف: ٦٠-٨٣].

تمهيد:

قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، قصةٌ عجيبةٌ تتجاوز بنا حدود الزَّمان وحواجز المكان لتعود بنا إلى زمنِ موسى عليه السلام، بعد أن مكَّن الله تعالى له ونجَّاه من فرعون وجنوده، وقام عليه السلام خطيبًا في بني إسرائيل يُذَكِّرهم بأيَّام الابتلاء، وزمان التمحيص، وأوقات الملاحقة والاضطهاد من قِبَلِ فرعونَ وجنودِهِ، ثم أيام النَّصر والتمكين من عند الله تعالى، فكان لكلامه عليه السلام وقْعًا في النفوس وتأثيرًا على القلوب، حتى قام أحد أصحابه فسأله: يا نبيَّ الله هل هناك من هو أعلم منك؟ أجاب موسى عليه السلام: لا، لكنْ المفاجأةُ تأتي في رسالةٍ إلهيةٍ بصيغة عملية.

روى البخاري في صحيحه بسنده من حديث ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ حَدَّثَنِي أُبَيّ بْنُ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «... **مُوسَى رَسُولُ اللَّهِ ذَكَّرَ النَّاسَ يَوْمًا حَتَّى إِذَا فَاضَتِ الْعُيُونُ،**

وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ وَلَّى، فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ أَيْ رَسُولَ اللَّهِ: هَلْ فِي الأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ؟ قَالَ لا، فَعُتِبَ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلى اللَّهِ...» الحديث[1].

وروى الإمام مسلم في صحيحه بسنده: عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَامَ مُوسَى ﵇ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، قَالَ: فَعَتَبَ اللهِ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: أَنّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: أَيْ رَبِّ كَيْفَ لِي بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُ تَفْقِدُ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ، فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ، وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، فَحَمَلَ مُوسَى ﵇، حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ، فَرَقَدَ مُوسَى ﵇ وَفَتَاهُ، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، حَتّى خَرَجَ مِنَ الْمِكْتَلِ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، قَالَ: وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ جِرْيَةَ الْمَاءِ حَتَّى كَانَ مِثْلَ الطَّاقِ، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَى أَنْ يُخْبِرَهُ، فَلَمّا أَصْبَحَ مُوسَى ﵇ قَالَ لِفَتَاهُ: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، قَالَ: وَلَمْ يَنْصَبْ حَتّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الّذِي أُمِرَ بِهِ، قَالَ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾، قَالَ مُوسَى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا، حَتّى أَتَيَا الصّخْرَةَ فَرَأَى رَجُلاً مُسَجًّى عَلَيْهِ بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمَ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ، قَالَ لَهُ مُوسَى ﵇: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾؟ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾، قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾، قَالَ: نَعَمْ، فَانْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَى يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلّمَاهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب من سورة الكهف: (ح٤٧٧٢).

نَوْلٍ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إلى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إلى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا، ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذَا غُلامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ، فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ، فَقَتَلَهُ، فَقَالَ مُوسَى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾، قَالَ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾؟ قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الأُولَى، قَالَ: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ مَائِلاً، فَقَامَ الْخَضِرُ فَأَقَامَهُ بِيَدِهِ، قَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعِمُونَا، ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا»، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا»، قالَ: «وَجَاءَ عُصْفُورٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، ثُمَّ نَقَرَ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلاَّ مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ»[(١)].

أولاً: المناسبة:

لهذه القصة صلتُها الوثيقة واتِّسَاقُها العجيب مع سِياق السُّورة الكريمة، وبيان ذلك من وجوهٍ:

لـمَّا بين الله ﷻ في الآية السَّابقة أنه تعالى رحيمٌ في مُلكه عادلٌ في حكمه، ومن ذلك إهلاكه للظالمين بعد إمهالهم وإعذارهم قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ

(١) الحديث: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب: ما يُستحب للعالم إذا سُئِل: أيُّ الناس أعلم؟ فيكِلُ العلم إلى الله: (ح١٢٢)، وفي كتاب الأنبياء باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام: (ح٣٢٢٠)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام: (ح٢٣٨٠).

لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الكهف:٥٨]، بيَّن في هذه القصة أمثلةً واقعيةً للرحمة والعدلِ الإلهيّ، ولما جعل الله لهلاك الظالمين موعدًا مُحددًا: فقد جعل الله للقاء موسى مع الخضر موعدًا مؤكَّدًا، فكلّ شيء له وقتٌ وتقديرٌ، وليعلم الدعاةُ والمصلحون أن إمهال الله للظالمين واستدراجهم والمسارعة لهم في الخيرات لحِكَمٍ جليلةٍ، كما تمخّضتْ أفعالُ الخضرِ التي فعلها عن أمرٍ إلهيٍّ عن حِكَمٍ عجيبةٍ.

أما صِلتُها وانتظامُها مع باقي القصص الواردة في السُّورة الكريمة ومحورِها العام: فقد اشتملت سورةُ الكهف على قصص عجيبة تُحلِّق بنا في أجواءِ الفضيلة، بما تُقرّره من قِيَمٍ ومعانٍ ساميةٍ، وتغوصُ في أعماق النفس البشرية لتسْبِرَ لنا أغْوَارَهَا، وتكشفَ شيئًا من مكنوناتها، وتُجلِّي لنا معالمَ العصمة وطرائق النَّجاة من الفتن، وتقدِّم لنا مفاتحَ الثَّبات أمام المِحَن.

فتنٌ كثيرةٌ كم كانت سببًا في هلاكِ أنفُسٍ، وإتلافِ أموالٍ، وضياعِ ثَرَوَاتٍ، والانحراف عن طريق الحقّ إلى دَرَكِ الشَّقاءِ في الدُّنيا والآخرة. جاءت قصة موسى مع الخضر عليهما السلام لتُبيّن لنا قيمة العلم النافع، وهو أقوى الأسلحة وأمضاها أمام مجاهيل الفتن وأعاصير البلاء والمحن.

جاءت لتأخذ بأيدينا وتُوجه عقولنا وأنظارنا نحو العلم الشرعي الذي من أجله خرج موسى عليه السلام يحْدُوهُ العزمُ والإصرارُ على مواصلة السير إلى ذلك العبد الصالح لينهلَ من علمه.

ومن وجوه المناسبات أيضًا: أنه تعالى لـمَّا أشار في هذه السُّورة الكريمةِ إلى زينةِ الدُّنيا ومباهِجِها، جاءت الرحلةُ الميمونةُ: لتمسَّ ثلاثةَ ألوانٍ من ألوانِ الزِّينةِ: زينةُ الـمُلْكِ والسُّلطان، ولكن ما قيمتُهُ إذا كان بيد ملِكٍ غاصبٍ! وزينةُ الولد: ولكن ما مزيَّتُهُ إذا خرج الولد عاقًّا جاحدًا! وزينة المال: فما أزينَهُ إذا كان لعبدٍ صالحٍ! كما في قصة الغلامين اليتيمين.

ثانيًا: المفردات:

﴿لا أبرح﴾: أَيْ لَا أَزَالُ، بَرِحَ: زَالَ، لَا أَبْرَحُ مَا أَنَا عَلَيْهِ بِمَعْنَى أَلْزَمُ الْمَسِيرَ وَالطَّلَبَ، وَلَا أَتْرُكُهُ وَلَا أُفَارِقُهُ حَتَّى أَبْلُغَ.

﴿حُقبًا﴾: السُّنُونُ وَاحِدُهَا حِقْبَةٌ، وَقيل الْحُقُبُ - بِضَمَّتَيْنِ - اسْمُ لِلزَّمَانِ الطَّوِيلِ غَيْرُ مُنْحَصِرٍ

الْمِقْدَارِ، وَجَمْعُهُ أَحْقَابٌ.

﴿سرَبًا﴾: الْمَسْلَكُ الذي يسرب فيه.

﴿نصَبًا﴾: التَّعَبُ وَالْمَشَقَّةُ.

﴿فَارْتَدَّا﴾: رَجَعَا عَلَى أَدْرَاجِهِمَا مِنْ حَيْثُ جَاءَا.

﴿قَصَصًا﴾:أَيْ يَقُصَّانِ الْأَثَرَ قَصَصًا.

﴿وَلا تُرْهِقْنِي﴾: لَا تُغْشِنِي وَتُكَلِّفْنِي مِنْ أَمْرِي، وَهُوَ اتِّبَاعُكَ عُسْرًا أَيْ شَيْئًا صَعْبًا، بَلْ سَهِّلْ عَلَيَّ فِي مُتَابَعَتِكَ بِتَرْكِ الْمُنَاقَشَةِ.

﴿إِمْرًا﴾: الْبَشِعُ مِنَ الْأُمُورِ كَالدَّاهِيَةِ وَالْإِدِّ وَنَحْوِهِ، ويقال: أمر الإمر أي عظم وتفاقم.

﴿نُكْرًا﴾: المنكر وهو أبلغ من الإِمْرِ لأن معه القتل.

﴿زَكِيَّةً﴾: طَاهِرَةً مِنَ الذُّنُوبِ، وَوَصَفَهَا بِهَذَا الْوَصْفِ لِأَنَّهُ لَمْ يَرَهَا أَذْنَبَتْ، قِيلَ أَوْ لِأَنَّهَا صَغِيرَةٌ لَمْ تَبْلُغِ الْحِنْثَ.

﴿لِمَسَاكِينَ﴾: جَمْعُ مِسْكِينٍ، أَنَّ السَّفِينَةَ كَانَتْ لِقَوْمٍ ضُعَفَاءَ يَنْبَغِي أَنْ يُشْفِقَ عَلَيْهِمْ، وَاحْتُجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْمِسْكِينَ هُوَ الَّذِي لَهُ بُلْغَةٌ مِنَ الْعَيْشِ كَالسَّفِينَةِ لِهَؤُلَاءِ، وَأَنَّهُ أَصْلَحُ حَالاً مِنَ الْفَقِيرِ.

﴿يَنْقَضَّ﴾: أَيْ يَسْقُطُ ومنه انْقِضَاضِ الطَّائِرِ، أي سقوطه السريع في الماء، أو على الفريسة، وَوَزْنُهُ انْفَعَلَ نَحْوُ انْجَرَّ.

﴿فَأَقَامَهُ﴾: قام بتدعيمه وإصلاحه حتى لا ينقضّ.

ثالثًا: القراءات:

قوله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ [الكهف:٧١]: قرأ حمزة والكِسائي (لِيَغْرَقَ) بالياء (أَهْلُها) رفعًا، وقرأ الباقون (لتُغْرِق)، بالتاء مرفوعة، والراء مكسورة، (أَهْلَها) نصبًا. قال أبو منصور الأزهري: (مَنْ قَرَأَ (لِيَغْرَقَ أَهْلُها) فالفعل للأهل، وَمَنْ قَرَأَ (لِتُغْرِق أَهْلَها) فإن موسى عليه السلام خاطب الخضر عليه السلام وقال له: "أخرقت السفينة لكي تُغْرِق

أهلَها")[1].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ [الكهف:٧٤]: قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب (زاكِيَةً) بألف، وقرأ الباقون (زَكِيَّةً). قال أبو منصور: "الزاكِيَةُ والزكِيَّةُ واحدة، وهى: النَّفس التي لم تَجْنِ ذنْبًا، ومثله: القاسِية والقسيَّة، ومعنى الزاكيَة: الطَاهرة النامية"[2].

رابعًا: الإعراب:

قوله: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ في محلِّ نصبٍ على البدلِ مِنْ هاء ﴿أنسانِيْه﴾ بدل اشتمال، أي: أَنْساني ذكرَه.

قَوْله: ﴿سَرَبًا﴾ مصدر، وَقيل هُوَ مفعول ثَان لـ (اتخذ).

قوله: ﴿قَصَصًا﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ، أحدُها: أنَّه مصدرٌ في موضعِ الحالِ، أي: قاصِّيْن. الثاني: أنه مصدرٌ منصوبٌ بفعلٍ مِنْ لفظِه مقدَّرٍ، أي: يَقُصَّان قَصَصًا. الثالث: أنه منصوبٌ بـ ﴿فارتَدَّا﴾ لأنه في معنى فَقَصَّا.

قوله: ﴿عِلْمًا﴾: مفعولٌ ثانٍ لـ ﴿عَلَّمْناه﴾، قال أبو البقاء: "ولو كان مصدرًا لكان تعليمًا"، يعني: لأنَّ فعلَه على فَعَّل بالتشديد، وقياسُ مصدرِه التفعيلُ.

قوله: ﴿رُشْدًا﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ ﴿تُعَلِّمَني﴾، تَقْدِيره على أَن تُعلِّمني أمرًا ذَا رشد، أو مفعول لأجله، أي من أجل الرشد.

قوله: ﴿خُبْرًا﴾: فيه وجهان، أحدُهما: أنه تمييزٌ لقولِه ﴿تُحِطْ﴾ وهو منقولٌ مِنَ الفاعليةِ، إذ الأصل: مما لم يُحِطْ به خَبَرُك. والثاني: أنه مصدرٌ لمعنى لم تُحِط، إذ هو في قوة: لم يُخْبِرْه خُبْرًا. وقيل:﴿خُبْرًا﴾ مفعول مطلق لـ ﴿تُحِطْ﴾ في المعنى لأن لم تحط بمعنى لم تخبر.

---

(١) أبو منصور الأزهري مُحمد بن أحمد (ت: ٣٧٠هـ)، معاني القراءات، الناشر: مركز البحوث،كلية الآداب- جامعة الملك سعود، السعودية، ط. أولى (١٤١٢هـ): (٢/١١٥).

(٢) أبو منصور الأزهري، معاني القراءات: (٢/١١٥).

قوله: ﴿لِتُغْرِقَ﴾: في اللام وجهان، أحدُهما: هي لامُ العلة. والثاني: هي لامُ الصَّيْرورة، والصواب أنها لام الصيرورة أي العاقبة؛ لأن خرْقَها ليس لإغراق أهلها، وإنما لحماية السفينة من الملك الغاصِب.

قوله: ﴿عُسْرًا﴾: مفعولٌ ثانٍ لـ ﴿تُرْهِقْنِي﴾ مِنْ أَرْهَقَه كذا إذا حَمَّله إياه وغشَّاه به.

قوله: ﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ مفعولٌ به لقولِه: ﴿فأبَوْا﴾. والعامَّة على التشديد مِنْ ضَيَّفَه يُضَيِّفه. والحسن وأبو رجاء وأبو رزين بالتخفيف مِنْ: أضافَه يُضيفه، وهما مثل: مَيَّله وأماله.

قوله: ﴿فِرَاقُ بَيْنِي﴾: البيْن بمعنى الوَصْلِ. أي فراق وصلي ووصلك. ﴿فِرَاقُ﴾ مضاف، و﴿بيني﴾ مضاف إليه.

﴿زكاة، رُحْمًا﴾: منصوبان على التمييز.

قوله: ﴿رَحْمَةً﴾: فيه ثلاثةُ أوجهٍ، أوضحُها: أنَّه مفعولٌ له. الثاني: أَنْ يكونَ في موضعِ الحالِ من الفاعل، أي: أراد ذلك راحمًا، وهي حالٌ لازمةٌ. الثالث: أَنْ ينتصِبَ انتصابَ المصدرِ لأنَّ معنى ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ﴾ معنى (فَرَحِمَهما).[1]

خامسًا: التفسير الإجمالي:

بداية الرحلة:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف: ٦٠]

تذكيرٌ لكلّ سامعٍ وتالٍ بهذه الرحلة العجيبة وتلك الصُّحبةِ المباركة التي جمعت بين نبي الله موسى عليه السلام وبين فتاه الذي قيل إنه يوشع بن نون، وإنما سُمي فتى: "لأنه كان يخدمه ويتبعه ويأخذ منه"[2]،

(١) نقلاً مختصرًا عن السمين الحلبي، الدُّر المصون في علوم الكتاب المكنون: (٥٢٣/٧: ٧٤٠).،ومكي بن أبي طالب حَمّوش بن مُحمد بن مختار القيسي القيرواني الأندلسي القرطبي المالكي (ت: ٤٣٧هـ)، مُشْكل إعراب القرآن، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، ط. مؤسسة الرسالة – بيروت، ط.٢ (١٤٠٥هـ): (٤٤٥/١).

(٢) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: (١٩/٣).

يقول له موسى عليه السلام: "سأسير سيرًا طويلاً، وأمضي زمانًا مديدًا، إلى أن أصل إلى مجمع البحرين".

وهذا إصرارٌ من نبي الله موسى عليه السلام على مواصلةِ الرّحلة، مهما كلّفه ذلك من مشقةٍ وعناءٍ، ومهما أمضى من وقتٍ في سبيل هذا المقصد السَّامي، وفي هذا ما يدل على صدق عزيمتِه وشدَّةِ حرصه على طلب العلم النافع والاستزادة منه، وصحبة أهله، والمثابرة في تحصيله.

اللقاء الموعود:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الكهف: ٦١-٦٣].

فلما أنْ وصلا إلى مكان الملتقى، نَسِيا الحوت الذي كان في المِكتل مملحًا، فقفز إلى البحر، حتى جاوزا هذا المكان وبلغ بهما التعب والجوع مبلغًا، فطلب موسى عليه السلام من فتاه أن يُقدِّم الغداء، فتذكر الفتى أنه نسي أن يخبر موسى عليه السلام بما حدث للحوت الذي شقَّ طريقه للبحر، فأدرك موسى عليه السلام أنه المكان المقصود للقاء فعادا إليه، مُتتبعين آثار أقدامهما، وقد اخْتُلِفَ في البحرينِ: ما هما؟ وأين ملتقاهما، أو مجمعهما؟ والله أعلم بهما، ولعلَّهما خليج السّويس وخليج العقبة، حيث يلتقيان عند رأس شبه جزيرة سيناء، طرفها الجنوبي، حيث يتفرع عندها البحر الأحمر إلى فرعين يذهبان شمالاً ويحصران بينهما شبه جزيرة سيناء.. فحيث كان افتراقهما يكون اجتماعهما.. أي هو مجمعهما، وهو مجمع البحرين. والله أعلم، ويُقوي هذا الرأي، أنّ تحرُّك موسى عليه السلام بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر لم يجاوز شبه جزيرة سيناء، حيث ضُرِبَ فيها التّيه على بني إسرائيل أربعين سنة. والله أعلم.

فلمَّا وصل موسى وفتاه إلى مجمع البحرين حيث يلتقي بالخضر عليه السلام نسيا حوتهما.

ومثارُ التعجب: أن يحيا حوتٌ مُمَلَّحٌ، ثم يثِبُ إلى البحر، ويبقى أثرُ جَرْيَتِه في الماء لا يمحو أثرها جريان ماء البحر!

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٤-٦٦].

أدرك موسى عليه السلام أن موضع نسيان الحوت هو الموعد المكاني للقاء الذي وصفه الله سبحانه فقال: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ وصفه تعالى بأنه عبدٌ من عباده؛ والعبُودية أسمى المقامات وأشرف الغايات التي من أجلها خُلِقَ الإنسان، وفي هذا ما يدل على ما كان عليه الخضر عليه السلام من اجتهادٍ في العبادةِ، وهذه صفةٌ أساسية من صفات أهل العلم ورجال الدعوة والإصلاح، وفي وصفه عليه السلام بأنه عبدٌ من عباد الله: ردٌّ على كلّ من غالى في شأن الخضر، حتى توهم بعض الغُلاة أن الخضر لا يزال على قيد الحياة وأنه يظهر لبعض الناس فيُرشدهم ويوجههم! وهذا كلام لا يشهد له نقل صحيحٌ، ولا يصدِّقُه عقلٌ راجح.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ الرحمة: قيل هي النبوّة، وقيل: النعمة التي أنعم الله بها عليه، وهو ما خصَّه الله تعالى بعلمه ومعرفته، وفي الآية تفخيم لشأن ذلك العلم، وتعظيمٌ له وبيانٌ لخصوصيته واختصاصه عليه السلام به.

فلما التقى موسى بالخضر وتعارفا طلب موسى عليه السلام من الخضر أن يتبعه حتى يقْتَبِس من علمه، ويسترشد منه ما ينفعه في دينه ودنياه، إذ الغايةُ من تحصيل العلم هو الانتفاع به والْتِماس الرُّشد منه.

فترفَّق موسى عليه السلام في طلبه وتواضع في سبيل تحصيل العلم، "وفي هذا العرض أمور:

- استئذانٌ مصحوبٌ برجاء وتلطف.
- أن يكون موسى عليه السلام تابعًا يقْفُو أثَرَ متبوعه، ويمشي في ظلّه.
- أن تكون غاية هذه الصحبة، وتلك المتابعة، تحصيل العلم والمعرفة، فيفيد موسى عليه السلام علمًا وينال العبد الصالح أجرًا.

- هذا العلم الذي عند العبد الصالح ليس من ذات نفسه، بل هو علمٌ عَلِمَهُ، وإذن فهو مطالب بأن يُعلِّم كما عُلِّم..
- هذا العلم المطلوب تعلُّمه، هو مما يكمُلُ به الإنسانُ ويرشُد.. فهو علمٌ يهدي إلى الحق، وإلى الرشاد، لا إلى الضلال والفساد"[١].

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الكهف:٦٧-٦٨].

بيَّن له الخضرُ أن الرحلةَ معه ومتابعتَهُ تحتاجُ إلى صبرٍ وأناةٍ، ففيها من المفاجآتِ والعجائبِ ما قد يخرُجُ عن حدِّ الصبر، فقدَّم له العذرَ لما سيلقاهُ من عجائبَ وغرائب، متسائلاً كيف تصبر على علمٍ ظاهره منكر، وأنت لا تعلم! ومثلك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكر والإقرار عليه. قال الخطيب الشربيني: "وكيف تصبر على أمور - وأنت نبيٌّ - ظاهرها مناكير، والرجل الصَّالح لا يتمالك أن يصبر إذا رأى ذلك، بل يُبادر ويأخذ في الإنكار"[٢].

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الكهف:٦٩-٧٠].

أصرَّ موسى عليه السلام على متابعته مستعينًا بالله تعالى، ومؤملاً أن يُلهمه الصَّبر والثَّبات؛ فاشترط عليه الخضر قائلاً: "إذا رأيت مني شيئًا تُنكرُهُ فلا تُفاتحني بالسُّؤال حتى أكون أنا الفاتح عليك".

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: (٤/٦٥٢).

(٢) الخطيب الشربيني، شمس الدين محمد بن أحمد الشافعي (ت: ٩٧٧هـ)، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، مطبعة بولاق (الأميرية) القاهرة، (١٢٨٥هـ): (٢/٤٢٩).

الجولة الأولى: خرق السفينة

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣ ﴾ [الكهف: ٧١-٧٣].

فبدأت الرحلة، بانطلاقهما على ساحل البحر حتى وصلا للسفينة، وهنا قام الخضر بقلع لوحٍ فيها، مما أثار عجب موسى عليه السلام من هذا الفعل الخطير، وفي الحديث «... **فَانْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَى يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمَاهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إلى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إلى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا!** ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣ ﴾ **ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ...**"[(١)]. فأنكر موسى عليه السلام على الخضر خرْقَه للسفينة لما يترتب على ذلك من غرق أهلها، وظنَّ أن هذا من مقابلة إحسانهم بالإساءة، ثم حكم على هذا الفعل بأنه أمر عظيم منكر: لقد أتيت أمرًا عظيمًا وارتكبت جرمًا كبيرًا! فعاتبه الخضر عليه السلام وذكَّرَه بما اشترطه عليه عند أوّل لقاء أنه لن يتذرع بالصبر، فاعتذر له موسى عليه السلام بأن لا يُؤَاخذه على النِّسيان، ولا يحمِّله ما لا يطيق.

---

(١) سبق تخريجه.

الجولة الثانية: قتل الغلام

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الكهف: ٧٤-٧٦].

فانطلقا بعد أن غادرا السفينة حتى لقيا غلامًا يلعبُ مع أقرانه فأخذه الخضر عليه السلام من بينهم وقتله، وهنا غضِب موسى عليه السلام أشدَّ الغضب، وحزِن على موت هذا الغلام، فقال منكرًا على الخضر: "كيف تقتل نفسًا طاهرة بريئة بغير حقٍّ، لقد جئت شيئًا منكرًا فظيعًا!" فلم يستطع موسى عليه السلام أن يصبر على الرغم من تذكُّرِه لوعده، فذكَّره الخضر بسؤالٍ يحمِلُ رُوح المعاتبة (ألم أخبرك أنك لن تتذرع بالصبر لما تراه معي!) فبادر موسى عليه السلام بالاعتذار فقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا﴾ أي: بعد هذه المرة، ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ أي: لا تجعلني صاحبًا لك، "نهاه عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره، ولذا قال: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ يُريد أنك قد أعذرت حيث خالفتك، وهذا كلامُ نادمٌ شديد النَّدامة، اضطره الحال إلى الاعتراف، وسلوك سبيل الإنصاف".[١]

(١) الشوكاني، فتح القدير: (٣/٤٣٢).

الجولة الثالثة: إقامة الجدار

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف: ٧٧-٧٨].

فانطلقا حتى أتيا أهل هذه القرية، وقد استبدَّ بهما الجوعُ فاضطُرَّا إلى استطعامِ أهلِها، فإذا هُمْ أشحةٌ لئامٌ، أبوا أن يضيفوهما، مع ما عندهم من سَعةٍ، وهنا ينصرفُ الخضر إلى أداء مهمة عاجلة، إقامة جدارٍ قبل انقضاضه، فيتعجّب موسى من صنيعه، ويقول له: "لو شئت لطلبت أجرًا على هذا العمل!" فيُجيبه الخضر بقوله: "هذا أوان فِرَاقُ وصلِنا، ولكنني سأخبرك بحقائق الأمور ومقاصد الأفعال التي تعجبت منها وأنكرتها، دون أن تصبر؛ إذ لا بدَّ من المكاشفة".

تأويل الأفعال

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف٧٩-٨٢].

السفينة:

كشف له الخضرُ عن الحكمة من هذه الأفعال التي أنكرها عليه: فبدأ بالسفينة، مبيّنًا أنها كانت مِلْكًا لمساكين يعملون في البحر، لا يكادُ دخلُها يُوفِّي بنفقاتهم، ومع ذلك كانت كغيرها من السفن

مَطْمَعًا لملكٍ غاصبٍ، يستولي ببطشه وطغيانه على كلّ سفينةٍ صالحة ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ خلفهم وفي إثرهم، ﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ أي كلّ سفينة صالحة، ولا قدرة لهم على تخليصها لو أخذها، فخَرَقتُها وعِبْتُها حتى لا يأخذها الملك الغاصب، فإذا مرَّ بها تركها لعيبها، فإذا جاوزوا أصلحوها وانتفعوا بها.

الغلام:

﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ۝٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ۝٨١﴾ [الكهف:٨٠-٨١].

وأما الغلام الذي بادَرَ لقتله: فلقد كان لأبوين صالحين، وكان في بقائه وقد طُبِع على الكفر إرهاقٌ وإحراجٌ لهما، فأردنا رحمةً بهما وإشفاقًا عليهما، أن يعوّضَهُما ربهما بإحسانه ولطفه خيرًا منه دينًا وعملاً وصلاحًا، وأوصلَ رُحمًا وأبرَّ بهما. روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِرًا، وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا**»[(١)].

الجدار:

﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ۝٨٢﴾ [الكهف:٨٢].

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في تلك المدينة وكان أبوهما صالحًا، فنفعهما الله بصلاحه وقيَّض لهما الخضرَ ليقيم الجدارَ حمايةً للكنز، حتى إذا بلغا أشدهما استخرجاه.

﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾: أي نعمة من ربك ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ أي:"باختياري ورأيي بل فعلته

(١) صحيح مسلم كتاب البرِّ والصلة والآداب، باب: كلّ مولودٍ يُولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، (ح١٧٢): (ح٢٣٨٠).

بأمر الله وإلهامه إياي، لأن تنقيص أموال الناس، وإراقة دمائهم، وتغيير أصولهم، لا يكون إلا بأمر من الله تعالى"[(١)].

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾: أي وما فعلت ما رأيت من خَرْقِ السّفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار عن اجتهاد مني ورأي، وإنما فعلته بأمر الله، وهذا يدل على أنه نبيٌّ أُوحِيَ إليه. ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ تفسيرُ وبيان ما لم تُطِق أن تصبرَ عليه.

قال ابن عطية: "والخضر نبيٌّ عند الجمهور، وقيل هو عبدٌ صالح غير نبي، والآية تشهد بنبوته، لأن بَوَاطِنَ أفعاله ما كانت إلا بوحي من الله"[(٢)]. وقال أبو حيان: "والجمهور على أن الخضر نبي، وكان علمه معرفة بواطنٍ قد أُوحيَت إليه، وعِلْمُ موسى الأحكام والفُتيا بالظاهر"[(٣)].

الهدايات المستنبطة من القصة

- السَّفر في طلب العلم وعلوّ الهمة وقوّة العزم في طلبه، والصبر على المشَّقة والعناء ومُكابدة الصِّعاب التي تعترض طالب العلم.
- يُستحب للمسافر أن يطلب الرَّفيق قبل الطريق، وشرْطُ الرَّفيقين أن يكون أحدهما أميرًا، والثاني مأمورًا له ومتابعًا، ومنها أن يُعلِم الرَّفيقَ عزيمته ومقصده، ويُخبره عن مدة مُكثه في سفره، ليكون الرفيق واقفًا على أحواله، فإن كان موافقًا له؛ يرافقه في ذلك.
- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦]: "فيه دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُتَعَلِّمَ تَبَعٌ لِلْعَالِمِ، وَلَوْ تَفَاوَتَتْ الْمَرَاتِبُ"[(٤)]، وليس في ذلك ما يدل على أن الخضر أفضل من موسى، فقد يأخذ الفاضل عن المفضول، وقد يختص أحدهما بعلم لا يعلمه

---

(١) الخازن، لُباب التأويل في معاني التنزيل: (٣٢٨/٤).

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز: (٥٢٩/٣) بتصرف.

(٣) أبو حيان، البحر المحيط: (١٤٧/٦).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (١٧/١١)، الشوكاني، فتح القدير: (٣٥٤/٣).

الآخر، وفيه الحاجة إلى التخصص الدقيق في العلم، والرجوع إلى أهل التخصص.

- العلم بحرٌ لا ساحل له، تأمَّل في حوار موسى مع الخضر حين لقيه: «... حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ فَرَأَى رَجُلاً مُسَجًّى عَلَيْهِ بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ...»[1].
- ومن فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعلمه ولا يتعجّل في إنكار ما لم يستحسنه فلعلَّه ينطوي على حكمةٍ لا يعرفها.
- تعلمُ العلمِ عبادةٌ وقربةٌ، وهو ليس غايةً في ذاتِهِ بل الغرضُ الانتفاعُ به في أمورِ الدينِ والدُّنيا، ولهذا قال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، أي أسترشد به وأتزوّد منه لدنياي وآخرتي.
- ومما يُستفاد من القصة: أن العلم نوعان: علم مُكتسب يُدركه العبد بجدِّه واجتهاده، وعلم لدني، يهبه الله لمن يمنّ عليه من عباده لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾. قال ابن القيم: "العلم اللدني: ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقِّي العلم من مِشْكَاةِ رسوله ﷺ، وكمال الانقياد له، فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد سُئل: هل خصّكم رسول الله بشيء دون الناس؟ فقال: "لا والذي فلق الحبة وبرأَ النَّسمة إلا فهمًا يُؤتيه الله عبدًا في كتابه"؛ فهذا هو العلم اللدنِّي الحقيقي"[2].
- وقال أبو حيان رحمه الله: "وفي قول الخضر لموسى: من أنتَ؟ وقد علَّمه الله بواطن الأشياء ومآلها؛ دليلٌ على كذب هؤلاء المُنتمين للتصوف المدَّعين علم الغيب والكشف عن أحوال الناس، أعاذنا الله من ذلك"[3].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين: (٢/٤٧٦).

(٣) أبو حيان، النهر الماد من البحر على هامش البحر المحيط: (٦/١٤٢).

- ورد في القصة مؤهّلات المعلم والمربي والمصلح، وهي: العبودية، الرحمة، العلم الإخلاص، النصح، البذل، الإحسان، فلا بد أن يكون مجتهدًا في العبادة، وأن يتحلّى بمكارم الأخلاق والتي تمثِّلُ الرحمةُ لبابَها وأساسها.
- في تقديم الرحمة على العلم: ما يدل على أهميتها للعالم والمتعلم، فلا يُعقل انتزاع الرحمة من قلوب أهل العلم، ولقد رأينا ما ترتب على وصول العلم لمن عُدِمُوا الرحمة كيف أساءوا إلى العلم وأساءوا إلى من حولهم، بل كيف أساءوا إلى البشرية حين وجهوا العلم لما يُهدد خطرَ الإنسانية، وأفسدوا بمخترعاتهم البر والبحر، ولوَّثوا الأجواءَ والأجوافَ، كذلك رأينا كيف عَدِمَ بعض المعلمين الرحمة حتى غدا التعليمُ تجارةً رابحةً لا رسالةً ساميةً، وصار التعنتُ شعارَهم ودثارَهم، وقد يتعامل مع تلميذه الصغير بقسوة، كذلك انتُزعت الرحمة من قلوب بعضِ طلاب العلم، فأساءوا إلى معلميهم، ولربما تطاولوا عليهم!
- تحلّي طالب العلم بالصبر والأناة، وتأدُّبه مع شيخه، وترفّقه عند السؤال.
- ومنها: أن يمتحن الشيخ من جاء للطلب على يديه، لمعرفة مدى استعداد الطالب ومدى حرصه وهمَّتِهِ في طلب العلم، وبيان ما يحتاجه طريق العلم من جِدٍّ، واجتهاد، وبذل، وعطاء، قال صاحب روح البيان: "يمتحنه بأن يُخبره عن دِقّةِ صراطِ الطلبِ وعزةِ المطلوبِ وعُسرته، وفى ذلك يكون له مبشِّرا ولا يكون منفّرًا، فإن وجده صادقًا في دعواه وراغبًا فيما يهواه مُعرضًا عما سواه يتقبله بقبول حسن، ويكرم مثواه، ويُقبل عليه إقبال مولاه، ويُربيه تربية الأولاَد ويُؤدبه بآداب العباد"[(١)].
- وفيه التماس العذر للآخرين ومراعاة تفاوت الناس في الفهم والإدراك والتحصيل والاستيعاب، تأمل في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ فالتَمَسَ له العذر في ذلك؛ لما سيلقاه من عجائب وغرائب.

---

(١) البروسوي، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي، (ت: ١١٢٧هـ) روح البيان، دار الفكر بيروت: (٥/٢٣٥).

- ومنها الإشارة إلى جملةٍ من مناقب نبي الله موسى عليه السلام، ومنها الصدق، وعلو الهمة، والمثابرة، وحسن الصحبة، والتواضع، واللِّين، والحياء، والإيجابية، والصبر.
- ينبغي على الدعاة والمصلحين أن ينطلقوا بدعوتهم إلى أعماق المجتمع؛ لدراسة الواقع والتعامل معه، ومعايشة هموم الناس، وتفقد أحوالهم، وأن يلتمسوا العبرة من هذه الرحلة العملية رحلة موسى والخضر وفصولها الثلاث.
- وفيها: "دليل على أن المسكين وإن كان يملك شيئًا لا يزول عنه وصف المسْكَنة إذا لم يقُم ما يملكه بكفايته..."[(١)]، فعلى الأغنياء وبيوت الزكاة والمؤسسات الخيرية أن لا تَغْفَل عن هذا الصِّنف من الناس الذين لا يستطيعون بدخلهم المحدود أن يُلبّوا احتياجات بيوتهم، في ظلِّ هذه الأوضاع الاقتصادية المتردية، والغلاء الفاحش الذي تُعاني منه معظمُ الشعوب المسلمة، حيث تتسع الهوَّة بين الأغنياء والفقراء، وينخفض فيها دخل الفرد مع زيادة معدلات التضخم.
- ومنها: الرضا بقضاء الله تعالى والصبر عند فقد الولد، وتفويض الأمر لله؛ فهذا الغلام الذي قتله الخضر لو عاش لذاق والداه الأمرَّين، ولقيا العنت، فكان موتُه راحةً لهما ورحمةً بهما، فليرض العبد بقضاء الله تعالى؛ فإن قضاء الله سبحانه وتعالى للمؤمن فيما يكره خيرٌ له من قضائه فيما يُحب.
- ومنها: أن النَّاسي غير مؤاخذ بنسيانه، لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.
- ومنها: أن الأمور تجري أحكامُها على ظاهِرِها، وتعلق بها الأحكامُ الدنيوية في الأموال والدماء وغيرها؛ فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرْقَه السفينة وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعُه السكوت عنها في غير هذه الحال التي

---

(١) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: (٤/٣٢٧).

صحب عليها الخضر، فاستعجل ﷺ وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذي يُوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار.

- ومنها: أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أنه يجوز ولو بلا إذن، حتى ولو ترتب على عمله إتلافُ بعض مال الغير، كما خرق الخضر السفينة لتَعِيب؛ فتسلم من غصب الملك الظالم، فعلى هذا لو وقع حرق أو غرق أو نحوهما في دار إنسان أو ماله وكان إتلاف بعض المال أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي؛ جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظًا لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال افتداءً للباقي؛ جاز، ولو من غير إذن[(١)].
- التأدب مع الله تعالى ورعاية حقوقه ومراعاة مقامه تعالى؛ يتجلى ذلك في قول الخضر عند تأويل خرق السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ بإسناد العيب إلى نفسه أما قوله: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، فقال: (فَأَرَدْنَآ) لأن الكفر مما يجب أن يخشاه كلّ أحد، وقال في تأويل الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بالإسناد إلى الله تعالى وحده؛ لأن بلوغ الأشُدِّ وتكامل السِّن ليس إلا بمحض إرادة الله تعالى من غير مَدْخَلٍ وأثر لإرادة العبد.
- ومن العبَرِ والعظات المستمدَّةِ من القصة: أنه من كمال تدبيره تعالى وحكمته وتمام لُطفه ورحمته أن قيَّض نبيَّيّن مثل موسى والخضر - عليهما السلام - في مصلحة يتيمين؛ فعلى العلماء والدعاة أن لا يضنُّوا بأوقاتهم في رعاية الأيتام وقضاء حوائجهم وتربيتهم.
- وفي هذا إشارة إلى ضرورة عناية العلماء وهم ورثة الأنبياء بكفالة الأيتام، والحمد لله تُقام في طول بلاد المسلمين وعرضها جهودٌ طيبةٌ لكفالة الأيتام.
- ومنها أن الله تعالى يحفظ المال الصالح للعبد الصالح إذا كان فيه صلاح له ولذريته الصالحة

---

(١) يراجع: السعدي، تيسير الكريم الرحمن: (ص:٤٨٥).

من بعده، قال مُحمد بن المنكدِر: "إن الله سبحانه وتعالى يحفظ بصلاح العبد؛ ولده، وولد ولده، وعشيرته، وأهل دويرات حوله"[(١)].

- إذا رأى المسلم منكرًا فيجب عليه أن يُسارع إلى إنكاره أيًّا كان فاعله، مع التزام الأدب والترفق بالفاعل؛ لاحتمالِ أن يكون للمسألة وجهٌ؛ إذ لا إنكار في مسائل الخلاف.
- أنكر موسى عليه السلام على الخضر خرقه للسفينة، لأنه لم يعلم الحكمة من ذلك، فالخضر يفعل ذلك على سبيل الإصلاح ودفع الظُّلم، فنظرة موسى عليه السلام أن السعي في إغراق رُكَّاب سفينة من الإفساد، فأين هذا ممن ينتسبون إليه من اليهود الصهاينة الذين هم من وراء كلّ إرهاب وتخريب، فما الأعمال الإرهابية العدوانية التي تمس الحافلات والطائرات، وتقتل المسالمين، وتُروّع الآمنين، إلا من حصاد مخططاتهم وبغيهم، وتآمرهم على الإنسانية.
- قال أبو حيان: وفي كتاب التحرير والتحبير ما نصه: "تعلُّق بعض الجهَّال بما جرى لموسى مع الخضر عليهما السلام على أن الخضر أفضل من موسى وطردوا الحكم، وقالوا: "قد يكون بعض الأولياء أفضل من آحاد الأنبياء، واستدلوا أيضًا بقول أبي يزيد: "خضت بحرًا وقف الأنبياء على ساحله"، وهذا كلّه من ثمرات الرّعُونة والظِّنة بالنفس" انتهى. وهكذا سمعنا من يحكي هذه المقالة عن بعض الضالين المضلين، وهو ابن العربي الطائي الحاتمي صاحب "الفتوح المكيّة"، فكان ينبغي أن يُسمى بـ "القُبوح الهلكيّة"، وأنه كان يزعم أن الولي خيرٌ من النبيّ، قال: "لأن الولي يأخذ عن الله بغير واسطة، والنبيّ يأخذ بواسطة عن الله، ولأن الولي قاعدٌ في الحضرة الإلهية، والنبيّ مرسل إلى قوم، ومن كان في الحضرة أفضل ممن يرسله صاحب الحضرة..." إلى أشياء من هذه الكفريات والزندقة، وقد كثر مُعظِّموا هذا الرجل في هذا الزمان من غلاة الزنادقة القائلة بالوحدة، نسأل الله السلام في أدياننا وأبداننا"[(٢)].

---

(١) معالم التنزيل للبغوي: (١/١٩٥).

(٢) أبو حيان، البحر المحيط: (٦/١٥٣)، وطردوا الحكم: عمموه، وقاسوا عليه كون الولي قد يكون أفضل من النبي.

اللطائف البلاغية:

- الإيجاز بالقصر والحذف: قال ابن عاشور: "وَحَذْفُ ذِكْرِ الْغَرَضِ الَّذِي سَارَ لِأَجْلِهِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لِأَنَّهُ سَيُذْكَرُ بَعْدُ، وَهُوَ حَذْفُ إِيجَازٍ وَتَشْوِيقٍ، لَهُ مَوْقِعٌ عَظِيمٌ فِي حِكَايَةِ الْقِصَّةِ، لِإِخْرَاجِهَا عَنْ مَطْرُوقِ الْقِصَصِ إلى أُسْلُوبِ بَدِيعِ الْحِكَمِ وَالْأَمْثَالِ قَضَاءً لِحَقِّ بَلَاغَةِ الْإِعْجَازِ".[(١)]
- والحكمة من اختلاف التعبير عن نفس الحادثة حيث قال مرة: ﴿سَرَبًا﴾ وقال مرة أخرى: ﴿عَجَبًا﴾: الجواب في حديث رسول الله ﷺ، حيث قال: «فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا»[(٢)]. فَسِرُّ اختلاف التعبير، أنه في المرة الأولى كان ينظر للحادثة من زاوية الحوت، ويلحظُ حركة الحوت في البحر، فقال: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾، أما في المرة الثانية فكان ينظر للحادثة من زاوية موسى عليه السلام وفتاه، ويلحظُ أَثَرَ حركة الحوت على نفسية وشعور موسى عليه السلام وفتاه، ولاشكَّ أنهما عجبا من حركة الحوت، ولذلك قال: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾.
- "ونُشير هنا إلى أن العجب الذي أثارتْهُ حركةُ الحوتِ وبَعثهُ، ليس مبعثُه الإنكار والاستغراب، لأن موسى عليه السلام وفتاه، يؤمنان بقدرة الله على البعث وصنع المعجزات، وإنما مبعثه هو دهشة المفاجأة، والانفعال بها"[(٣)].
- وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: "فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قِيلَ ﴿خَرَقَهَا﴾ بغير فاء و﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ بِالْفَاءِ؟ قُلْتُ: جُعِلَ خَرَقَهَا جَزَاءً لِلشَّرْطِ، وَجُعِلَ قَتَلَهُ مِنْ جُمْلَةِ الشَّرْطِ مَعْطُوفًا عَلَيْهِ وَالْجَزَاءُ قَالَ أَقَتَلْتَ: فَإِنْ قُلْتَ:

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٥/٣٦١)

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مع قصص السابقين في القرآن الكريم: (٢/٢٠٤)، "دروس في الإيمان والدعوة والجهاد"، صلاح عبد الفتاح الخالدي.

فَلِمَ خُولِفَ بَيْنَهُمَا؟ قُلْتُ: لِأَنَّ خَرْقَ السَّفِينَةِ لَمْ يَتَعَقَّبِ الرُّكُوبَ وَقَدْ تَعَقَّبَ الْقَتْلُ لِقَاءَ الْغُلَامِ انْتَهَى"[1].

- قال ابن عثيمين: "واللام في قوله: (لِتُغْرِقَ) ليست للتعليل ولكنها للعاقبة، يعني أنك إذا خرقتها غرق أهلها، وإلا لا شكَّ أن موسى ﷺ لا يدري ما غرض الخضر، ولا شك أيضًا أنه يدري أنه لا يُريد أن يُغرق أهلها، لأنه لو أراد أن يُغرق أهلها لكان أوّل من يغرق هو وموسى، لكن اللام هنا للعاقبة،كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ۝٨﴾ [القصص:٨][2].
- وفي قوله لتُغرق أهلها ولم يقل لتُغرقنا مع سُموِّ مقامه ﷺ يدل على مدى حرصه على سلامة غيره، وهذا من أخلاق الأنبياء الذين جادوا بمهجهم في سبيل الإصلاح والتزكية.
- ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أي: فظيعًا منكرًا لا يُعرف في الشرع، قيل: معناه: أنْكَر من الأمر الأوّل؛ لكون القتل لا يمكن تداركه، بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه بإرجاعه، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٧٥﴾ [الكهف:٧٥]، زاد هنا لفظ "لك"، لأن سبب العتاب أشدّ، ومُوجبه أقوى، فزاد لفظ "لك"؛ لقصد التأكيد كما تقول لمن تُوبّخُهُ: "لك أقول وإياك أعني"، ولأنه سبق له أن قال له ذلك، فجيء بذلك للزيادة في العِتَاب على ترك الوصيّة مرة بعد مرة،كما لو أتى الإنسان ما نهيتهُ عنه فلُمته وعنَّفته، ثم أتى ذلك مرة ثانية؛ فإنك تزيد في لومه وتعنيفه؟
- قال أبو حيان: "وَتَكَرَّرَ لَفْظُ أَهْلَ عَلَى سَبِيلِ التَّوْكِيدِ، وَقَدْ يَظْهَرُ لَهُ فَائِدَةٌ عَنِ التَّوْكِيدِ وَهُوَ أَنَّهُمَا حين أتيا أهل القرية لَمْ يَأْتِيَا جَمِيعَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ إِنَّمَا أَتَيَا بَعْضَهُمْ، فَلَمَّا قَالَ اسْتَطْعَما احْتَمَلَ أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَطْعِمَا إِلَّا ذَلِكَ الْبَعْضَ الَّذِي أَتَيَاهُ فَجِيءَ بِلَفْظِ أَهْلِهَا لِيَعُمَّ جَمِيعَهُمْ وَأَنَّهُمْ يُتْبِعُونَهُمْ وَاحِدًا

---

(١) الزمخشري، الكشاف: (٢/٧٣٦)، وأبو حيان، البحر المحيط في التفسير: (٧/٢٠٨).

(٢) مُحمد صالح العثيمين، تفسير سورة الكهف: (ص١١٦)

وَاحِدًا بِالِاسْتِطْعَامِ، وَلَوْ كَانَ التركيب استطعماهم لَكَانَ عَائِدًا عَلَى الْبَعْضِ الْمَأْتِيِّ".[1] قلت: "ولا يخفى ما في التعبير القرآني من الفصاحة والبيان، بخلاف ما لو قيل استطعماهم ففيها من الثُّقل ما فيها".

- قال الألوسي: "ولا يخفى ما في التعبير بالإباء من الإشارة إلى مزيد لُؤم القوم، لأنه كما قال الراغب شدة الامتناع؛ ولهذا لم يقل: فلم يضيفوهما مع أنه أَخْصَر فإنه دون ما في النظم الجليل في الدلالة على ذمِّهم".[2]
- وإنما عبر باستطعما دون استضافا؛ للإشارة إلى أن جُلَّ قصدهما الطعام دون الميل بهما إلى منزل وإيوائهما إلى محلّ، وذكر بعضهم أن في ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ من التشنيع ما ليس في أبوا أن يُطعموهما؛ لأن الكريم قد يردّ السائل المستطعم ولا يُعاب، كما إذا ردَّ غريبًا استضافه بل لا يكاد يرد الضيف إلا لئيم، ومن أعظم هجاء العرب: (فُلان يطرد الضيف)، وعن قتادة: "شرُّ القُرى التي لا يضاف فيها الضيف، ولا يُعرف لابن السبيل حقه".[3]
- التعبير البليغ في ﴿فَوَجَدا فِيها جِدارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ كأن للجدار إرادة، وهذا كناية عن مُشارفته للانقضاض، وحاجته إلى معالجة عاجلة حتى لا ينحسر عن الكنز، فيستولي عليه اللئام[4]، فاستُعيرت الإرادة للمُشارفة؛ للدلالة على المبالغة في ذلك. قال أبو حيان: "وَإِسْنَادُ الْإِرَادَةِ إلى الْجِدَارِ مِنَ الْمَجَازِ الْبَلِيغِ وَالِاسْتِعَارَةِ الْبَارِعَةِ، وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي كلامِ الْعَرَبِ إِسْنَادُ أَشْيَاءَ تَكُونُ مِنْ أَفْعَالِ الْعُقَلَاءِ إلى مَا لَا يَعْقِلُ مِنَ الْحَيَوَانِ وَإِلَى الْجَمَادِ، أَوِ الْحَيَوَانِ الَّذِي لَا يَعْقِلُ مَكَانَ الْعَاقِلِ لَكَانَ صَادِرًا مِنْهُ ذَلِكَ الْفِعْلُ. وَقَدْ أَكْثَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ إِيرَادِ

---

(١) البحر المحيط: (٧/٢٠٩).

(٢) الألوسي، روح المعاني: (٨/٣٢٨)، ويُراجع للراغب، المفردات في غريب القرآن: (ص٥٨).

(٣) الألوسي، روح المعاني: (٨/٣٢٨)، والأثر عن قتادة أخرجه الطبري في جامع البيان: (١٨/٧٨).

(٤) يراجع: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٥/٢٣٧).

الشَّوَاهِدِ عَلَى ذَلِكَ وَمَنْ لَهُ أَدْنَى مُطَالَعَةٍ لِكلامِ الْعَرَبِ لَا يَحْتَاجُ إلى شَاهِدٍ فِي ذَلِكَ". [١]

- لكن للشيخ ابن عثيمين في ذلك توجيه سديد حيث يقول: "﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ أي: أنه مائلٌ يُريد أن يسقط، فإن قيل: هل للجدار إرادة؟ فالجواب: نعم له إرادة، فإن ميله يدل على إرادة السقوط، ولا تتعجب إن كان للجماد إرادة فهاهو "أُحُد" قال عنه النبي ﷺ إنه: «يُحِبُّنَا وَنُحِبُّه» والمحبة وصفٌ زائد على الإرادة، أما قول بعض الناس الذين يُجيزون المجاز في القرآن: إنَّ هذا كناية وأنه ليس للجماد إرادة فلا وجه له" [٢].
- التعريض: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ٧٧﴾ [الكهف:٧٧]، قال الألوسي: "لم يقل ذلك حثًّا، وإنما قاله تعريضًا بأنَّ فعلهُ ذلك فضولٌ وتبرعٌ بما لم يُطلب منه من غير فائدة ولا استحقاق لمن فُعل له مع كمال الاحتياج إلى خلافه، وكأن الكليم عليه السّلام لما رأى الحرمان ومساس الحاجة والاشتغال بما لا يعني لم يتمالك الصبر فاعترض". [٣]
- **الأضداد:** قال أبو عليّ: "إِنَّمَا جَازَ اسْتِعْمَالُ وَرَاءَ بِمَعْنَى أَمَامَ عَلَى الِاتِّسَاعِ لِأَنَّهَا جِهَةٌ مُقَابِلَةٌ لِجِهَةٍ فَكَانَتْ كلّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ وَرَاءَ الْأُخْرَى إِذَا لَمْ يَرِدْ مَعْنَى الْمُوَاجَهَةِ، وَيَجُوزُ ذَلِكَ فِي الْأَجْرَامِ الَّتِي لَا وَجْهَ لَهَا مِثْلُ حَجَرَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ كلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَرَاءَ الْآخَرِ، وَأَكْثَرُ أَهْلِ اللُّغَةِ عَلَى أَنَّ وَرَاءَ مِنَ الْأَضْدَادِ انْتَهَى". [٤] وقال ابن عطيَّة: "وَقَوْلُهُ: وَراءَهُمْ عِنْدِي هُوَ عَلَى بَابِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ إِنَّمَا تَجِيءُ يُرَاعَى بِهَا الزَّمَنُ، وَالَّذِي يَأْتِي بَعْدُ هُوَ الْوَرَاءُ وَهُوَ مَا خُلِّفَ، وَذَلِكَ بِخِلَافِ مَا يَظْهَرُ بَادِيَ الرَّأْيِ، وَتَأَمَّلْ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ فِي مَوَاضِعِهَا حَيْثُ وَرَدَتْ تَجِدُهَا

---

(١) أبو حيان، البحر المحيط: (٧/٢١٠).

(٢) تفسير العثيمين: الكهف: (ص١٢٠)، والحديث متفق عليه. البخاري: كتاب الزكاة، باب: خرص التمر: (ح١٤٨١). مسلم: الحج، باب: أُحدٌ جبل يحبنا ونحبه: (ح١٣٩٢)، (ح٥٠٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) الألوسي، روح المعاني: (٨/٣٣٠).

(٤) الألوسي، روح المعاني: (٨/٣٣٠).

تَطَّرِدُ، فَهَذِهِ الْآيَةُ مَعْنَاهَا أَنَّ هَؤُلَاءِ وَعَمَلَهُمْ وَسَعْيَهُمْ يَأْتِي بَعْدَهُ فِي الزَّمَنِ غَصْبُ هَذَا الْمَلِكِ".(١)

- قوله: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾: التثنيةُ للتغليبِ، يُريد: أباه وأمه، فغلَّب المُذكَّرَ، وهو شائعٌ، ومثلُه: القَمَران والعُمَران.(٢)
- ولعلَّ التعبير عن القرية بالمدينة: "لإظهار نوع اعتداد بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالح"(٣)، وكم عُرفت بلادٌ واشتُهرت بصالحيها ونجبائها.
- في إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه الصلاة والسلام دون ضميرهما ﴿فأراد ربك﴾ تنبيهٌ له عليه الصلاة والسلام على تحتُّم كمال الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الأمور المذكورة.(٤)
- **رعاية الفاصلة**: وهو من محاسن البديع: كما في ختام الآيات: حقبًا، سربًا، نصبًا، عجبًا، صبرًا، خُبرًا، أمرًا، ذكرًا، إمرًا، صبرًا، عُسرًا، نُكرًا، صبرًا، عُذرًا، أجرًا، صبرًا.
- **التنكـــــــير في** ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ٦٥﴾ [الكهف:٦٥]: نكَّر ﴿عبدًا﴾ للتعظيم والتفخيم، والإضافة ﴿من عبادنا﴾ للتشريف، وتنكير ﴿رحمة﴾ للتعظيم، وتنكير ﴿علمًا﴾ للإبهام المُفيد للتعظيم والتكثير.
- **بلاغة السؤال:**

- ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:٦٦] للتلطف والتأدب وحسن الطلب.

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز: (٥٦٧/٣)، ويُراجع البحر المحيط: (٢١٣/٧).

(٢) السمين، الدُّر المصون في علوم الكتاب المكنون: (٥٣٧/٧).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٢٣٨/٥).

(٤) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٢٤١/٥).

- ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ [الكهف:٦٨]: للتقرير أي لن تصبر.
- ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ [الكهف:٧١]، ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ [الكهف:٧٤]: للعتاب والإنكار والتعجب.

*　　*　　*

المقطع الثاني

قصة ذو القرنين

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الكهف: ٨٣-٨٥].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

تتجلى لنا المناسبة بين هذه القصة والقصص التي سبقتها، وبين القصة ومحور السُّورة ومقصودها: فبعد الحديث عن رحلة موسى مع الخضر وما انطوت عليه من عجائب وآيات، وما أسْفَرت عنه من عِبَرٍ وعِظاتٍ، يأتي الحديثُ عن قصةٍ أخرى عجيبة، قصة ذلك الرجل الصالح الذي مكَّن الله له، وهيَّأ له الأسبابَ فأخذ بها، واجتهدَ في استثمارها وتطويرها، فطاف في الأرض، وجال في أقطارها، قائدًا مظفرًا، وحاكمًا عادلاً، وسلطانًا قويًا، وعبدًا شكورًا، فملأ الدُّنيا عدلاً ونورًا.

رحل موسى عليه السلام طلبًا للعلم النافع، وسافر الخضر بأمر الله تعالى حاملاً لواء الجهاد وراية الإصلاح والتغيير، كذلك طاف ذو القرنين بجنده وعتاده، لينشر العدالة في رُبوع الكون، ويُبلّغ دعوة الحق، ويُصحح المفاهيم، ويُقيم الموازين القسط، ويُرسِّخ القيم الأصيلة، والأخلاق الفاضلة.

قال البقاعي: "ولما فرغ من هذه القصة التي حاصلها أنه طوّاف في الأرض لطلب العلم، عقَّبها بقصةِ من طاف الأرض لطلب الجهاد، وقدَّم الأُولى إشارة إلى علوِّ درجةِ العلمِ؛ لأنه أساسُ كلّ

سعادةٍ، وقوامُ كلّ أمرٍ". [1]

كذلك تضعُنَا الآياتُ أمام مقارنةٍ بيّنة بين صاحب الجنتين الذي اغتر بجنّتيه، وجحد النعمة، وتمادى في الضلال، وبين صاحبه الذي يُذكّره بالله ويُحذِّرُهُ من عقابه، وبين ذي القرنين الذي يتذكر دائمًا فضل الله عليه ورحمته به، ويلهجُ دائمًا بحمده تعالى على ما أولاه من النعم وأسْدَاه من الكرم، ويوظِّف هذه النعم في نشر الحق والفضيلة في أرجاء الأرض.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ [الكهف: ٣٥-٣٩].

أما ذو القرنين فإنه نموذجٌ رائعٌ للملك الصالح المتعفّف الذي مكّنه الله في الأرض، فأقام ميزان العدل والإحسان، وأزال سلطان الكفر والطغيان، وحمل رايةَ الحقِّ ومصابيح الهدى، وعاش الناس في عهده حياةً آمنة مطمئنةً، فشتّان بين عهدينِ! عهدٌ سَادَ فيه الكفر والفساد، وعهد أشرقت فيه شمس الهداية وأضاءت أنوار العدالة. مَملَكةٌ كافرة تجعل الكفر لها دستورًا وسياجًا، وملكٌ غاصبٌ طاغيةٌ، ومَملَكةٌ مؤمنة تجعل الإيمان لها عصمةً ومنهاجًا ونورًا وسراجًا! وبضدها تتبين الأشياء.

ثانيًا: مناسبة القصة والهدف الرئيس:

ومن أوجه المناسبة بين قصة أصحاب الكهف والهدف الرئيس لسورة الكهف أنها خطَّت لنا طريق النجاة من الفتن، وأوردت نموذجًا عمليًّا ومثالاً واقعيًا يُحتذى به، حيث تعرَّض الفتيةُ لفتنة عظيمة عصمهم الله منها، حين سعى الملك إلى فتنتهم في دينهم، واستغلّ سلطانه في مساومتهم على الحق وإغرائهم بكلّ المغريات، كما استخدم فتنة التهديد والوعيد، فعصمهم الله تعالى من كلّ تلك الفتن؛ لـمَّا خلُصَت نيَّتهم، وصفت سريرتهم، وقويت عزيمتهم، وصدق توجهُهم إلى الله تعالى.

---

(١) البقاعي، نظم الدرر: (٤/٥٠١).

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الكهف:٩-١٦].

وهكذا نجدُ السُّورة الكريمة تُبرِزُ لنا طريقَ النجاةِ من جميعِ الفتنِ، فتنةِ السلطانِ، وفتنةِ الأهلِ والعشيرةِ، وفتنةِ المالِ، وفتنةِ الولدِ، وفتنةِ العلمِ، وفتنةِ إبليسَ اللعينِ، وفتنةِ القوةِ والتمكينِ من خلالِ قصةِ ذي القرنينِ، وفتنةِ يأجوجَ ومأجوجَ، وفتنةِ إتباعِ الأهواءِ والاغترارِ بزخرفِ القولِ، مما يتواكبُ مع خواصّ السُّورةِ ،وفضائِلِها، وعصمتها لتاليها من الفتنِ الحوالكِ.

لـمَّا بيّن الله ﷻ أن ما على الأرض من زينة إنما هو للابتلاء والامتحان الذي يُبرز معادن الناس، ويُجلي عن قصدهم وهمتهم نحو العمل الصالح؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ [الكهف:٧-٨]، لـمّا بيّن الله تعالى ذلك ضرب أمثلةً تكشفُ عن موقف الناس من زينة الدُّنيا، فبدأ بقصة أصحاب الكهف الذين لم يغترُّوا بزينة الشباب، وزينة الأهل والعشيرة، وزينة الأُبَّهةِ والسُّلطان، بل تركوا كلَّ هذه الملذات، وأعرضوا عن جميع الإغراءات، وهجروا الأهل والخلان في سبيل الله جلَّ في علاه.

ثم جاءت قصة صاحب الجنتين الذي غرَّه المال ولم يحمد الله عليه بل ازداد بطرًا وشرًا، في حين نجح صاحبه في الابتلاء؛ حيث عرف حقيقة هذه الدُّنيا الفانية، فكان له ناصحًا أمينًا، وواعظًا بليغًا.

ثم يأتي التعقيب على هذه القصة مبينًا حقيقة الدُّنيا الفانية، وما فيها من زينة تسْلُبُ القلوب، وتأسر النفوس، وتصرفها عن غاية وجودها، وعاقبة أمرها.

وإذا كان هناك من يغترُّ بالمال أو بالولد، فإن هناك من يغتر بالوعود الكاذبة والأماني الباطلة التي يمني بها إبليس اللعين هذا العدو القديم الذي أظهر عداوته قديمًا يوم أن امتنع عن السجود لآدم قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف:٥٠]، ومن أشدّ أسلحة إبليس سلاح التزيين فكم من معصية زيّنها، وكم من بدعة حسَّنها، وكم من طاعة صَرَف الناس عنها، وكم من ضلالة زخرَفها، وكم من توبة سوَّفها.

ثم يُورد لنا السياق حقائق ساطعة، وسُننًا ربانيّة، وقضايا عَقَديّة حول الألوهية، والرسالة، واليوم الآخر، وسنن الله الماضية والجارية في الأمم، ومن الناس من يغترّ بنعمة العلم، بل وربما ظنَّ أنه أعلم الناس، وهنا تأتي قصة موسى والخضر عليهما السلام؛ لتُبين أن العالم مهما بلغ من العلم فإن هناك من هو أعلم منه، ومهما أُوتينا من العلم فما قيمته؟ وما قدره أمام علم علام الغيوب؟!

ثم يضرب الله مثلاً لمن لم يغتر بالقوة والسلطان، العبد الصالح ذو القرنين الذي وظّف مُلكَه وسلطانَه في نشر الدين، ورفع الظلم عن المظلومين، ورد الطغاة الباغين، وكان كلّما جدد الله له نعمة جدد لها شكرًا وردها إلى المنعم عز وجل.

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الكهف:٩٥].

﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف:٩٨].

فلنقارن بين من اغترَّ بجنتيه، وجحد النعمة، وتمادى في الضلال، وبين من يتذكر دائمًا فضل الله عليه ورحمته به، ويلهج دائمًا بحمده تعالى.

ثالثًا: سبب نزول القصة:

ذكر ابن إسحاق: "أن قريشًا بعثوا النَّضر بن الحارث وعُقبة بن أبي مُعيط إلى أحبار يهود وقالوا لهما: سَلاهُمْ عَنْ مُحمد وَصِفَا لَهُمْ صِفَتَهُ وَأَخْبِرَاهُمْ بِقَوْلِهِ، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأُوَلِ وَعِنْدَهُمْ عِلْمٌ لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْمٍ؛ فَخَرَجَا حَتّى قَدِمَا الْمَدِينَةَ، فَسَأَلَا أَحْبَارَ يَهُودَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَوَصَفَا لَهُمْ أَمْرَهُ وَأَخْبَرَاهُمْ بِبَعْضِ قَوْلِهِ، وَقَالَا لَهُمْ إنّكُمْ أَهْلُ التّوْرَاةِ، وَقَدْ جِئْنَاكُمْ لِتُخْبِرُونَا عَنْ صَاحِبِنَا هَذَا؟ فَقَالَتْ

لَهُمَا أَحْبَارُ يَهُودَ: سَلُوهُ عَنْ ثَلَاثٍ نَأْمُرُكُمْ بِهِنّ، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ بِهِنّ فَهُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرّجُلُ مُتَقَوّلٌ فَرَوْا فِيهِ رَأْيَكُمْ، سَلُوهُ عَنْ فِتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدّهْرِ الْأَوّلِ مَا كَانَ أَمْرُهُمْ فَإِنّهُ قَدْ كَانَ لَهُمْ حَدِيثٌ عَجَبٌ؟ وَسَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ طَوّافٍ قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا مَا كَانَ نَبَؤُهُ؟ وَسَلُوهُ عَنْ الرّوحِ مَا هِيَ؟ فَإِذَا أَخْبَرَكُمْ بِذَلِك فَاتّبِعُوهُ فَإِنّهُ نَبِيٌّ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهُوَ رَجُلٌ مُتَقَوّلٌ فَاصْنَعُوا فِي أَمْرِهِ مَا بَدَا لَكُمْ، فَأَقْبَلَ النّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ حَتّى قَدِمَا مَكّةَ عَلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، قَدْ جِئْنَاكُمْ بِفَصْلٍ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُحمدٍ، قَدْ أَخْبَرَنَا أَحْبَارُ يَهُودَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ أَشْيَاءَ أَمَرُونَا بِهَا، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ عَنْهَا فَهُوَ نَبِيٌّ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرّجُلُ مُتَقَوّلٌ فَرَوْا فِيهِ رَأْيَكُمْ، فَجَاءُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحمدُ أَخْبِرْنَا عَنْ فِتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدّهْرِ الْأَوّلِ، قَدْ كَانَتْ لَهُمْ قِصّةٌ عَجَبٌ، وَعَنْ رَجُلٍ كَانَ طَوّافًا قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا؛ وَأَخْبِرْنَا عَنْ الرّوحِ مَا هِيَ؟ قَالَ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُخْبِرُكُمْ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ غَدًا**»، وَلَمْ يَسْتَثْنِ فَانْصَرَفُوا عَنْهُ، فَمَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ - فِيمَا يَذْكُرُونَ - خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً لَا يُحْدِثُ اللهُ إلَيْهِ فِي ذَلِكَ وَحْيًا، وَلَا يَأْتِيهِ جِبْرِيلُ حَتّى أَرْجَفَ أَهْلُ مَكّةَ، وَقَالُوا: وَعَدَنَا مُحمدٌ غَدًا، وَالْيَوْمَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً قَدْ أَصْبَحْنَا مِنْهَا لَا يُخْبِرُنَا بِشَيْءٍ مِمّا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ وَحَتّى أَحْزَنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُكْثُ الْوَحْيِ وَشَقّ عَلَيْهِ مَا يَتَكَلّمُ بِهِ أَهْلُ مَكّةَ: ثُمّ جَاءَهُ جِبْرِيلُ مِنْ اللهِ عَزّ وَجَلّ بِسُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، فِيهَا مُعَاتَبَتُهُ إيّاهُ عَلَى حُزْنِهِ عَلَيْهِمْ وَخَبَرُ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ الْفِتْيَةَ وَالرّجُلِ الطّوّافِ".[(١)]

رابعًا: معاني المفردات:

- ﴿مكّنّا له﴾: هيّأنا له من الأسباب ما جعله مُتمَكِّنًا قادرًا، مَكَّنْتُه ومكّنت له فتمكّن.
- ﴿حَمِئَةٍ﴾: أي كثيرة السَّواد من الحمأةِ أي الطين، والعين الحمئة: ماءٌ يجري على الطِّين الأسود، وقُرِئَ (حَامِيَةٌ): أي شديدة الحرارة، فقد جمعت بين الوصفين.
- ﴿خرجًا﴾: جَعْلاً، أي مالاً مُقابل قيامه بعملٍ يحتاج لجهد، ومشقة، ومعونة.

(١) هذه القصة رواها ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنه كما في السيرة النبوية لابن هشام: (٣٢١/١)، ورواها الطبري في جامع البيان: (٥٩٣/١٧)، والبيهقي في دلائل النبوة: (٢٦٩/٢)، وأوردها ابن كثير في تفسيره: (١٣٣/٥)، وابن المنذر كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي: (٤٧٩/٩).

- ﴿سدًّا﴾: السَّدُّ الْحَاجِزُ وَالْحَائِلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، وَيُقَالُ بِالضَّمِّ وَبِالْفَتْحِ.
- ﴿ردْمًا﴾: السَّدُّ، وَقِيلَ: الرَّدْمُ أَكْبَرُ مِنَ السَّدِّ لِأَنَّ الرَّدْمَ مَا جُعِلَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، يُقَالُ: ثَوْبٌ مُرَدَّمٌ إِذَا كَانَ قَدْ رُقِّعَ رُقْعَةً فَوْقَ رُقْعَةٍ.
- ﴿زُبَر الحديد﴾: جمع زُبْرة، والزُّبْرَة: القطعة من الحديد.
- ﴿الصُّدْفين﴾: الصَّدَفُ كلّ بِنَاءٍ عَظِيمٍ مُرْتَفِعٍ، والمراد حافة الجبلين.
- ﴿قِطْرا﴾: النُّحَاسُ الْمُذَابُ، وَقِيلَ: الرَّصَاصُ الْمُذَابُ.
- ﴿نقبًا﴾: النَّقْبُ مَصْدَرُ نَقَبَ أَيْ حَفَرَ وَقَطَعَ واخترق.
- ﴿دكًّا﴾: مَدْكُوكًا مُنْبَسِطًا مُسْتَوِيًا بِالْأَرْضِ، وَكلّ مَا انْبَسَطَ بَعْدَ ارْتِفَاعٍ فَقَدِ انْدَكَّ.

خامسًا: القراءات:

- وقوله جلَّ وعزَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ [الكهف:٨٦]: قرأ أبو بكر شعبة عن عاصم وعامر وحمزة والكِسائي "حَامِيَةً" أي حارَّة، والباقون "حَمِئَةً" أي كثيرة الحمأة، وهي الطِّينةُ السوداء، تقول: حمأت البئر حمأ (بالتسكين) إذا نزعت حمأتها، وحمئت البئر حمأ (بالتحريك) كثرت حمأتها، ويجوز أن تكون "حامية" من الحمأة فخُفِفَت الهمزة وقُلبت ياءً، وقد يُجمع بين القراءتين، فيُقال: كانت حارة وذات حمأة. قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك عندي أن يُقال: إنهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار، ولكلّ واحدة منهما وجهٌ صحيحٌ ومعنى مفهوم، وكِلا وجهيه غير مُفسدٍ أحدُهما صاحبه، وذلك أنه جائزٌ أن تكون الشمس تغرب في عين حارّة ذات حمأة وطين، فيكون القارئ في عين حامية بصفتها التي هي لها، وهي الحرارة، ويكون القارئ في عين حمئة واصفها بصفتها التي هي بها، وهي أنها ذات حمأة وطين، وقد رُوي بكِلا صيغتيها اللتين إنهما من صفتيها أخبار"، قال الأزهري: "مَنْ قَرَأَ (حَمِئَة) أراد: فِي عَيْن ذاتِ حَمْأة، قد حَمِئت، فهي حَمِئَة، وَمَنْ قَرَأَ (حامية) أراد: حارَّة، وقد تكون حارَّة ذات حمأة، فيكون فيها المعنيان". [١]

---

(١) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: (٢/٣١٤)، والطبري، جامع البيان: (١٨/٩٧)، وأبو منصور الأزهري،=

- وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف:٨٨].
- قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عَن عاصم: (جَزَاءَ الحُسْنى) مضافًا، وقرأ الباقون (جَزَاءً الحُسْنى) منونًا. قال أبو منصور: "مَنْ قَرَأَ (جَزَاءً الحُسْنى) فالمعنى: فله الحسنى جزاءً، و(جزاء) منصوب لأنه مصدر وُضِعَ موضع الحال، المعنى: فله الحسنى مُجْزيًّا بها جزاءً. وَمَنْ قَرَأَ (جَزَاءَ الحُسْنى) أضاف (جَزَاء) إلى (الحُسْنى)"[١].
- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ [الكهف:٩٣].
- قرأ حمزة والكسائي (يُفْقِهُونَ) بضم الياء وكسر القاف، وقرأ الباقون (يَفْقَهُونَ)، بفتح الياء والقاف. قال أبو منصور: "مَنْ قَرَأَ (لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً) فمعناه: لا يكادون يَفْقَهُونَ عنك. وَمَنْ قَرَأَ (يُفْقِهُونَ) فمعناه: لا يكادون يُفْهِمون غيرهم إذا نطقوا"[٢].
- وقوله جلَّ وعزَّ: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف:٩٤]: قَرَأَ حمزة والكِسائي بفتح الراء وألف بعدها، وقرأ الباقون بإسكان الراء من غير ألف[٣]، قال أبو إسحاق النحوي: "مَنْ قَرَأَ (خَرْجًا) فالخَرَج: الفْيء، والخَرَاج: الضريبة. والخَرَاج: الاسم لِمَا يُخْرَج من الفرائض في الأموال. والخَرْج: المصدر". وقال الفرّاء: "الخَرَاج: الاسم الأول، والخَرْج كالمصدر (إن خرج رأسك) كأنه الجُعل. كأنهُ خاصٌّ،

=معاني القراءات: (١٢٢/٢)، ابن مجاهد، أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي (ت: ٣٢٤هـ)، تحقيق: شوقي ضيف، ط. دار المعارف مصر ط.٢ (١٤٠٠هـ): (ص٣٩٨).

(١) أبو منصور الأزهري، معاني القراءات: (١٢٢/٢). ابن مجاهد، السبعة في القراءات: (ص٣٩٩).

(٢) أبو منصور الأزهري، معاني القراءات: (١٢٤/٢). ابن مجاهد، السبعة في القراءات: (ص٤٠٠).

(٣) ابن الجوزي، النشر (٣١٥/٢).

والخراج العام". [1]

سادسًا: الإعراب:

- قوله: ﴿حامِيَةٍ﴾: قرأ ابن عامر وأبو بكر والأخَوان بالألف وياءٍ بعد الميم. والباقون دون ألفٍ وهمزة بعد الميم ﴿حمِئة﴾. فأمَّا القراءةُ الأولى فإنها اسمُ فاعلٍ مِنْ حَمِي يَحْمِي، والمعنى: في عينٍ حارَّة. ولا تناقُضَ بين القراءتين؛ لأنَّ العينَ جامعةٌ بين الوصفين: الحرارةِ وفورانها بالطين.
- ﴿كَذَلِكَ﴾: الكافُ: إمَّا مرفوعةُ المحلِّ، أي: الأمر كذلك، أو منصوبتُه، أي: فَعَلْنا مثلَ ذلك.
- قوله: ﴿يَفْقَهُونَ﴾: قرأ الأخَوان بضمِّ الياء وكسرِ القافِ مِنْ أفقهَ غيرَه، فالمفعولُ محذوفٌ، أي: لا يُفْقِهون غيرهم قولاً. والباقون بفتحها، أي: لا يَفْهمون كلامَ غيرِهم، وهو بمعنى الأول. وقيل: ليس بمتلازمٍ؛ إذ قد يَفْقَهُ الإنسانُ قولَ غيرِه ولا يَفْقَه غيرُه قولَه. وبالعكس.
- قوله: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾: الظاهرُ أن الجَعْلَ هنا بمعنى التصيير فتكون "دكَّاء"مفعولاً ثانيًا. [2].

سابعًا: التفسير الإجمالي:

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف:٨٣-٨٤]:

ذو القرنين كان عبدًا صالحًا، وقائدًا حكيمًا محنَّكًا، ومِلكًا عادلاً، جمع الله له بين الصلاح، والمُلك، والعلم، والهمّة العالية في إقامة العدل ونشر الخير، والتيسير على الخلق، أخذ بالأسباب بل طوَّرها حتى مكَّن الله له، قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾: مكَّن الله له في الأرض، وَوَهَبهُ أسباب النصر والتمكين، وأصول السياسة، وفنون التدبير، فأحسن استغلال هذه المِنحِ والمواهبِ على أتمِّ وجهٍ، بل جعلها ركيزةً ومُنطلقًا إلى ريادةِ الكون بالعلم

---

(١) أبو منصور الأزهري، معاني القراءات: (١٢٤/٢).

(٢) يراجع: الدُّر المصون في علوم الكتاب المكنون: (٥٤١/٧: ٥٥٠).

والإيمان، والعدل والإحسان.

مكَّن له صاحبُ العظمة والسلطان تمكينًا عظيمًا في أنحاء المعمورة، وآتاه من الأسباب ما يحتاج إليه في توطيد مُلكِهِ وبسْطِ سلطانه وكبتِ أعدائِهِ. قال ابن عاشور: "وَجُعِلَ خَبَرُ ذِي الْقَرْنَيْنِ تِلَاوَةً وَذِكْرًا لِلْإِشَارَةِ إلى أَنَّ الْمُهِمَّ مِنْ أَخْبَارِهِ مَا فِيهِ تَذْكِيرٌ وَمَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ تِلَاوَةً، حَسبَ شَأْنِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يُتْلَى لِأَجْلِ الذِّكْرِ وَلَا يُسَاقُ مَسَاقَ الْقَصَصِ."[1]. والسبب: هو الوسيلة التي يُتوصَّل بها إلى المطلوب. قال ابن عباس ﷺ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ عِلْمًا يتسبب به إلى ما يريد، وقيل: هو العِلْم بالطُّرق والمسالك، ومعرفة بمنازل الأرض وأعلامها[2]. وكلّ ذلك مرادٌ، ومندرجٌ في معنى الأسباب التي أمدُّه الله بها ووفقه إليها. قال الألوسي: "وَآتَيْناهُ مِنْ كلّ شَيْءٍ أراده من مهمات مُلْكِهِ ومقاصده المُعلَّقة بسلطانه سَبَبًا؛ أي طريقًا يوصِّله إليه، وهو كلّ ما يُتوصّل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة".[3]

﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ أي: سلَكَ وسار طريقًا يوصِّلُهُ إلى المقصود، وأخذ بكلّ ما أمكنه تحصيلُه من علومٍ، وتتبّعَ السُّبلَ والوسائل التي تُعينُه على تحقيقِ أهدافِه وطموحاتِه في الدعوة والإصلاح، ونشر العدالة والرحمة في شتى الأرجاء، فلم يكن ما قام به ذو القرنين من خوارق العادات، بل كان تمكينُه من مُنطلق الأخذ بالأسباب، وفْقَ نواميس الكون، حيث هداه الله للأسباب ووفقه إليها.

هذا الرجل الصالح الذي مكَّن الله تعالى له في الأرض، وأعطاه العلم والحكمة وألبسه ثوْب العزّ وتاج الوقار والهيبة. أما اسمه: فقد اختُلِفَ فيه على أقوال كثيرة، فقيل هو (الإسكندر المقدوني) ذلك الملك اليوناني (٣٠٠ ق.م)، وهناك من زعم أنه (قورش) الملك الفارسي (٥٠٠ ق.م)، أو (دارا) الفارسي، أو

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٥/١٢٥).

(٢) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: (٩/٢٣٠)، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن مُحمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط. دار الكتاب العربي – بيروت، ط.أولى (١٤٢٢هـ): (٥/١٨٥).

(٣) الألوسي، روح المعاني: (٨/٣٦٠).

ملك من ملوك اليمن، قيل هو (الصعب بن ذي مرائد بن الحارث)...، ينتهي نسبه إلى حميَر بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود، ومنه إلى سام بن نوح عليه السلام (١٥٠٠ ق.م). أو ابن فرعون مصر. يرى (أبو الكلام آزاد) في كتابه "ويسألونك عن ذي القرنين" أنه (قورش) إمبراطور فارس الذي غزا بلاد اليونان وكان عادلاً، بينما يرى البعض أنه (الإسكندر المقدوني) الذي غزا بلاد فارس وكان عادلاً، قال المسعودي: "(الإِسكندر وذو القرنين): وقد تنازع الناس فيه: فمنهم من رأى أنه ذو القرنين، ومنهم من رأى أنه غيره، وتنازعوا أيضًا في ذي القرنين: فمنهم من رأى أنه سُميَ بذي القرنين لبلوغه أطراف الأرض وأن الملك الموكل بجبل (قاف) سماه بهذا الاسم، ومنهم من رأى أنه من الملائكة".[(١)]

وقال القزويني: "وذكر بعض النُّسَّاب أن (أفريدون) هو ذو القرنين الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز، لأنه ملك المشرق والمغرب، وأمر بعبادة الله تعالى، وكان ذا عدل وإحسان"[(٢)].

والمُتأمل في هذه الأقوال وما استندت إليه يجدُها لا أصل لها في الكتاب أو السنة، كما أنها مبنيةٌ على الظّن، فضلاً عن كون ذي القرنين مؤمّنًا موحدًا.

وقيل كان نبيًا من الأنبياء، روى ابن أبي شيبة في المصنف عن عبدالله بن عمرو ﷺ قال: "ذو القرنين نبي".[(٣)]

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﷺ قال: "ذو القرنين نبي".[(٤)]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا أَدْرِي أَتُبَّعُ لَعِينًا كَانَ أَمْ لا، وَمَا أَدْرِي ذُو**

---

(١) المسعودي أبو الحسن على بن الحسين بن على (ت: ٣٤٦هـ) مروج الذهب، ط. دار الهجرة (١٤٠٩هـ)، باب الحكماء على جدث الإسكندر: (١/١٢٧)، ويُراجع لأبي الكلام آزاد "ويسألونك عن ذي القرنين"، (ص١٠٠)، ط. دار الشعب القاهرة، وجبل (قاف) هذا من أخبار الإسرائيليات التي لا دليل عليها ولا مُستند من كتاب، أو سُنَّة، أو أثر صحيح، والقول بأنه ملَكٌ من الملائكة قول بعيد غريب، بل هو من البشر.

(٢) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد: (١/٩٢).

(٣) ابن أبي شيبة، المصنف: (٧/٤٦٨).

٤) السيوطي، الدُّر المنثور في التفسير بالمأثور: (٩/٦٣٢).

الْقَرْنَيْنِ نَبِيًّا كَانَ أَمْ لا، وَمَا أَدْرِي الْحُدُودُ كَفَّارَاتٌ لأَهْلِهَا أَمْ لا».[1]

فلا نملك أن نجزم بنبوة ذي القرنين. والله أعلم بحاله.

والذي يتجلى لنا من خلال حديث القرآن عنه أنه ملِكٌ مؤمن على علمٍ وصلاحٍ، مكَّن الله له؛ فسعى جاهدًا ومتجرِّدًا لنشر الحق والعدل، والذي يعنِينَا أن نتدبر في قصته، ونستخلص منها الدروس والعِبَر في الدعوة، والإصلاح، والقيادة، والإدارة، والسياسة، ثم إن السؤال ليس عن شخص ذي القرنين، وإنما عن حياته وجهاده وأمجاده.

قال البغوي: "والأكثرون على أنه كان ملِكًا عادلاً صالحًا"[2].

وقال ابن القيم: "الإسكندر المقدوني وهو ابن فيلبس، وليس هو بالإسكندر ذي القرنين الذي قصَّ الله تعالى نبأه في القرآن بل بينهما قرونٌ كثيرة وبينهما في الدين أعظم تباين؛ فذو القرنين كان رجلا صالحًا موحّدًا لله تعالى يؤمن بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وكان يغزو عُبَّادَ الأصنام، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها، وبنى السَّدَّ بين الناس وبين يأجوج ومأجوج، وأما هذا المقدوني فكان مشركًا يعبد الأصنام هو وأهل مملكته، وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة، والنصارى تُؤرخ له،وكان (أرسطاليس) وزيره وكان مشركًا يعبد الأصنام، وهو الذي غزا (دارا) ملك الفرس في عُقرِ داره، فثَلَّ عرشه ومزَّق مُلْكَه وفرَّق جمعه،ثم دخل إلى الصين، والهند، وبلاد الترك؛ فقتل وسبى، وكان لليونانيين في دولته عزٌّ وسطوة بسبب وزيره (أرسطو)، فإنه كان مُشيره، ووزيره، ومُدبّر مملكته، وكان بعده لليونان عدة ملوك يعرفون بـ (البطالسة)، وأحدهم (بطليموس)، كما إن كسرى ملك الفرس، وقيصر ملك الروم. ثم غلبهم الروم واستولوا على ممالكهم فصاروا رعيَّةً لهم، وانقرض ملكهم فصارت المملكة للروم، وصارت المملكة واحدة وهم على شركهم من عبادة الأصنام، وهو

---

١) رواه الحاكم في المستدرك: (ح٤٠٥) – (١٤/٢)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وقال الذهبي: "على شرط البخاري ومسلم". ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق: (٢٨٦/٥٦)، تاريخ دمشق، لابن عساكر.

(٢) البغوي، أبومُحمد الحسين بن مسعود بن مُحمد بن الفراء الشافعي (ت: ٥١٠هـ)، معالم التنزيل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط.١ (١٤٢٠هـ). (٢١٢/٣).

دينهم الظاهر ودين آبائهم"[(١)].

ويُقررُ ابن عاشور أنه ليس بالإسكندر المقدوني، قال: "لأنه لم يكن ملِكًا صالحًا، بل كان وثنيًّا، فلم يكن أهلاً لتلقي الوحي من الله، وإن كانت له كمالات على الجملة، وأيضًا فلا يُعرف في تاريخه أنه أقام سدًا بين بلدين"[(٢)].

وذكر أبو السعود أقوالاً عديدة في سرِّ تسميته بذي القرنين، أكتفي بذكر أقربها للصواب، قال: "واختلف في وجه تسميته بذي القرنين، فقيل لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها، وقيل لأنه ملك الروم وفارس، وقيل الروم والترك."[(٣)].

* * *

(١) ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: (٢/٢٦٤).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٥/١٢٣).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٥/٢٤٠).

الرحلة الأولى: بلوغه مغرب الشمس

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الكهف:٨٦-٨٩].

ما حكى القرآن كانت له ثلاثُ رحلاتٍ رئيسيّة، والظاهر أنه انطلق من المشرق إلى رحلته الأولى جهة المغرب، حيث بلغ بجنوده أقصى الغرب مستعينًا بما هيأه الله له من أسبابٍ، وهدف الرحلة كما يظهر من خلال الآيات نشر الحق، وهداية الناس، وإقامة العدل. انطلق في رحلته حتى شاهد غروب الشمس ﴿فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ عين ماء ذات حمأة، وقُرِئَ ﴿فِى عَيْنٍ حامِيَةٍ﴾ يعني أنها تغرب في عين ماء حارّة[١]. ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾: لـمَّا تمكَّن منهم، وخُيّرَ في شأنهم: كان حَكَمًا مُقسِطًا، إذ حكم على من بقي على الظلم بالعذاب، وعلى من اختار طريق الهداية بالخير والإحسان، فقال: "﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ذُكر جزاءُ الله له في الآخرة ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي الجنة، ثم أتبع ذلك بإحسانه له في الدُّنيا بقوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: لا نقول له ما يتكلّفه مما هو شاقٌّ عليه، بل قولاً ذا يُسرٍ وسهولة، قولاً ميسورًا.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي يوم القيامة فيعذّبه العذاب الشديد الأليم، الذي يحارُ العقل في أمره، لأنه لم ير مثله ولا قريبًا منه ليعتبر به"[٢].

---

(١) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: (٣١٤/٢).

(٢) البقاعي، نظم الدرر: (٥٠٢/٤) بتصرف.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وأما من تاب وآمن وعمل صالحًا فله الحسنى جزاءً، أي يستحقُّ البشارةَ بها فضلاً عن حسن معاملته في الدُّنيا، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾: قال الطبري: "وسنُعلِّمُه نحن في الدُّنيا ما تيسَّر لنا تعليمه ما يقرِّبه إلى الله ويلين له من القول. وكان مجاهد يقول نحوًا مما قلنا في ذلك."[1]، فالمؤمن الصالح أهلٌ لكلّ فضل وسماحةٍ، وحريٌّ على أن "يجد الكرامة والودَّ والقُربَ من الحاكم العادل، ويكون من بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره، أما المعتدي المتجاوز للحدّ، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض فسيلقَى العذاب الرَّادع من الحاكم الـمُقسِطِ في الدُّنيا، ثم يُرَدُّ إلى ربه يوم القيامة؛ ليلقى العقوبة الأشدّ بما اقترفت يداه في حياته الأولى"[2]، "... وحين يجدُ المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاءً حسنًا، ومكانًا كريمًا، وعونًا وتيسيرًا؛ ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبةً وإهانةً وجفوةً وتضييقًا.. عندئذٍ يجد الناس ما يحفزّهم إلى الصلاح والاستقامة والجد والاجتهاد، أمّا حين يضطرب ميزان الحكم فإذا الـمُعتدون الـمُفسدون مُقرَّبُون إلى الحاكم مقدَّمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو مُحاربون؛ فعندئذٍ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد.

*   *   *

(١)جامع البيان، للطبري: (١٨/٩٩).

(٢) د. مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي: (ص٣٠٥)بتصرف.

الرحلة الثانية: بلوغه مطلع الشمس.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [الكهف: ٩٠-٩٢].

بعد رحلةٍ ناجحةٍ بلغ فيها ذو القرنين أقصى الغرب، سلك طريقًا إلى أقصى الشرق ليواصل مسيرته في حمل بشائر الخير ونشر مشاعل النور. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ ﴾ أي: أقصى الشَّرْقَ وجدها تطلع على قوم ليس لهم ما يسترهم، لا من البيوت ولا من اللباس، قيل كانوا حُفَاةً عُرَاةً لا يأوون إلى شيء من العمارة؛ وقيل: لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقرَّ عليها البناء، فيعيشون في أسراب تحت الأرض، أو لِما هم عليه من بداوةٍ، وخلوٍّ من جميع مظاهر التمدُّن والرقيِّ.عن قتادة في الآية قال: "ذُكر لنا أنهم بأرض لا يثبت لَهُمْ فيها شيء، فهم إِذَا طلعت دخلوا في أسرابٍ حتى إِذَا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم".(١)

ولا بدّ أنه رحمه الله – وقد حمل مشاعل النور وراية الإصلاح — قد ارتقى بتلك البلاد ونهض بها.

﴿ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴾: لا يعزُب ذو القرنين وجيوشُه عن علمنا مهما بلغوا من أصقَاع بعيدة وبلادٍ نائيةٍ، ولا يخفى علينا تدبيره وسياسته، فهو في محيط ملكِ الله الواسع وسلطانه العظيم، وتحت قهره وإرادته، مهما شرَّق أو غرَّب، وكلّ هذه البلاد البعيدة التي وصلها ذو القرنين: يعلمها الله تعالى فلا يخفى عليه من أحوالها خافيةٌ، وقد أحاط ربُّ العالمين خُبْرًا بما لدى ذي القرنين من مواهب، وملكات، وطاقات، وإمكانات تؤهله لارتياد الأقطارِ قائدًا مُظَفَّرًا، وحاكمًا عادلاً.

فكما مكَّن اللهُ تعالى له، وهيّأ له الأسباب، وأعانه على الأخذ بها، فهو تعالى مطَّلعٌ عليه محيطٌ بما لديه، خبيرٌ ببواطن الأمور، ولو شاء الله تعالى لأخبر عن قصته على وجه التفصيل، ولكنه تعالى

(١) ابن أبي حاتم تفسير القرآن: (٩/٢٣٥).

ذكر شيئًا منها للعظة والاعتبار، فلا يتوهمنّ أحدٌ أن إيجاز القرآن واقتضابه مما يقدَحُ فيه، بل هو من وجوه بلاغته ومراعاته لمقتضى المقام، فَذَكَرَ من القصة ما فيه تذكرةٌ وأشارَ لذلك في البداية ﴿قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾. قال البقاعي: "(وقد أحطنا) بما لنا من العظمة، (بما لديه) أي: كلّه من الأمور التي هي أغرب المستغرب، (خُبرًا) أي: من جهة بواطن أموره فضلاً عن ظواهرها، فلا تستغرب إخبارنا عن ذلك ولا عن أمر أصحاب الكهف، ولا يُظن أن تفصيل أمر الوحي خفيٌّ عنا، لأنا مطلعون على خفايا الأمور وظواهرها، شواهدها وغوائبها، وكيف لا ونحن أوجدنا، ولكنا لا نذكر من ذلك إلا ما نريد على ما تدعو إليه الحكمة، فلو شئنا لبسطنا هذه القصة وقصة أهل الكهف وفصّلنا أمر الروح تفصيلاً يعجز عن حفظه الألبّاء"[(١)].

"وبما لَدَيْهِ: مَا عِنْدَهُ مِنْ عَظَمَةِ الْمُلْكِ مِنْ جُنْدٍ وَقُوَّةٍ وَثَرْوَةٍ. وَالْخُبْرُ: الْعِلْمُ وَالْإِحَاطَةُ بِالْخَبَرِ، كِنَايَةٌ عَنْ كَوْنِ الْمَعْلُومِ عَظِيمًا بِحَيْثُ لَا يُحِيطُ بِهِ عِلْمًا إِلَّا علّام الغيوب"[(٢)].

قال أبو السعود: "وقد أحطنا بما لديه من الأسباب والعَدد والعُدد خُبْرًا يعني أن ذلك من الكثرة بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير"[(٣)]. فلما بلغ بلاد الشرق الأقصى قضى فيهم بعدله وحكمته؛ كما قضى فيمن سبقهم من أهل الغرب، حيث دعاهم لدعوة الحق وأقام عليهم الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ثم عاقب الكفرة الظلمة، وسالَمَ أهل الحقِّ، وكرَّمهم، وقرَّبهم، وبشَّرهم بما عند الله من ثواب عظيم. ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ قال ابن عطية: "وقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ المعنى: ثم سلَكَ ذو القرنين الطُّرُقَ المؤدية إلى مقصِدِهِ، وكان ذو القرنين، على ما وقع في كتب التواريخ يدُوس الأرض بالجيوش الثِّقال، والسيرة الحميدة، والإعداد الموفي، والحزم المستيقظ المتقد، والتأييد المتواصل، وتقوى الله عز وجل، فما لقي أمّةً ولا مرَّ بمدينة إلا دانت له، ودخلت في طاعته، وكلّ من عارضَهُ أو توقف

---

(١) البقاعي، نظم الدرر: (٥٠٣/٤).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٣٠/١٦).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٢٤٤/٥).

عن أمره جعله عظةً وآيةً لغيره".[1]

فلا يزال يرتقي سُلَّمَ النهوض والتقدم، ويجتهد في الأخذ بالأسباب وتنميتها، وفي تكرار هذه الجملة ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾: ما يدلُّ على حرص هذا القائد الرَّباني الحاكم الرَّاشد على الأخذ بالأسباب واجتهاده في تحصيلها، وتطويرها، وتطويعها؛ لتحقيق الهدف، ونيل المراد.

الرحلة الثالثة: بلوغه بين السدين

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٩٣-٩٨].

وجد ذو القرنين قومًا لا يكادون يفقهون قولَ قائلٍ سوى كلامهم، ولا يكادون يُفقِهون أحدًا قولهم، مع ذلك تمكن من معرفة مطالبهم، وفهمهم، وتفهيمهم، بفضل ما وهبه الله تعالى من أسبابٍ[2]، إذ بعد أن ساعد جهة مطلع الشمس تلك الشعوب البدائية الفقيرة، توجَّه بهذا الخير إلى موضعٍ عبَّر عنه القرآن بأنه بين السَّدين، منطقة مُتاخِمةٌ لجبلين شاهقينِ، حيث يتسلل من بينهما

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز: (٣/٥٤٠).

(٢) يراجع: الطبري، جامع البيان: (١٨/١٠٣)، قرأ حمزة والكسائي وخَلَف بضمّ الياء وكسر القاف: (يُفقِهون) من أفقهت فلانًا كذا أفقهه إفقاهًا: إذا فهمته ذلك، والباقون بفتح القاف والياء، من فقَه الرجل يفقَه فقهًا، ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: (٢/٣١٥).

المفسدون من قوم يأجوج ومأجوج إلى البلاد المجاورة، ينهبون خيراتها، ويعيثون فيها فسادًا، فالتمس أولئك المستضعفون المنكوبون من ذي القرنين أن يحميهم من أولئك المعتدين، واقترحوا عليه أن يبني سدًّا منيعًا يحجزهم، على أن يجمعوا له ما يشاء من أموال وثروات، وفي هذا ما يدل على ثقتهم في أمانته وقدراته، وشدة حاجتهم لهذا البناء.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف:٩٣-٩٤].

عرضوا على ذي القرنين أن يُعطوه من أموالهم ما يستعين به على بناء السدِّ، وأُجرةَ بنائه؛ ليحميهم من أولئك المفسدين على سبيل حفزه وترغيبه، قال الألوسي: "مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أي: في أرضنا بالقتل والتخريب، وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، وقيل بأخذ الأقوات وأكلها. رُوي أنهم كانوا يخرجون أيّام الرَّبيع فلا يتركون شيئًا أخضر إلا أكلوه ولا يابسًا إلا احتملوه"[(١)].

فقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أجابهم هذا القائد الزَّاهد والإمامُ الرَّاشد إلى مطلبهم دون مقابلٍ، فهو صاحب رسالة إصلاح يؤدِّيها في رُبُوع الكون، لا يطمحُ في أعراض الدُّنيا الزائلة ولا يجنح إلى همٍ قاصرة، وقد وهبه الله تعالى من العلم والتمكين والفهم والتوفيق ما زاده طاعةً، وانقيادًا، وعزمًا، واجتهادًا في غرس بذور الخير أينما حلّ. "قال ذو القرنين: الذي مكنني في عمل ما سألتموني من السدّ بينكم وبين هؤلاء القوم ربي، ووطّأه لي، وقوّاني عليه، خيرٌ من جُعلكم، وأجرتكم التي تعرضونها عليّ لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوة، أعينوني بفَعَلةٍ وصُنَّاعٍ يُحسنون العمل والبناء."[(٢)].

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ يقول: أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردمًا، والرَّدْمُ: هو الحاجز، ولعلَّه سمَّى السَّدَّ الذي وعد بإنجازه ردمًا تواضعًا: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟

(١) الألوسي، روح المعاني: (٨/٣٦٨).

(٢) الطبري، جامع البيان: (١٨/١١٣) بتصرف.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾ [الكهف:٩٦]، جيئوني بقضبان الحديد، فجعلها بين حافتي الجبلين حتى إذا ساوى بينهما بما جعل بينهما من زُبر الحديد، قال للعمَّال: انفخوا النار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا﴾ فنفخوا، حتى إذا جعل ما بين الصُّدفين من الحديد نارًا ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾، صبَّ عليه قِطرًا، والقِطْر: النحاس المُذاب. وقد استخدمت هذه الطريقة حديثًا في تقوية الحديد؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته، كما أن النحاس أملس؛ لا يمكن تسلقُه، فهدى الله ذا القرنين إلى هذه الوسيلةِ الناجحة.

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ فما اسْطَاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا الرَّدم الذي جعله ذو القرنين حاجزًا بينهم، وبين من دونهم من الناس، فيصيروا فوقه وينزلوا منه إلى الناس لعلُّوه ومَلاسَته، ولم يستطيعوا أن يُنقِّبُوه من أسفله؛ لسُمْكِهِ وصلابَتِهِ.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ قال: بعد أن أتم البناء بإحكام وإتقان ﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي﴾ أي: هذا البُنْيَان رحمة وفضل من الله الذي وهبني العلم ومنحني الملكات والطاقات، وهيَّأ لي الأسباب حتى تم البناء الذي يحجز أولئك الهَمَجَ المفسدين، ويحمي هؤلاء المنكوبين المغلوبين، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾ أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ أي: مساويًا للأرض، ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ أي: كائنًا لا محالة، فأشار إلى مدة انتهاء صلاحية هذا الرَّدم وذلك عند تحقق الوعد الإلهي.

عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ أَمِّ حَبِيبَةَ، عَنْ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «**لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ...**» الحديث[(١)]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيَحْفِرُونَ**

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج: (٣٦٨/٢)، (ح٣٣٤٦)، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج: (٢٢٠٧/٤)، (ح٢) (ح٢٨٨٠).

السَّدَّ كلّ يَوْمٍ حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ، وَأَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجلّ أَنْ يَبْعَثَهُمْ إلى النَّاسِ، حَفرُوا حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَيَسْتَثْنِي، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، فَيُنَشِّفُونَ الْمِيَاهَ وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَغفًا فِي أَقْفَائِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِي نَفْسُ محمد بِيَدِهِ، إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُ شَكَرًا مِنْ لُحُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ»[١].

ثامنًا: اللَّطائف البلاغية:

١. حسن المطلع: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ [الكهف:٨٣]، فالبداية بالسؤال من بلاغة الاستهلال وروائعه، بما يسترعي الانتباه ويلفت الأنظار، ويشوّق النفوس، وفي الجواب شفاءٌ ووفاءٌ بحاجة السائل، "والتعبير بصيغة الاستقبال (ويسألونك) لاستحضار الصورة الماضية؛ لِما أن في سؤالهم على ذلك الوجه مع مشاهدتهم من أمره ما شاهدوا نوع غرابة، وقيل: للدلالة على استمرارهم على السؤال إلى ورود الجواب"[٢].

٢. ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾: قصة ذي القرنين جديرةٌ بالمذاكرة والمدارسة لما فيها من عبرٍ، وعظاتٍ، وحكمٍ، ومعانٍ، وآدابٍ، وشمائل، وفوائد للقادة والمصلحين والساسة والمربين والرَّعَايا، فكان جديرًا بأن يُذكر في أشرف الكتب، ويتردد على مسامع خير الأُمم، فهو أسوةٌ للحكام قدوة للقادة إمامٌ للمصلحين.

---

(١) حديث صحيح رواه ابن ماجة في السنن كتاب الْفِتَنِ، باب: فتنة الدجّال وخروج عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج: (٢/١٣٦٤)، (ح٤٠٨٠)، ورواه الإمام أحمد في مسنده: (٢/٥١٠)، ورواه الطبري في تفسيره: (١٨/١٠٩)، وقوله: (فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَغَفًا) بِفَتْحِ النُّونِ وَالْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ: دُودٌ يَكُونُ فِي أُنُوفِ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ جَمْعُ نَغَفَةٍ.

(٢) الألوسي، روح المعاني: (١٦/٢٤).

٣. بداية القصة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾ من حسن المطلَع وروعة الاستهلال؛ إذ قبل الحديث عن ملِكٍ من أعظم ملوك الأرض، يأتي الحديث عن ملِكِ المُلُوكِ، فهو من وَهَبَ لذي القرنين هذا المُلْك العظيم ومكَّن له، فالتمكين من الله تعالى، والتعبير بنون العظمة دليل على عظمة الله تعالى، وعظمة ما وهَبه لذي القرنين من ملك وسلطانٍ وتمكينٍ في الأرض، قال البقاعي: "ولما كانت قصته من أدلِّ دليل على عظمة الله، جلاها في ذلك المظهر فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا﴾ أي بما لنا من العظمة... ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾ بعظمتنا".[1]

٤. بلاغة الرَّبط بين الأحداث، وجمال الفواصل بينها ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا. فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾، ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾، ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾، ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ﴾، تكررت مع كلّ رحلة، وانتهاء الفاصلة بالألف المدِّية من جمال القرآن الكريم.

٥. دِقَةُ القرآن الكريم في التعبير بالفاء (فأتبع سببًا)، وبـ ثم في (ثم أتبع سببا) فالفاء تدل على الجدِّ والمبادرة إلى الأخذ بالمزيد من الأسباب، وثم تدلُّ على التراخي الزمني، بين هذه الرحلات.

٦. والتعبير بالفاء ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يشيرُ إلى همَّةٍ عالية وعزيمةٍ قويةٍ تأخذ الأمور بجدٍّ فلا توانٍ ولا تقاعُس ولا تكاسل ولا تراخ عن الأخذ بأسباب التقدُّم والنهوض، أما التعبير بثُمَّ مرتين (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) فيُشير إلى دأبه واستمراره – مع ما حصَّله واقتفاه من أسباب النهوض والتقدُّم – على طلب المزيد.

٧. قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ تنويه بمنظر الشمس عند غروبها، وتلك لفتةٌ جماليَّةٌ إلى روعة وبهاء هذا المنظر لا سيَّما حين يراهُ من يقف على الشاطئ حيث تغوص الشمس في الماء وهي تميل إلى الحمرة أو الصفرة، فيُعلِّمُنا القرآن أن نُمتِّع ناظرينا بهذا الجمال الكوني.

---

(١) البقاعي، نظم الدرر (٤/٥٠١).

٨. ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾: قدَّم العذاب الدنيوي على الأخروي؛ لأن الكافر يرعوي وينزجر بالعقاب الدنيوي، بينما قدَّم ما عند الله على ما عنده؛ لأن نفوس المؤمنين تطمح لما لها عند رب العالمين، وتستشرف هذا الثواب المدَّخر، وتتشوَّفُ لنصيبها في الآخرة.

٩. جاء التعبير بسوف: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ للدلالةِ على إمهاله لهم حتى تُقام عليهم الحجج، فإن هم أصرُّوا على كفرهم وظلمهم فقد استوجبوا العقاب، كما أن (سوف) أبلغ من (السِّين)، وفي ذلك إمعانٌ في تهديدهم إن لم يتوبوا. قال أبو حيان: "وأتى بحرف التنفيس في ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ لما يتخلل بين إظهاره كفره وبين تعذيبه من دعائه إلى الإيمان وتأبِّيه عنه، فهو لا يُعاجلهم بالقتل على ظلمهم، بل يدعوهم ويذكرهم فإن رجعوا وإلاّ فالقتل".[(١)]

١٠. ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾: تقديم (فَلَهُ) للاعتناء والتخصيص، وتأخير (الحُسْنَىٰ) للتشويق مع مراعاة الفاصلة، مع فصاحة التركيب.

١١. **المقابلة بين الظلم والإيمان**: والأصل المقابلة بين الإيمان والكفر؛ لأن الكافر لا يُعاقب دُنيويا على كفره فحسب، بل يُعاقب على ظلمه واعتدائه.

١٢. "التشبيه البليغ ﴿جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أي: كالنار في الحرارة وشدة الاحمرار، حُذفت أداة التشبيه ووجه الشبه، فأصبح بليغًا".[(٢)]

١٣. **بلاغة الإيجاز في تعدُّد القراءات مع ثَـرَاءِ المعنى ووفائه**: يتجلى ذلك في قراءة: (عين حمئة)، (عين حامية)، (يُفقِهون)، (ويَفْقَهُون).

١٤. ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾: دِقَـةُ القـرآن الكـريم في (فمـا اسطاعوا)، (وما استطاعوا): قال البقاعي: "وزيادة التاء هنا تدل على أن العلوَّ عليه أصعب

---

(١) أبو حيان، البحر المحيط: (١٥٦/٦).

(٢) الصابوني مُحمد علي، صفوة التفاسير، ط. دار الصابوني القاهرة، ط.١ (١٤١٧هـ): (١٩١/٢).

من نقبه؛ لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس في علو الجبل".[1] فلما كان اعتلاء السَّد أيسر من نقبه كان الفعل (فما اسطاعوا أن يظهروه)، (وما استطاعوا له نقبًا)، فناسب كلّ فعل متعلّقَهُ، لأن نقْبَهُ فيه مشَّقة وكُلفةٌ عن صعوده، فكانت زيادة التاء مناسبة.

١٥. رعاية الفاصلة كما في ختام الآيات: ذكرًا، سترًا، خبرًا.

تاسعًا: دروس وعبر:

١. من عوامل النهوض وأسباب الرُّقيّ: الأخذُ بالأسبابِ المُعِينَةِ على ذلك من الإيمانِ الخالصِ والعلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ، مع الإخلاص، والتجرُّد، والتوكل، واليقين، وعلو الهمة.

٢. العقيدة الصحيحة والإيمان الراسخ من صفات ذي القرنين، لاحِظْ كثرة ترْدِيده لكلمة ربي، حتى لا تكاد تمرّ جملة إلا ويذكرها: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ﴾. ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾. ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾، وفي هذا تعظيمٌ لله ومحبةٌ له، وترسيخٌ للعقيدة، وشكرٌ وامتنانٌ.

٣. النظر والتأمل والاستمتاع بروائع الكون وظواهره الخلابة، كمنظر الشمس وهي تغرب، فيلتقي قرصها وهو آخذٌ بالاحمرار مع زرقة البحار، في مشهد يأخذ بالأبصار.

٤. لا تزال هناك أممٌ متخلفة عن ركب الحضارات، وقبائل تعيش في أصقاع الأرض، في جزر نائية أو أدغال، أو قمم جبال منعزلة تماما عن البشرية وتلك مسؤولية الهيئات الدولية والأمم المتحضرة أن تمد يد العون.

٥. قيام الحضارات لا يتأتى بين عشية وضحاها؛ بل يأتي بعد جهدٍ جهيدٍ، وصبرٍ جميلٍ، وإعدادٍ جيِّدٍ وتخطيطٍ محكمٍ، والأمم إن لم تنهض وتتقدم، فإنها تتقاعس وتتخلف.

٦. الحضارة الراشدة تبعث في النفس روح النهوض والأمل، وتنمي مَلَكَةَ الابتكار والتطوير، ويسعى المسلمون لنشر روح الحضارة والرقي في كافة بقاع الأرض؛ ليعم الخير الجميع.

---

(١) البقاعي، نظم الدرر (٤/٥٠٥).

٧. ضرورة التخطيط الواعي المقترن بالتنفيذ المحكم لإصلاح البلاد والنهوض بها.

٨. حتى تصل رسالة التوحيد إلى الأمم والشعوب التي لم تصلها بعد، لا بد وأن نكون أمة متحضرة متقدمة حتى يسمع العالم لنا، فهذا ذو القرنين يستمع العالم له، ويُشيدُ بعدله، ويحتمي بسلطانه.

٩. في قصة ذي القرنين نموذجٌ رائعٌ ومثالٌ واقعيٌّ للقائدِ الراشدِ، والحاكمِ العادلِ، والفاتحِ المؤيَّد، الذي يمكّنه الله في الأرض، ويُيسر له الأسباب؛ فيبلغ مشارق الأرض ومغاربها؛ فلا يتجبَّر ولا يتكبَّر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للكسب المادي، واستغلال الأفراد وابتزاز الشعوب، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق؛ ولا يُسخِّر أهلها في أغراضه وأطماعه. إنما ينشر العدل في كلّ مكان يحلُّ به، ويساعد المتخلفين المستضعفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسَّرها الله له في التغيير والإصلاح، ودفع العدوان، وإحقاق الحق، وهكذا كانت الفتوحات الإسلامية في عهودها الأولى.

١٠. ضرورة إعداد الجيوش المسلمة وتجهيزها بأحدث التقنيات مع إعداد الجنود والقادة، فلا سبيل إلى إزاحة الأنظمة المستبدة، وحماية المستضعفين، وتمهيد طريق الدعوة، وتأمين المدعُوِّين، ونشر العدالة والرحمة، إلا بما شرع الله من جهاد.

١١. الحزم في الأمور من صفات القائد والحاكم تأمل قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف:٨٧].

١٢. العدلُ في العقوبة، فلا يتجاوز الحاكم حدود الشرع فيها، والإحسان في المكافأة والإثابة.

١٣. الأدب مع الله: ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ لمَّا ذكر ما أعد الله له من الحسنى جزاءً، لم يُناسب أن يذكر جزاءه بالفعل، بل اقتصر على القول أدبًا مع الله تعالى، وإن كان يعلم أنه يُحسن إليه فعلاً وقولاً.

١٤. في تخيير ذي القرنين رحمه الله بين أن يُعذبهم، وبين أن يتخذ فيهم حُسْنًا، ما يدلُّ على ما كانوا عليه من ظلمٍ بيِّنٍ، وصدٍّ عن الحق، مما يستوجبُ معاقبتَهم، وفي هذا ما يُرشدُ إلى

وجوب مجابهة الظالمين، وكفِّهم عن ظلمهم.

١٥. التيسير في القول والفعل من مقاصد الشريعة ومظاهرها، وهو واجبٌ شرعيٌّ على الحكام والمسؤولين، فينبغي مراعاته سيّما لمن هو أهله من أهل الصلاح والاستقامة.

١٦. الحاكم المسلم بمعاونة جنده وشعبه مسؤول عن حماية البلاد وصد أي عدوان ومجابهة المخاطر والتحديات، قال ابن العربي: "وَعَلَى الْمَلِكِ فَرْضٌ أَنْ يَقُومَ بِحِمَايَةِ الْخَلْقِ فِي حِفْظِ بَيْضَتِهِمْ، وَسَدِّ فُرْجَتِهِمْ، وَإِصْلَاحِ ثَغْرِهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ الَّتِي تَفِيءُ عَلَيْهِمْ، وَحُقُوقِهِمْ الَّتِي يَجْمَعُهَا خَزَنَتُهُمْ تَحْتَ يَدِهِ وَنَظَرِهِ، حَتَّى لَوْ أَكلتها الْحُقُوقُ، وَأَنْفَدَتْهَا الْمُؤَنُ، وَاسْتَوْفَتْهَا الْعَوَارِضُ، لَكَانَ عَلَيْهِمْ جَبْرُ ذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَعَلَيْهِ حُسْنُ النَّظَرِ لَهُمْ، وَذَلِكَ بِثَلَاثَةِ شُرُوطٍ: **الْأَوَّلُ**: أَلَّا يَسْتَأْثِرَ بِشَيْءٍ عَلَيْهِمْ. **الثَّانِي**: أَنْ يَبْدَأَ بِأَهْلِ الْحَاجَةِ مِنْهُمْ فَيُعِينُهُمْ. **الثَّالِثُ**: أَنْ يُسَوِّيَ فِي الْعَطَاءِ بَيْنَهُمْ عَلَى مِقْدَارِ مَنَازِلِهِمْ، فَإِذَا فَنِيَتْ بَعْدَ هَذَا ذَخَائِرُ الْخِزَانَةِ وَبَقِيَتْ صِفْرًا، فَأَطْلَعَتْ الْحَوَادِثُ أَمْرًا بَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ قَبْلَ أَمْوَالِهِمْ، فَإِنْ لَمْ يُغْنِ ذَلِكَ فَأَمْوَالُهُمْ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ عَلَى تَقْدِيرٍ، وَتُصْرَفُ بِأَحْسَنِ تَدْبِيرٍ. فَهَذَا ذُو الْقَرْنَيْنِ لَمَّا عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَالَ قَالَ: لَسْت أَحْتَاجُ إلَيْهِ، وَإِنَّمَا أَحْتَاجُ إلَيْكُمْ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ، أَيْ اخْدِمُوا بِأَنْفُسِكُمْ مَعِي، فَإِنَّ الْأَمْوَالَ عِنْدِي وَالرِّجَالَ عِنْدَكُمْ؛ وَرَأَى أَنَّ الْأَمْوَالَ لَا تُغْنِي دُونَهُمْ، وَأَنَّهُمْ إنْ أَخَذُوهَا أُجْرَةً نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُ إلَيْهِ، فَعَادَ عَلَيْهِمْ بِالْأَخْذِ، فَكَانَ التَّطَوُّعُ بِخِدْمَةِ الْأَبدَانِ أَوْلَى"[(١)].

١٧. ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ في هذا نموذجٌ يُحتذى لخطاب الحكّام والسّاسة، وترسيخٌ لمعاني الرُّبوبية، وتذكيرٌ بآثارها، وفيه ما يدل على محبةٍ، وتعظيمٍ، وعبوديةٍ، وتسليم لله تعالى، فهو وإن قاد العالم لكنَّهُ ينقاد لخالقه وبارئه.

١٨. خطاب الحاكم وكلماتُه لا بد وأن يُعنى فيها بالترغيب والترهيب، ويذكِّر دائمًا بأمور الآخرة لما في ذلك من بالغ الأثر في إصلاح القلوب وتهذيب النفوس وحفز الهمم لثواب الآخرة.

١٩. من صفات الحاكم والقائد الرحمة، فالرحمة من كريم الشمائل، ومن الواجبات والمقاصد

(١) ابن العربي، أحكام القرآن: (٣/٢٤٣).

الشرعية مهمة الحاكم تحقيقها ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

٢٠. الحاكم المسلم لا بد وأن يكون مؤهلاً بمعارفه الواسعة، وثقافاته المتشعبة، وفقهه بأمور الدين والحياة.

٢١. أهمية تعلم اللغات؛ للتفاهم، والتواصل، والتعاون مع الشعوب، قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كلّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾: "علمًا، مِنْ ذَلِكَ تعليم الألسنة، كَانَ لا يعرف قومًا إلا كلمهم بلسانهم".(١)

٢٢. الحاكم العادل يعطي الرعيَّة أكثر مما تطمح إليه، حيث بنى لهم سدًّا منيعًا دون مقابل ماديٍّ.

٢٣. الأخذ بالأسباب وإعداد العدّة للأسفار البعيدة بما يناسبها، والهمة العالية والعزيمة القوية لبلوغ الأهداف.

٢٤. التأكيد على أهمية طلب العلم والتزوُّد بالمعرفة، والسؤال عما يجهله الإنسان، أو السؤال للتثبت من الإجابة، والسؤال هو المفتاح الثاني بعد القراءة لطلب المعارف والعلوم واكتشاف المجهول.

٢٥. حرص الحاكم القائد على نشر أصول الحضارة والمدنية في دائرة ملكه وخارجها.

٢٦. من صفات الإمام العادل أنه حربٌ على أعداء الله، وسِلْمٌ لأولياء الله، يُدني أهل الطاعة ويُباعد أهل المعصية، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويذكِّرُ دائمًا بفضل الله ورحمته، ومن واجبه أن يصون البلاد من كلّ مكروهٍ.

٢٧. في حبس ذي القرنين ليأجوج ومأجوج وراء الردم: دليلٌ على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، لمعاقبتهم ومنع شرّهم وتقويم سلوكهم، قال القرطبي: "فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى اتِّخَاذِ السُّجُونِ، وَحَبْسِ أَهْلِ الْفَسَادِ فِيهَا، وَمَنْعِهِمْ مِنَ التَّصَرُّفِ لِمَا يُرِيدُونَهُ، وَلَا يُتْرَكُونَ وَمَا

(١) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: (٩/٢٣٠).

هُمْ عَلَيْهِ، بَلْ يُوجَعُونَ ضَرْبًا وَيُحْبَسُونَ أَوْ يُكلَّفُونَ وَيُطْلَقُونَ".[1]

٢٨. ومن الفوائد المستفادة: والقواعد المستنبطة: دفع الشر بأيسر ما يندفع به، ذلك أن ذا القرنين مع حزمِهِ وقوته رأى أن بناء السَّد كافٍ في دفع أذى يأجوج ومأجوج دون الحاجة لإراقة الدماء.

٢٩. ومن الفوائد العظيمة من هذه القصة الكريمة: شُكر المنعم وإجلالُهُ والتواضع لعظمته والإقرار بفضله: قال السعدي: "فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى موليها، وقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: من فضله وإحسانه عليَّ، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا منَّ الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام، لمَّا حضر عنده عرش مِلكَةِ سبأ مع البعد العظيم، قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ [النمل: ٤٠]، بخلاف أهل التجبُّر والتكبر والعلو في الأرض، فإن النعم تزيدهم أشرا وبطرا"[2].

٣٠. سرعة تحقيق العدالة، وإنجاز الأعمال التي تجلب المصالح أو تدفع المضار للأمم والشعوب، فالعدالة البطيئة ظلم، والتواني في إنجاز المشاريع الكبرى الضرورية مفسدةٌ عظيمة.

٣١. السياحة في الأرض والتِّجوال فيها لا بدَّ أن تكون هادفةً بنَّاءةً، لا لمجرد المتعة والتسلية، بل لنشر قيم العدالة والخير. والسياحة تؤدي إلى تلاقح الأفكار وتبادل الخبرات، فضلاً عن تقارب الأمم والشعوب ولقاء الحضارات.

٣٢. السعي إلى غوث الملهوف ونصرة المظلوم دون تردُّدٍ أو تقاعس.

٣٣. أهمية الصناعات الثقيلة وأثرها في حالة السلم والحرب.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٥٩).

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (ص٤٨٦).

٣٤. العلم والمعرفة والخبرات مِلْكٌ للإنسانية ليس لأحد أن يحتكرَها.

٣٥. ربط الأعمال كلّها بمشيئة الله سبحانه.

٣٦. التَّعاون والعمل الجماعي يُساعد في إنجاز المهمّات الكبرى.

٣٧. يُعدُّ القرآن الكريم منهجًا للحياة، لذلك ضرب لنا القرآن أروع الأمثلة بذكره لقصص الأنبياء والصالحين.

٣٨. ما من جانب من جوانب التأسي إلا وتجد في القصص القرآني مثالاً له، التأسي في مكارم الأخلاق، وفي القيم والآداب، التأسي في القيادة الراشدة، والإمامة العادلة التأسي في الحكم والقضاء، التأسي في الدعوة والإصلاح، التأسي في البناء والتشييد، التأسي في الأخذ بالأسباب للنهوض والتحضُّر.

٣٩. أهميةُ التذكير بالقصص القرآني ومدارسته فهو من كنوز القرآن الكريم.

٤٠. ضرورة تدريس هذه القصة خصوصًا لمن يتأهل للقيادة؛ ففيها العبر والفوائد.

٤١. أهمية وفضل الحاكم المسلم والقائد المسلم، فكلاهما رحمةٌ بالعباد وخيرٌ وبركةٌ للبلاد.

٤٢. الرحلات الثلاث دليل على أن أقصى المغرب والمشرق كان مأهولاً بالسكان منذ آلاف السنين، ولك أن تُقارن بين هذه الرحلات الدعوية الإصلاحية، وبين الكُشوف الجغرافية وما ترتب عليها من نهبٍ لثروات الشعوب، وسفكٍ لدمائهم واستئصالٍ، واستعبادٍ، واحتلالٍ؛ وبين هذه الرحلات المباركة التي حملت مشاعل النور وقوافل الخير للإنسانية.

٤٣. أثر المناخ والتضاريس في اختلاف طبائع الأمم، وعاداتها، وتنوع أنشطتها.

٤٤. دقة القرآن الكريم في التعبير بـ (وَجَدَهَا) لأن ذلك بحسب الرَّائي، وليس كما يتوهم البعض أن الشمس تغرب في ماءٍ وطين!

٤٥. استخدام ذي القرنين الهندسة العسكريّة، والهندسة الكيميائيّة، بإضافة النّحاس المُذاب إلى خام الحديد مع تسخينه فيُعطي صلابة ومتانة.

المقطع الثالث
خاتمة السُّورة

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ٩٩-١١٠].

أولاً: المناسبة:

جاءت خاتمة السُّورة الكريمة مُتَّسقةً مع سياقها ومحورها؛ حيث بيَّنت جزاء المخدوعين المفتونين الذين اغتروا بزُخرفِ القولِ وانقادوا للأهواءِ فغرقوا في خِضَمِّ الفتن، وتاهوا في شعابِها السحيقة، وفي المقابل تذكرُ خاتمة السُّورة عاقبة من عصمهم الله تعالى ونجّاهم من الفتن، فكانت لهم جنات الفردوس نزلاً، ثم تختم السُّورة بما بدأت من حديثٍ عن كلمات الله التي لا يُحصيها عدٌّ، ثم العودُ إلى التذكير بطريق العصمة والنجاة والفوزَ والرضوان، وهو طريق سهلٌ واضحٌ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾.

ثانيًا: معاني المفردات:

﴿يَمُوجُ فِي بعض﴾: أي يضطربون اضطراب البحر، يختلط إنسهم وجنهم من شدة الهول.

﴿نُزُلاً﴾: النُّزُل مَا يُقَام للضيف. والتعبير هنا فيه تهكُّمٌ بهم.

﴿غِطَاءٍ﴾: الْغِطَاءُ مَعْرُوفٌ وَجَمْعُهُ أَغْطِيَةٌ، وَهُوَ مِنْ غَطَّى إِذَا سَتَرَ.

﴿حَبِطَتْ﴾: أصل الحبط من الحَبَطِ، وهو أن تُكثر الدَّابة أكلاً حتى ينتفخ بطنها، فكذلك العمل وإن تعاظم فلا قيمة له ولا وزن.

﴿الْفِرْدَوْسِ﴾: الجنة من الكرم خاصة، وقيل: بل ما كان غالبها كرمًا. وقيل: كلّ ما حوط فهو فردوس والجمع فراديس، والفردوس فيما سمعت من العرب: الشجر الملتف والأغلب عليه من العنب.وفي دمشق باب الفراديس يخرج منه إلى البساتين.

﴿حِوَلاً﴾: الحول التحول، يُقال: حال من مكانه حولاً، كقولك عَادَنِي حُبُّهَا عِوَدًا، يعني: لا مزيد عليه، والحول بكسر الحاء، وفتح الواو، مصدرٌ بمعنى التحوّل، يُقال: حال عن مكانه حولاً، فهو مصدرٌ كالعوج والصغر.

﴿مِدَادًا﴾: اسم ما تمد به الدواة من الحبر، وما يمد به السراج من السليط، ويقال: السِّماد مداد الأرض.

ثالثًا: الإعراب:

- قوله: ﴿يَمُوجُ﴾: مفعولٌ ثانٍ لـ (تَرَكْنا) والضمير في (بعضَهم) يعودُ على (يَأْجُوج ومَأْجوج) أو على سائر الخلق.
- قوله: ﴿يومئذ﴾: التنوينُ عِوضٌ من جملةٍ محذوفة. تقديرُها: يوم إذ جاء وَعْدُ ربي، أو إذ حَجَرَ السَّدُّ بينهم.
- قوله: ﴿الذين كَانَتْ﴾: يجوزُ أَنْ يكونَ مجرورًا بدلاً من (للكافرين) أو بيانًا أو نعتًا، وأن يكونَ منصوبًا على الذم، وأن يكونَ مرفوعًا خبرَ ابتداءٍ مضمر.
- قوله: ﴿أَعْمَالاً﴾: تمييزٌ للأَخْسَرين، وجُمِعَ لاختلافِ الأنواع.

○ قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ العامَّةُ على الياءِ مِنْ تحتُ، عُطِفَ بها على أمرٍ. ورُوي عن أبي عمروٍ ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ بالتاءِ مِنْ فوقُ خطابًا على الالتفات من الغَيْبة إلى الخطاب ثم التُفِتَ في قوله ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِ﴾ إلى الأول.[1]

رابعًا: المعنى الإجمالي:

من أهوال القيامة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الكهف: ٩٩-١٠٢].

لمَّا فرغ ذو القرنين من بناء السَّد الذي صار حاجزًا بين يأجوج ومأجوج والبلدان المنكوبة، فمُنِعُوا من الخروج، ومَاجَ بعضهم في بعضٍ خلف هذا البنيانِ المَشِيَّدِ، وقيل هذا الْتفات لِما يجري قبل قيام الساعة من شدة الزِّحام واختلاط الناس، وقيل عند انفتاق السدِّ وخروج يأجوج ومأجوج، واختلاطهم بالناس وما يحدث من هرجٍ ومرجٍ[2]. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ النفخة الثانية التي تجمع الناس جمعا عظيما هائلا، كما قال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[الزمر: ٦٨]، وكما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ أَبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ أَبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ**

---

(١) يُراجع السمين الحلبي، الدُّر المصون في علوم الكتاب المكنون: (٧/٥٥١: ٥٥٨).

(٢) يراجع للخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: (٤/٣٣٦)، وللنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: (٥/٢١٢)، وللشوكاني، فتح القدير: (٤/٤٣٠).

يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ وبعظمتنا عرضنا جهنم هذا اليوم للكافرين عرضًا هائلاً رهيبًا، ومعنى عرض جهنم: إبرازها وكشفها للذين عموا عنها في الدُّنيا، وفي ذلك نوع من العقاب للكفار لما يتداخلهم من الغم والفزع، أي عرضًا فظيعًا هائلاً لا يُقادَر قدرُه، وتخصيصُ العَرض بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمعِ قاطبةً لأن ذلك لأجلهم خاصة، عَنْ عبدالله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كلّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»**[2].

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾: الذين كانوا في غفلة وإعراض عن النظر في آيات الله والتفكر والاعتبار، نفى عنهم السمع، أي: لا يقدرون على الاستماع لِما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾أحسبوا أن ما عبدوه من دون الله ينفعهم؟ ويشفع لهم عند الله؟ ويدفع عنهم عذابه؟ فقد أعددنا لهم نُزلاً يُناسبُ جُرمَهم، ولو أمعنوا النظر وأصغوا السمع؛ لتراجعوا عن هذه الحسابات الخاطئة والمزاعم الواهية.

فتنة الأهواء:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف:١٠٢-١٠٦].

المناسبة: بعد إنكاره عليهم اتخاذهم عباد الله أولياء من دونه، بيَّنَ تعالى خُسْرانهم المبين،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير: (ح٤٥٣٦)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: ما بين النفختين: (ح١٤١) - (ح٢٩٥٥).

(٢) صحيح مسلم كتاب الجنة وصِفَةُ نعيمها وأهلها، باب: في شدة حرّ نار جهنم، وبُعْدِ قعرها، وما تأخذ من المعذبين: (ح٢٩) - (ح٢٨٤٢).

وضلالهم البعيد، وتقليدهم الأعمى، وتعصبهم المقيت لما هم عليه؛ بسبب فتنة الأهواء التي تُزيِّنُ القبيح، فجمعت السُّورة الكريمة بين فتنة الدُّنيا، وفتنة إبليس، وفتنة الهوى، حتى يكون المسلم على حذرٍ، ويسلك طريق العصمة من هذا الخطر.

قل يا أيها النبي لأولئك الكافرين: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالاً؟ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾، فمِن أشدِّ الفتن وأعظمها خطرًا وأعمقها أثرًا فتنة الأهواء، حين يُعجب أهل الباطل بما هم عليه من ضلال وزيغ، بل ويتعَّصبون لباطلهم؛ لموافقته هواهم، وإن خالف الأدلة الشرعية، والفطرة النقيَّة، والعقول الراجحة، فتراهم يتهربون من سماع الحق والنظر في أدلته وبراهينه، ولا يُسلِّمون بالحججِ، فيؤثرون الهوى على الحق، ويشترون الضلالة بالهدى. شأن أصحاب الملل الوضعية والمحرفة والمذاهب الضالة، ممن انتصروا لأهوائهم، وتعصّبوا لآرائهم، وانخدعوا ببريق الدُّنيا، وتعلقوا بسرابها، واغترُّوا بالمال، أو انحازوا إلى السُّلطان، وتفاخروا بالأهل والعشيرة. وهذا بيانٌ لحال الكفرة باعتبار ما صدَر عنهم من الأعمال الحسَنةِ في أنفسها وفي حُسبانهم أيضًا حيث كانوا معجَبين بها واثقين بنيل ثوابِها ومشاهدةِ آثارِها. روى البخاري في صحيحه بسنده عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: "سَأَلْتُ أَبِي ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾: هُمْ الْحَرُورِيَّةُ؟ قَالَ: لَا: هُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: أَمَّا الْيَهُودُ: فَكَذَّبُوا مُحمدا ﷺ وَأَمَّا النَّصَارَى: فَكَفَرُوا بِالْجَنَّةِ، وَقَالُوا لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ، وَالْحَرُورِيَّةُ هم ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧]، وَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمْ الْفَاسِقِينَ"[(١)].

فالأخسرون أعمالاً، هم: "الذين أتعبوا أنفسهم في عملٍ يبتغون به ربحًا وفضلاً، فنالوا به عَطَبًا وهلاكًا، ولم يدركوا طلبًا، كالمشتري سلعة يرجو بها فضلاً وربحًا، فخاب رجاؤه، وخسر بيعه، ووكِسَ في الذي رجا فضله"[(٢)].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٥/٢٠١)، والحرورية نسبة إلى حروراء قريةٌ انحاز إليها الخوارج فنُسِبُوا إليها.

(٢) الطبري، جامع البيان: (١٨/١٢٥).

وقال ابن العربي: "... وَيَرْجِعُونَ فِي الْجُمْلَةِ إلى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ:

الصِّنْفُ الْأَوَّلُ: الْكُفَّارُ بِاَللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْأَنْبِيَاءِ، وَالتَّكليفِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ زَيَّنَ لِكلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ، إنْفَاذًا لِمَشِيئَتِهِ، وَحُكْمًا بِقَضَائِهِ، وَتَصْدِيقًا لِكلامِهِ.

الصِّنْفُ الثَّانِي: أَهْلُ التَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ الدَّلِيلِ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران:٧]، كَأَهْلِ حَرُوراءَ وَالنَّهْرَوَانِ، وَمَنْ عَمَل بِعَمَلِهِمْ الْيَوْمَ، وَشَغَبَ الْآنَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ تَشْغِيبَ أُولَئِكَ حِينَئِذٍ، فَهُمْ مِثْلُهُمْ وَشَرٌّ مِنْهُمْ.

الصِّنْفُ الثَّالِثُ: الَّذِينَ أَفْسَدُوا أَعْمَالَهُمْ بِالرِّيَاءِ وَضَيَّعُوا أَحْوَالَهُمْ بِالْإِعْجَابِ، وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى الْبَيَانِ فِي ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ، وَيَلْحَقُ بِهَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ كَثِيرٌ، وَهُمْ الَّذِينَ أَفْنَوْا زَمَانَهُمْ النَّفِيسَ فِي طَلَبِ الْخَسِيسِ"[(١)].

وقال ابن كثير: "أي: بطل عملهم واجتهادهم في الدُّنيا، وهم يظنون أنهم محسنون بأفعالهم، فرؤساؤهم يعلمون الصحيح، ويؤثرون الباطل لبقاء رئاستهم، وأتباعُهم مقلّدون بغير دليل"[(٢)].

فالآية عامة في كلّ من عبدالله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مُصيبٌ فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤﴾ [الغاشية:٢-٤]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

عاقبة الأخسرين أعمالاً:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝١٠٦﴾ [الكهف: ١٠٥-١٠٦]، فهؤلاء الأخسرين لا قيمة لهم ولا وزنٌ لهم عند الله تعالى، وذلك يدلُّ على خِسَّتهم، وحقارتهم، وضلال سعيهم، كما لا يثقل لهم ميزانٌ يوم

(١) ابن العربي، أحكام القرآن: (٣/٢٤٤) بتصرف.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٥/٢٠٢).

القيامة، بل الوزن عليهم لا لهم، إذ لا يعتدُّ بما جاءوا به. وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ اقْرَءُوا:** ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾»[1].

بُشْرَى للمؤمنين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾ [الكهف:١٠٧-١١٠].

حقًّا ويقينًا الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصَّالحة، جديرون بأعالي الجنات وأرفعها مقامًا ومنزلةً، فهي منزلهم ومقامهم، تكريمًا من الله لهم ورحمة بهم، وتفضلاً عليهم، وهذه بشرى لأهل الإيمان والصلاح الذين عصمهم الله من رياح الفتنِ وأعاصير الغواية، فاستحقوا الفوزَ بأعالي الجنات، والخلود فيها، والتنعم بخيراتها المتنوعة، ولذَّاتها المتجددة، فلا يملُّون ولا يفتُرُون ولا يتحولون عنها، كيف وقد جمعت معاني الحسن، قال أبو السعود: "أي لا يطلبون تحولاً عنها؛ إذ لا يُتصور أن يكون شيء أعز عندهم وأرفع منها، حتى تنازعهم إليه أنفسهم، وتطمح نحوه أبصارهم"[2].

وقد جاء في الحديث الصحيح قولُ نبيّنا ﷺ: «**... فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ**»[3].

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)﴾

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: من سورة الكهف: (ح٤٤٥٢)، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب صِفَةُ القيامة والجنّة والنّار،باب.١:(ح١٨)، (ح٢٧٨٥)

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٥/٢٥١).

(٣) رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ، كتاب الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله: (ح٢٧٩٠).

[الكهف:١٠٩]،: يأتي الختامُ وقد حوى جوامعَ الكَلِم، ونَاسَبَ ما جاء في مقدمة السُّورة الكريمة وثناياها من آيات بيّناتٍ وحُجَجٍ نيّرَاتٍ. فكلمات الله تعالى لا منتهى لها، فهي بحر لا ساحل له، ونهرٌ لا ينضب، وعطاءٌ لا ينفدُ، وكنوزٌ لا تُحصى، فلو كانت كلّ قطرة من بحار الدُّنيا مدادًا، ولو استحالت جذورُ الأشجار وجذوعُها وأغصانُها أقلامًا، لتكتب بها كلمات الله، لنفد المداد والأقلام قبل أن تنفد كلمات الله. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧﴾ [لقمان:٢٧].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾ [الكهف:١١٠]: خُتمت السُّورة الكريمة بما بدأت به من بيان مهمته ﷺ وطبيعته فهو بشر كسائر البشر، جاء بوحي من الله تعالى يهدف إلى تصحيح العقيدة، وإخلاص الدين، وإصلاح الدُّنيا، ونعيم الآخرة.

فمن كان في شوقٍ للقاء مولاه، راجيًا رضاه فليُعدَّ لهذا اللقاء زادَه وعُدَّتَهُ.

خامسًا: الهِدايات المستنبطة من الخاتمة:

- في تذكُّرِ أهوال يوم القيامة واستحضار مشاهدها: تسليةٌ وتثبيتٌ، وعظةٌ واعتبارٌ لأهل الحقِّ، وترهيبٌ للمُعرِضين المفتونين.
- من أشدِّ الفتن وأعظمها خطرًا وأعمقها أثرًا: فتنة الأهواء حين يُعجب أهل الباطل بما هم عليه من ضلالٍ وزيغٍ، بل ويتعصبون لباطلهم، لموافقته هواهم، وإن خالف الفطرة النقيَّة والعقول الراجحة.
- زفَّت لنا خاتمةُ السُّورة الكريمة بُشرى لأهل الإيمان والصلاح الذين عصمهم الله من رياح الفتنِ وأعاصير الغواية، فاستحقوا الفوزَ بأعالي الجنات، والخلود فيها، والتنعم بخيراتها المتنوعة ولذاتها المتجددة.
- كلمات الله تعالى لا منتهى لها، فهي بحر لا ساحل له، ونهرٌ لا ينضب، وعطاءٌ لا ينفدُ، وكنوزٌ لا تحصى.

- نبينا ﷺ بشرٌ كسائرِ البشرِ، جاء بوحي من الله تعالى يهدف إلى تصحيح العقيدة، وإخلاص الدين، وإصلاح الدُّنيا، ونعيم الآخرة.

سادسًا: البلاغة:

- استعارةٌ تَبَعيّة ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾: شبّههم لكثرتهم وتداخل بعضهم في بعضٍ بموج البحر المتلاطم، واستعار لفظ يموج لاضطرابهم واختلاطهم.
- ﴿جمعًا﴾: المصدر لتهويل هذا الجمع وتعظيمه، أي: حشْدًا عظيمًا هائلاً.
- ﴿عَرْضًا﴾: المصدر لتهويل هذا العرض وتعظيمه، أي: عرضًا عظيمًا هائلاً. وفي التهويل ترهيب للنفس كيف تتزود لآخرتها وتؤوب لربها، وزجرٌ للكافر عن كفره، ووعيدٌ له بهول الموقف.
- **الاستفهام الإنكاري التوبيخي**: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الكهف:١٠٢].
- **العدول عن الضمير للاسم الظاهر**: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الكهف:١٠٢]. قال الألوسي: "لِلْكافِرِينَ المعهودين عدل عن الإضمار ذمًا لهم وإشعارًا بأن ذلك الاعتداد بسبب كفرهم المتضمن لحسبانهم الباطل"[(١)].
- **التهكم في**: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الكهف:١٠٢]: فالنُّزُل في الأصل محل الضيافة والإكرام، ونظيره ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان:٤٧-٤٩]. ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، قال أبو السعود: "وفيه تخطئةٌ لهم في حسبانهم وتهكُّمٌ بهم حيث كان اتخاذُهم إياهم أولياءَ من قَبيل إعداد العتادِ وإعدادِ الزَّاد ليوم المعاد، فكأنه قيل: إنا أعتدنا لهم مكان ما أعدّوا لأنفسهم من العُدة والذُّخْر جهنمَّ عُدّةً"[(٢)].

---

(١) الألوسي، روح المعاني: (٣٦٧/٨).

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم: (٢٤٨/٥).

- "﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ وجمع التمييز ﴿أعمالاً﴾ ولم يُفْرِد: إشارة إلى أنهم خسروا في أعمال متعددة، لا في عمل واحد".[1]
- تجنيس التصحيف "يحسبون... يحسنون" ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٠٤﴾ [الكهف:١٠٤]: وهو أن تتَّفِق الكلمتان في الرسم وتختلفان في النقط، وهذا من بديع القرآن.
- ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ [الكهف:١١٠]. "إدخال الماضي على المستقبل؛ للدلالة على أن اللَّائق بحق العبد الاستمرار والاستدامة على رجاء الكرامة من ربه، فكأنه قيل فمن استمر علم رجاء كرامته تعالى، فليعمل عملاً صالحًا في نفسه لائقًا بذلك المرجو، كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات".[2]
- **العدول عن الإضمار إلى الإظهار**: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وضع المُظْهَر موضِعَ المُضْمَرِ في الموضعين مع التعرض لعنوان الربوبية لزيادة التقرير والإغراء.
- **رعاية الفاصلة**، وهو من محاسن البديع: كما في ختام الآيات: (نزلاً، حولاً، مددًا، أحدًا).

* * *

---

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير: (١٦/٣٣).

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، (٥/٢٥١)، وعنه نقل الألوسي، روح المعاني: (٨/٣٧٣).

ملف الإنجاز/ أنشطة:

أنشطة

١. لخصي قصة موسى والخضر في (١٠) أسطر.
٢. لخصي قصة ذي القرنين في (١٠) أسطر.
٣. في ضوء دراستِك لِما تيسَّر من تفسير سورة الكهف، اذكري ثلاثة من مقاصد السُّورة.
٤. كيف نربط بين قصة موسى والخضر وبين قصة ذي القرنين؟
٥. استخرجي ثلاثًا من اللطائف البلاغية من قصة موسى والخضر.
٦. استخرجي ثلاثًا من اللطائف البلاغية من قصة ذي القرنين.
٧. ناقشي مُشْكِل الإعراب في المقاطع الثلاثة؟

ملف الإنجاز

١. اكتبي مقالاً عن القصص القرآني وأثره في التربية.
٢. اكتبي مقالاً عن القصص القرآني وأثره في الإصلاح؟
٣. اذكري خمسة مراجع عُنيت بالقصص القرآني.
٤. اكتبي مقالاً عن وجه إعجاز القصص القرآني في (١٢) سطرًا.
٥. اكتبي مقالاً عن شخصية ذي القرنين؟
٦. اكتبي مقالاً عن فضل التعلم ومكانة المعلّم؟
٧. اكتبي مقالاً عن آداب المتعلم والمعلّم؟
٨. كيف نربط بين آخر سورة الكهف وأولها؟

مصادر التعلم:

١. التفسير الكبير، للرازي.
٢. ابن عطية، المحرر الوجيز.
٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي.
٤. البحر المحيط، أبو حيان.
٥. إرشاد العقل السليم، أبو السعود.
٦. فتح القدير، الشوكاني.
٧. روح المعاني،الألوسي.
٨. نظم الدُّرر، البقاعي.

التقويم:

١. ما المناسبة بين قصة موسى والخضر عليهما السلام وما قبلها؟
٢. **بيّني معاني المفردات الآتية:** (لا أبرح، حقبًا، سرَبًا، نصَبًا، فَارْتَدَّا، قَصَصا،وَلا تُرْهِقْنِي، إِمْرًا، نُكْرًا،فَأَقَامَهُ، مكّنا له: حَمِئَةٍ، حامية، خرْجًا، سدًا، ردْمًا، زُبَرَ الحديد، الصُّدفين، قِطْرا، نقبًا، دَكًّا، يموج في بعض، نُزلاً، غِطَاء، حبطت، الْفِرْدَوْسِ، حِوَلاً، مدادًا).
٣. اذكري القراءات الواردة في ﴿حمئة، جزاء الحسنى، يفقهون﴾ مع توجيه هذه القراءات
٤. اذكري ثلاثة من فوائد قصة موسى والخضر.
٥. اذكري ثلاثة من فوائد قصة ذي القرنين.
٦. علام ينطبق قوله تعالى ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا﴾؟ وما وجه البلاغة في جمع ﴿أَعْمَالاً﴾ وما إعرابها؟

الموضوع الرابع
التفسير التحليلي لسورة النور



تمهيد:

هذه السُّورة يُذْكَر فيها النُّور بلفظه متصلاً بذات الله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ويُذْكَر فيها النُّور بآثاره ومظاهره في القلوب والأرواح ممثلة هذه الآثار في الآداب والأخلاق التي ذُكِرت في هذه السُّورة، وهي آدابٌ وأخلاقٌ نفسيَّة، وعائليَّة، وجماعيَّة، تُنير القلب، وتُنير الحياة، ويربطها بذلك النُّور الكوني الشَّامل أنها نور في الأرواح، وإشراق في القلوب، وشفافية في الضمائر، مستمدة كلّها من ذلك النور الكبير.

وقد ورد في هذه السُّورة حُجَج وتوحيد، ودلائل الأحكام، والكُلُّ آياتٌ بيّنات: حجج العقول تُرْشد إلى مسائل التوحيد، ودلائل الأحكام تُرْشد إلى وجه الحق، وترفع غُمَةَ الجهل؛ وهذا هو شرف السُّورة.

بين يدي السُّورة

اسم السُّورة:

سميَّت هذه السُّورة «سورة النور»، وتلك تسميتها في المصاحف وكتب التفسير والسنة، ولا يعرف لها اسم آخر؛ ووجه التسمية أن فيها آية ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] (١)، أي منورهما، فبنوره أضاءت السماوات والأرض، وبنوره اهتدى الحيارى والضالون إلى طريقهم، كما أنها نور لبيوتنا ولمجتمعاتنا، بما تشرقُ به من معانٍ ومقاصدٍ وأحكام.

---

(١) يُراجع: ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٣٩/١٨).

السُّورة: **مدنية**، وآياتها اثنتان وستون في عدِّ المدنيين والمكي، وأربعٍ وستين في عدِّ البقية. "اختلافهم آيتان: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، ﴿يذْهب بالأبصار﴾، وَهُوَ الثَّانِي لم يعدهما المدنيان والمكي، وعدهما الْبَاقُونَ"(١).

مناسبتها لما قبلها:

لـمَّا قال ﷻ في مطلع سورة (الْمُؤْمِنُونَ): ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥﴾ [المؤمنون:٥]، ذكَرَ هنا أحكام من لم يحفظ فرجه من الزُّناة، وما اتصل بذلك من شأن القذف، وقصة الإفك، والأمر بغض البصر الذي هو داعية الزنى، والاستئذان الذي جُعل من أجل النظر، وأمر بالتزويج حفْظًا للفروج، وأمر من عجز عن مؤن الزواج بالاستعفاف، وحفظ فرجه، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنى.

المناسبة بين افتتاحية سورة النور وخاتمتها:

افتتحت السُّورة الكريمة بتنويهٍ عن نزولها، وفرض الأحكام التي وردت فيها، حيث قال: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١﴾ [النور:١]، وهذا الإعلان يُشْعِرُ بأهميتها، ووجوب تطبيق أحكامها بصورة حاسمة، وجاء ختامها بقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾ [النور:٦٤] تذكيرًا للناس بعلم الله تعالى بأحوال عباده وأعمالهم التي سيُحاسبهم عليها يوم يُرجعون إليه؛ لِيُعدِّوا أنفسهم للسؤال أمام الله عن تلك الآيات والأحكام التي أنزلها إليهم، خاصة المذكورة في هذه السُّورة، وبذلك ردَّ الختام على المبدأ، وانسَجَمَ الآخر بالأول.

المناسبة بين خاتمة سورة النور وافتتاحية سورة الفرقان:

لـمَّا ذكر في آخر سورة النور وجوب متابعة المؤمنين للرسول ﷺ افتتح سورة الفرقان بمدح

(١) أبو عمرو الداني (ت: ٤٤٤هـ)، البيان في عدِّ آي القرآن المحقق: غانم قدوري الحمد، الناشر: مركز المخطوطات والتراث – الكويت، الطبعة: الأولى، (١٤١٤هـ – ١٩٩٤م): (ص١٩٣).

الرسول بما يستحق به الطاعة والمتابعة من المؤمنين فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١].

فضلها:

عن مجاهد أن رسول الله ﷺ قال: «عَلِّمُوا رِجَالَكُمْ سُورَةَ الْمَائِدَةِ، وَعَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّورِ»[(١)]، وقال حارث بن مضرّب رضي الله عنه: كتب إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أن تعلّموا سورة النساء، والأحزاب، والنور)[(٢)].

وعن المسور بن مخرمة، أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول: (تعلموا سورة البقرة، وسورة النساء، وسورة المائدة، وسورة الحج، وسورة النور، فإن فيهن الفرائض)[(٣)].

مقصد السُّورة: التربية الأخلاقية والآداب الاجتماعية للفرد والجماعة.

أغراض السُّورة:

شملت من الأغراض كثيرًا من: أحكام معاشرة الرجال للنساء، ومن آداب الخلطة والزيارة.

- وأوَّلُ ما نزَلت بسببه قضيَّةُ التزوُّجِ بامرأةٍ اشتُهِرَت بالزِّنى، وصُدِّر ذلك ببيان حَدّ الزنى.
- وعقاب الذين يقذفون المحصنات، وحكم اللِّعان.
- والتعرُّض إلى براءة عائشة رضي الله عنها، مما أرجفَهُ عليها أهل النفاق، وعقابهم، والذين شاركوهم في التحدث به.
- والزَّجر عن حُبِّ إشاعة الفواحش بين المؤمنين والمؤمنات.
- والأمرُ بالصَّفحِ عن الأذى، مع الإشارة إلى قضيّة مِسطح بن أثاثة.

---

(١) السيوطي، الدُّر المنثور في التفسير بالمأثور، وعَزَاهُ إلى سعيد بن مَنْصُور، وَابْن الْمُنْذر، وَالْبَيْهَقِيّ: (١٢٤/٦). وهو حديث مرسل.

(٢) أبو عبيد، فضائل القرآن: (ص١٣٥).

(٣) الحاكم، المستدرك على الصحيحين: (٤٢٩/٢)، (ح٣٤٩٣)، قال الحاكم: هذا حديث (صحيح) على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

- وأحكام الاستئذان في الدخول إلى بيوت الناس المسكونة، ودخول البيوت غير المسكونة، وآداب المسلمين والمسلمات في المخالطة.

- وإفشاء السَّلام.

- والتحريضُ على تزويج من لا زوج له من الأحرار والحرائر، والعبيد والإماء، والتحريض على مكاتبتهم، أي إعتاقهم على عوض يدفعونه لمالكيهم.

- وتحريم البِغَاء الذي كان شائعًا في الجاهلية، والأمر بالعفاف.

- وذم أحوال أهل النفاق والإشارة إلى سوء طويتهم مع النبي ﷺ.

- والتحذير من الوقوع في حبائل الشيطان.

- وضرب المثل لهُدى الإيمان وضلال الكفر.

- والتنويه ببيوت العبادة والقائمين فيها.

- وتخلل ذلك وصف عظمة الله تعالى وبدائع مصنوعاته، وما فيها من مِنَن على الناس.

- وقد أردف ذلك بوصف ما أعد الله للمؤمنين، وأن الله علم بما يُضمره كلّ أحد، وأن المرجع إليه والجزاء بيده[1].

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٨/١٤١).

عقوبة الزنا

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النور: ٣].

معاني المفردات:

سورة: جزء من القرآن مُعيَّن بمبدأ ونهاية، وأصلها من السُّور أو من المنزلة العالية، فهي طائفة من الآيات، شأن سور المدينة أو البستان الذي يُحيط بما فيه؛ فهذه السُّورة سياج للمجتمع المسلم بما اشتملت عليه من أخلاق وآداب وأحكام، ورفعة ورقي لهذا المجتمع إلى عالم الفضيلة.

﴿فرضناها﴾: فرضنا بعظمتنا وحكمتنا ما فيها من أحكام قدرناها ملائمةً لمصالح الناس.

﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾: حججًا واضحات تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

﴿لعلكم تذكرون﴾: تتعظون، والتذكر نقيض الغفلة والنسيان.

﴿الزانية﴾: مَنْ أَفْضَت إلى رجل بغير نكاح شرعي وهي غير محصنة.

﴿مائة جلدة﴾: أي ضربة بالجلدة على ظهره.

﴿رأفة﴾: شفقة، تمنعكم من إقامة الحدّ أو التقصير فيه.

﴿وليشهد عذابهما﴾: أي إقامة الحدّ عليهما.

﴿طائفة﴾: أي عدد لا يقل عن ثلاثة أنفار من المسلمين، والأربعة أولى من الثلاثة.

﴿الزاني لا ينكح إلا زانية﴾: أي إلا زانية مثله أو مشركة، أي لا يقع وطء إلا على مثله.

سبب النزول:

قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣].

روى الترمذي بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: "كان رجل يُقال له (مرثد بن أبي مرثد)، وكان رجلاً يحمل الأسرى من مكة ويأتي بهم المدينة. قال: وكانت امرأةٌ بغيٌ بمكة يقال لها (عناق) وكانت صديقة له، ذهب ليحمل رجلاً من أُسَارى مكة، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائطٍ من حوائطِ مكة في ليلة مقمرة. قال: فجاءت (عناق) فأبْصَرَتُ سوادَ ظلِّي بجنب الحائط، فلمَّا انتهت إليَّ عرفت. فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد، فقالت مرحبًا وأهلاً. هلُّم فَبِتْ عندنا الليلة، فقلت: يا عناق حرَّم الله الزنا. قالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم. قال: فتبعني ثمانية، وسلَكْتُ الْخَنْدَمَة، فانتهيت إلى غارٍ، أو كهفٍ؛ فدخلت. فجاءوا حتى قاموا على رأسي وعماهم الله عني. قال: ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهيت إلى الآخر ففككت عنه أكبله فجعلت أحمله ويعييني، حتى قدمت المدينة فأتيت ﷺ، فقلت: يا رسول الله أنكح عناقًا؟ فأمْسَكَ رسول الله ﷺ ولم يَرُدَّ عليَّ شيئًا حتى نزلت: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً﴾، فقال رسول الله ﷺ: يا مرثد ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٌۚ﴾؛ فلا تنكحها"[1].

الإعراب والقراءات:

﴿سورةٌ﴾: سورة خبر لمبتدأ محذوف، أي هذه سورة. أو مبتدأ والخبر محذوف أي فيما أوحينا إليك سورة، وساغ الابتداء بالنكرة لأنها وصفت بجملة أنزلناها.

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾: قُرِئَ بِتَخْفِيفِ الرَّاءِ، أَيْ فَرَضْنَا عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ بَعْدَكُمْ مَا فِيهَا مِنَ الْأَحْكَامِ. وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو:"وَفَرَّضْنَاهَا"بِالتَّشْدِيدِ: أَيْ أَنْزَلْنَا فِيهَا فَرَائِضَ مُخْتَلِفَةً. أَو قَطَّعْنَاهَا فِي الْإِنْزَالِ نَجْمًا نَجْمًا. وَالْفَرْضُ الْقَطْعُ. [2].

---

(١) الترمذي، السُّنن: باب: ومن سورة النور: (٥/٣٢٨)، (ح٣١٧٧)، قال الألباني: (حسن الإسناد). والخَنْدَمَة: جَبَلٌ مَعْرُوفٌ عِنْدَ مَكَّةَ. ابن الأثير الجزري: (ت: ٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العلمية – بيروت، (١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود مُحمد الطناحي (٢/ ٨٢).

(٢) (وَاخْتَلَفُوا) فِي: وَفَرَضْنَاهَا فَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو عَمْرٍو بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِتَخْفِيفِهَا تَذَكَّرُونَ، ابن الجزري، النشر في القراءات العشر (٢/٣٣٠).

فمن قرأ بالتخفيف فَمَعْنَاهُ ألزمناكم العَمَل بما فُرِضَ فيها، ومن قرأ بالتشْدِيد فَعَلَى وجهين: أحدهما على معنى التكثير، على معنى أنا فَرَضْنَا فيها فُرُوضًا كثيرةً وعلى معنى بيَّنَّا وفصلنَا ما فيها من الحلال والحرام.

﴿لا يَنكِحُ﴾: لا نافية، والفعل المضارع بعدها مرفوع، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة، والفاعل ضمير مقدَّر يعود إلى (الزاني).

البلاغة:

١. **براعة الاستهلال** وحسن المطلع وروعة الديباجة، حيث استهل الله هذه السُّورة ببيان مضمونها، وشرفها، وعظمتها، وما فيها من أحكامٍ، وحكمٍ، وآياتٍ، ومواعظ، فقال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ لَعَلَّكُمْ﴾: فلخَّصت هذه المقدمة مضمونَ السُّورة ومُحتواها، وبيّنت مقصودها وفحواها مع التنويه بعظمتها تعظيمًا وإجلالاً لأحكامها.

٢. جملة: (أَنزَلْنَٰهَا) وما عُطِف عليها في موضع الصِّفة لـ (سُورَةٌ)، والمقصود من تلك الأوصاف التنويه بهذه السُّورة؛ ليُقبل المسلمون على تلقي ما فيها؛ وينقدوا لها انقيادًا كاملاً.

٣. **حسن الترتيب** في ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾: حيث بَدَأَ بِالْمَرْأَةِ قَبْلَ الرَّجُلِ. قال ابن العربي: "قَالَ عُلَمَاؤُنَا: ذَلِكَ لِفَائِدَتَيْنِ: إحْدَاهُمَا: أَنَّ الزِّنَا فِي الْمَرْأَةِ أَعَرُّ لِأَجْلِ الْحَمْلِ، فَصَدَّرَ بِهَا لِعِظَمِ حَالِهَا فِي الْفَاحِشَةِ. الثَّانِيَةُ: أَنَّ الشَّهْوَةَ فِي الْمَرْأَةِ أَكْثَرُ، فَصَدَّرَ بِهَا تَغْلِيظًا لِرَدْعِ شَهْوَتِهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ رُكِّبَ فِيهَا حَيَاءً، وَلَكِنَّهَا إذَا زَنَتْ ذَهَبَ الْحَيَاءُ".[١] . وقال الخطيب الشربيني: "فإن قيل: لما قُدِّمت الزانية على الزاني أولاً، ثم قدم عليها ثانيًا؟ أجيب: بأن تلك الآية سِيقت لعقوبتهما على ما جنيا، والمرأة هي المادة التي منها نشأت الجناية؛ لأنها لو لم تُطمِع الرجل، ولم تمكنه؛ لم يطمع ولم يتمكن، فلما كانت أصلاً وأولاً في ذلك بُدِىء بذِكرها، وأما الثانية فمسُوقةٌ لذِكرِ النِّكاح،

(١) ابن العربي، أحكام القرآن: (٣/٣٣٣).

والرجل أصلٌ فيه لأنه؛ الراغب فيه والخاطب، ومنه يبدو الطلب"[١].

٤. دخلت الفاء ﴿فاجلدوا﴾؛ لتُضَمِّنَ الموصول معنى الشرط، كأنها وقعت في جواب الشرط، أي: من زنى ومن زنت فاجلدوا.

٥. **الإلهاب والتهييج**: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: قال القرطبي: "أفادت هذه الجملة الشرطية تهييج المخاطب، وحثّه على أن يُقيم شريعة الله دون تهاون في ذلك"[٢]. وقال الألوسي: "من باب التهييج والإلهاب، كما يُقال: إن كنت رجلاً فافعل كذا ولا شك في رجوليته، وكذا المخاطبون هنا مقطوعٌ بإيمانهم، لكن قصَدَ تهييجهم، وتحريك حميتهم؛ ليُجِدُّوا في طاعة الله تعالى، ويجتهدوا في إجراء أحكامه على وجهها"[٣].

٦. ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: خصّ المؤمنين بالذكر، للعظة والاعتبار، ولأن شهودهم مما يدعو لفرط الخجل، قال الزمخشري: "واختصاصه المؤمنين لأن ذلك أفضح، والفاسق بين صلحاء قومه أخجل"[٤].

٧. ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: الجملة خبريَّةُ اللفظ إنشائيَّةُ المعنى، المراد بها النهي عن نكاح الزاني للعفيفة أو نكاح العفيف للزانية، وإنما جاء النهي بصيغة الخبر للتأكيد والجزم.

٨. التعبير بالوصف الظاهر دون الضمير ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل عليكم، لإثارة الوجدان واستنهاض الإيمان في القلوب، وبيان كون هذا الفعل الآثم ليس من صنيع أهل الإيمان.

---

(١) الخطيب الشربيني، السِّراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٢/٥٩٨).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (١٢/١٦٠).

(٣) الألوسي، روح المعاني: (٩/٢٨٢).

(٤) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٣/٢١١).

التفسير:

هذه سورة عظيمة من القرآن أنزلناها، وأوجبنا العمل بأحكامها، وأنزلنا فيها دلالات واضحات؛ لتتذكروا – أيها المؤمنون – بهذه الآيات البينات، وتعملوا بها.

الزَّانية والزَّاني اللذان لم يسبق لهما الزواج، عقوبةُ كلّ منهما مائة جلدة بالسَّوط، ولا تحملكم الرأفة بهما على ترك العقوبة أو تخفيفها، إن كنتم مصدقين بالله واليوم الآخر عاملين بأحكام الإسلام، وليحضُرَ العقوبةَ عدد من المؤمنين؛ تشنيعًا، وزجرًا، وعظةً، واعتبارًا.

الزَّاني لا يرضى إلا بنكاح زانية أو مشركة لا تُقِرُّ بحرمة الزنى، والزانية لا ترضى إلا بنكاح زانٍ أو مشرك لا يُقِرُّ بحرمة الزنى، أما الأَعِفَّاءُ فإنهم لا يرضون بذلك، وحُرِّم ذلك النكاح على المؤمنين.

الهدايات المستنبطة:

١. بيان حكم الزانية والزاني البِكْرَيْنِ الحُرَّيْنِ، وهو جلد مائة وتغريب عام – كما بينت السُّنة – ، وأما الثَّيْبُ فالرَّجْمُ؛ إن كان حرًّا، أو جلدُ خمسين جلدة للأرقَّاء.

٢. وجوب إقامة حدُّ الزِّنا أمام طائفة من المؤمنين.

٣. لا يحلُ تزويج الزاني بعفيفة إلا بعد توبته، ولا الزانية بعفيف إلا بعد توبتها.

٤. من حكمة حدِّ الزِّنى؛ الحفاظ على الأعراض والحقوق، ومنع اختلاط الأنساب، وتحقيق العفاف والصون، وطهر المجتمع، والحيلولة دون ظهور اللقطاء في الشوارع، وانتشار الأمراض الجنسية الخطيرة، كالزّهري والسيلان، وتكريم المرأة وصونها وحمايتها.

٥. (أَنْزَلْنَاهَا) أي السُّورة، وفي هذا دليل على علو الله تبارك وتعالى وفوقيته على خلقه خلافًا لمن زعم رد الفوقية، ومذهبُ السَّلف الصالح رحمة الله عليهم: إثبات العلو لله لدلالة الكتاب والسُّنة على ذلك، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]، وهنا أشار إلى ذلك ضمنًا في قوله: (أَنْزَلْنَاهَا)، كما أشار إلى هذه الصفة ضمنًا في قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠]، والأحاديث في الدلالة على هذه الصفة مستفيضة صريحة.

٦. جملةُ: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، نَهْيٌ عن التهاون في إقامة العقوبات عمومًا والفواحش خصوصًا؛ حتى لا يدخل كثير من الناس في الدَّيَاثَةِ، وقلّةِ الغيرة.

٧. ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾: قال الألوسي: "فيه تقبيحٌ لأمرِ الزَّاني أشدّ تقبيح، ببيان أنه بعد أن رضي بالزنى لا يليق به أن ينكح العفيفة المؤمنة، والزَّانية بعد أن رضيت بالزنى لا يليق أن ينكحها إلّا مَنْ هو مثلها، وهو الزاني، أو من هو أشد حالاً منها، وهو المشرك، وأما المسلم العفيف فأسَدُ غيرته يأبى ورود جَفْرتها:

وتجتنبُ الأسودُ ورودَ ماء ... إذا كان الكلاب ولَغْن فيه"[1]

٨. قرن الله عَزَّ وَجَلَّ الزاني بالمشرك، وذلك ليشير إلى عظيم خطر الزنى وكبير ضرَرِه، وذلك جُرْمٌ من أعظم الجرائم الاجتماعية، يهدم بنيان الأسرة، ويحطم كيان المجتمع ولهذا قرنهما الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨﴾ [الفرقان:٦٨].

الحكمة:

حرَّم الإسلامُ الزّنا؛ لِما فيه من اختلاطٍ للأنسابِ، وهَتْكٍ للحرمات، ومهانة للكرامات، فوق ما فيه من أمراض فتّاكة وبائية، ومجلبة للفقر والعداوات بين الناس، وتفكك الأسر وضياع الأبناء، وتشرُّد الأطفال وحرمانهم، وتربيتهم بعيدًا عن المحضن الطبيعي الشرعي، فحرمه الإسلام، وحرم كلّ ما يدعو إليه من قول، أو فعل، أو صوت، أو حركة، كالتبرج والسفور، والدخول على النساء بلا محرم، والخلوة بهنَّ، وحرَّم الاختلاط لغير حاجة، كما حرَّم النَّظر لغير حاجة، وشرَعَ حَدّ الجلد مئة جلدة للبكر، رجلاً كان أو امرأة، كما شرع الرَّجم حتى الموت للزَّاني المُحصن، زجْرًا عن الفاحشة، وتطهيرًا للمخطئين وكفارة لهم.

(١) الألوسي، روح المعاني: (٢٨٣/٩).

حد القذف

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور: ٤-٥].

المناسبة:

لمَّا عظم تعالى أمر الزاني بوجوب جلده، أو رجمه إن كان محصنًا، وحرَّم زواجه من العفيفة إن لم يتُب، وكذلك حرم زواج العفيف من الزانية إن لم تَتُب؛ بيّن تعالى تعظيم حرمة الأعراض بتحريم القذف وتجريمه.

معاني المفردات:

﴿يَرْمُونَ﴾: يقذِفُون بالزّنى.

﴿الْمُحْصَنات﴾: العفيفات، وجمع المؤنث للتغليب.

الإعراب:

﴿المحصنات﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة، لأنه جمع مؤنث سالم، أو صفة لموصوف محذوف تقديره الأنفس المحصنات، قدروها لتشمل الرجال والنساء، لكن ما لا يحتاج لحذف أولى.

البلاغة:

١. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾، الأصلُ في الرمي أن يكون بشيء حسيٍّ كالحجر وغيره، وإنما جاء التعبير عن قذف المحصنات بتهمة الزنا بالرمي، لبيان شناعتِه وخطورتِه، وما يترتب عليه من جراحٍ وآلامٍ، أشد من رمي الحجرِ، وقد قيل:

جراحاتُ السِّنانِ لها التآمٌ ... ولا يلتامُ ما جرحَ الِّلسانُ

٢. **التغليب**: في المحصنات فيشمل النساء والرجال، ولكنه غلب النساء لأنهن أكثرُ مَن يُرمى، ولشناعة قذفهن وخطورة تأثيره مقارنة بالرجال. قال القرطبي: "ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ النِّسَاءَ

مِنْ حَيْثُ هُنَّ أَهَمُّ، وَرَمْيُهُنَّ بِالْفَاحِشَةِ أَشْنَعُ وَأَنْكَى لِلنُّفُوسِ، وَقَذْفُ الرِّجَالِ دَاخِلٌ فِي حُكْمِ الْآيَةِ بِالْمَعْنَى، وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى ذَلِكَ. وَهَذَا نَحْوُ نَصِّهِ عَلَى تَحْرِيمِ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَدَخَلَ شَحْمُهُ وَغَضَارِيفُهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ بِالْمَعْنَى وَالْإِجْمَاعِ". [١]

٣. ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: اسم الإشارة البعيد لبيان بعد منزلتهم في الفِسقِ وإيغالهم فيه، وتعريف طرفي الجملة – المسند والمسند إليه مع الضمير المنفصل، مبالغة في وصفهم بالفسق، واسمية الجملة لتأكيد المعنى.

٤. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: اشتملت هذه الجملة على عدّة مؤكدات، اسمية الجملة، و"إنَّ" المشددة، وصيغة المبالغة، ﴿غفورٌ رحيمٌ﴾، لمزيد توكيد بقبول الله توبة من تاب من قذف محصنةٍ.

التفسير:

والذين يتَّهِمون بالفاحشة أنفسًا عفيفة من النساء والرجال مِن دون أن يشهد معهم أربعة شهود عدول، فاجلدوهم بالسَّوط ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا، وأولئك هم الخارجون عن طاعة الله. لكن مَن تاب ونَدم ورجع عن اتِّهامه وأصلح عمله، فإن الله يغفر ذنبه ويرحمه، ويقبل توبته.

الهدايات المستنبطة:

١. حماية الإسلام للأعراض وتعظيمه للحرمات.
٢. ضرورة التثبت في الأخبار، وإمساك اللسان عن الخوض، وفضول الكلام.
٣. قَذْفُ المحصنات من كبائر الذنوب الموجبة لغضب الله وسخطه، واستحقاق العذاب الموجع.
٤. لا تُقبل شهادة القاذف مستقبلاً إلا أن يتوب؛ حماية لأعراض الناس، وصونًا لكرامتهم.
٥. قبول توبة التائب؛ إن كانت توبته صادقة نصوحًا.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (١٢/١٧٢).

قذف الرجل زوجته

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠ ﴾ [النور: ٦-١٠]

سبب النزول:

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال له النبي ﷺ: «الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلا ينطلق، يلتمس البينة! فجعل النبي ﷺ يقول: «الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزل الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل، فأنزل الله عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، فقرأ حتى بلغ ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1].

المناسبة:

بعد بيان حُكم قذف النساء الأجنبيات غير الزوجات بالزنى؛ بيّن الله تعالى حكم قذف الزوجات الذي هو في حكم الاستثناء من الآية المتقدمة؛ تخفيفًا عن الزوج؛ لأن العار يلحقه، ومن الصعب أن يجد بيّنة.

معاني المفردات:

﴿أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ اللعنة: الطرد والحرمان من رحمة الله، مع أبلغ ما يكون من المذمة.

﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾: ويدرأ: أي يدفع، والعذاب: المراد به العذاب الدنيوي وهو حدُّ

(١) البخاري، الصحيح، كتاب تفسير القرآن، باب: من سورة النور: (ح٤٧٤٧).

(الرَّجم) الذي شُرِعَ عقوبةً للزاني المحصن أو الزانية.

الإعراب:

﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾: شهادةُ مبتدأ وأربعُ خبر.

﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾: والخامسةُ معطوفة علي ﴿ أَرْبَع شَهَادَاتٍ﴾، والمعطوف على المرفوع مرفوع. ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾: ﴿أَرْبَعَ﴾ مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الفتحة. ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾: ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾ معطوفة على ﴿أَرْبَعَ﴾، والمعطوف على المنصوب منصوب.

البلاغة:

١. خصَّ المرأة بالغضب لأنه أبلغ من اللَّعن الذي هو الطرد، لأنه قد يكون بسبب غير الغضب، "وسبب التغليظ عليها الحثّ على اعترافها بالحق لما يُصدِّق الزوج من القرينة، من أنه لا يتجشم فضيحة أهله المستلزم لفضيحته إلا وهو صادق، ولأنها مادة الفساد ومخالطة الأنساب". [١]

٢. قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾، حذَفَ الجواب؛ للتهويل والزَّجر؛ ليكون أبلغ في البيان.

التفسير:

والذين يرمون زوجاتهم بالزنى، ولم يكن لهم شهداء على اتهامهم لهنَّ إلا أنفسهم، فعلى الواحد منهم أن يشهد أمام القاضي أربع مرات بقوله: أشهد بالله أني صادق فيما رميتُها به من الزنى، ويزيد في الشهادة الخامسة الدعوة على نفسه باستحقاقه لعنة الله إن كان كاذبًا في قوله، وبشهادته تستوجب الزوجة عقوبة الزنى، وهي الرجم حتى الموت، ولا يدفع عنها هذه العقوبة إلا أن تشهد في مقابل شهادته أربع شهادات بالله إنه لكاذب في اتهامه لها بالزنى، وتزيد في الشهادة الخامسة الدعوة على نفسها باستحقاقها غضب الله، إن كان زوجها صادقًا في اتهامه لها، وفي هذه الحال يفرق بينهم، ولولا تفضُّل الله عليكم ورحمته- أيها المؤمنون- بهذا التشريع للأزواج والزوجات، لأحلَّ بالكاذب من

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٢/٦٠١).

المتلاعنين ما دعا به على نفسه، وأن الله تواب لمن تاب مِن عباده، حكيم في شرعه وتدبيره.

الهدايات المستنبطة:

١. شرع الله ﷻ اللعان في الزوجات دون الأجنبيات؛ لأن قذف الزوجة يُلحِقُ العار بالزوج، ويُفسد عليه النسب.

٢. في مشروعية اللعان مظهرٌ من مظاهر حسن التشريع الإسلامي وكماله، وأن مثله لن يكون إلا بوحي إلهي.

الحكمة من تشريع اللعان:

جعل الله اللعان مخرجًا للزوج إذا أيقن بزنا زوجته ولم يملك الشهود، كما جعله مخرجًا للمرأة إذا شك فيها زوجها بغير دليل وهي عفيفة طاهرة، ففي هذا التشريع حكمة بالغة، وقد كانت المرأة تُعاقب لمجرد شك زوجها في سلوكها، وليس من المنطقي أن ينتظر الزوج حتى يأتي بأربع شهود فيقضي الزاني وطَرَهُ ويَفِرُّ هاربًا؛ أو يُقام عليه الحدّ إن رماها دون بيّنة، فجعل الإسلام هذا التشريع الحكيم العادل.

* * *

قصة الإفك

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ١١-٢٢].

معاني المفردات:

﴿بالإفك﴾: أشنَعُ الكذب، وهو رَمْيُ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالزنى.، وأصل الإفك القلب، ومنه (المؤتفكة) وهي قُرى قوم لوط، سُمِّيَت بذلك لانقلاب موازينها حيث صار فيها الشر خيراً، والخير

شرًا، والمنكر معروفًا والمعروف منكرًا، فأهلك الله أهلها ونجى لوطًا ومن آمن معه؛ قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم:٥٣- ٥٤]، ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢﴾ [هود:٨٢].

﴿عُصْبَة منكم﴾: جماعة منكم. قال الرازي: "أما قوله (منكم) فالمعنى أن الذين أتوا بالكذب في أمر عائشة جماعة منكم أيها المؤمنون، لأن عبدالله بن أُبَيّ كان من جملة من حُكِم له بالإيمان ظاهرا"[(١)]، وقال الألوسي: "قيل إن قوله (منكم) خارج مخرج الأغلب الأعم، وأغلب أولئك العُصْبة من المؤمنين"[(٢)] .

﴿تولَّى كِبْرَه﴾: تحمل الإثم، لكونه اختلقه.

﴿أفضتم فيه﴾:خضتم فيه من حديث الإفك.

﴿تلقونه﴾: تتلقفونه، وتنقلونه.

﴿بهتان﴾:كذبٌ وافتراء.

﴿يعظكم﴾:ينهاكم ويزجركم.

﴿خطوات الشيطان﴾: طرقه، ومذاهبه.

﴿ما زكا﴾: ما تطهر من الذنوب.

﴿ولا يأتل﴾:لا يحلف.

﴿أولوا الفضل﴾: أهل الفضل في الدين، والمال.

سبب النزول:

روى مسلم بسنده عن أم المؤمنين عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر، أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها رسول الله ﷺ معه، فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعد ما نزل الحجاب، فأنا أُحمل في هودجي وأنزل

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب: (١٧٤/٢٣).

(٢) الألوسي، روح المعاني: (١١٥/١٨).

فيه، فَسِرْنَا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقَفَلَ، ودَنَوْنَا من المدينة آذن ليلة بالرَّحيل، فقُمتُ حين آذن بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني، أقبلت إلى رَحْلِي، فلَمَسْتُ صدري، فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع.

فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرّهط الذين كانوا يرحّلونني، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على البعير الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه.

وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقُلْنَ، ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السِّن، فبعثوا الجمل، وساروا، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داعٍ ولا مجيبٍ، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونني، فيرجعون إلي.

فبينا أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المُعطّل السُّلمي ثم الذّكواني قد عرَّسَ من وراء الجيش، فأدْلَجَ، فأصبحَ عند منزلي، فرأَى سَوَادَ إنسانٍ نَائِمٍ، فأتاني، فعرفني حين رآني، وقد كان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخَ راحلته، فوطِئَ على يدها، فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا في نحر الظَّهيرة فهَلَك منْ هَلَك في شأني، وكان الذي تولَّى كِبَرَهُ عبدالله بن أُبيّ ابن سلول.

فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمناها شهرًا، والناس يُفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشْعُرُ بشيءٍ من ذلك، وهو يُريبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللُّطف الذي أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيُسلِّم ثم يقول: «كَيْفَ تِيكُم؟» فذلك الذي يريبني، ولا أشعر بالشَّر، حتى خرجْتُ بعْدَ ما نَقَهْتُ، وخرَجَتْ معي أُمّ مِسْطَح قبل (المناصع) وهو متبرّزنا، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه في البرّية، وكُنَّا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا.

فانطلقت أنا وأم مسطح فأقبلتُ أنا وابنة أبي رهم أم مسطح قبل بيتي، حين فرغنا من شأننا،

فعثرت أم مسطح في مُرْطِها، فقالت: تَعِسَ مِسطح، فقلت لها: بئسما قلت، تسبِّين رجلاً شهِد بدرًا؟ فقالت: أي هنتاه، ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا إلى مرضي، فلما رجعتُ إلى بيتي، دخل علي رسول الله ﷺ، فسلّم، ثم قال: «كَيْفَ تِيكُم؟» فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قال: نعم، قالت: وأنا حينئذ أُريد أن أتيقن الخبر من قِبَلِهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبوي، فقلت لأمي: يا أمتاه، لماذا يتحدث الناس به؟ فقالت: أي بنية، هوّني عليك، فو الله لقلَّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبّها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها.

قالت: فقلت: سبحان الله! وقد تحدث الناس بها؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي، يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد، فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلمُ من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الودِّ، فقال أسامة: يا رسول الله، أهلُك، ولا نعلم إلا خيرًا. وأما علي بن أبي طالب، فقال: يا رسول الله، لم يضيّق الله عليك، والنِّساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصْدُقَك الخبر.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيءٍ يَرِيبُكِ مِنْ عَائِشَةَ؟» فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق، إن- أي ما- رأيت منها أمرًا قطّ أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السِّن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الدَّاجن فتأكله.

فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبدالله بن أبي بن سلول، فقال وهو على المنبر: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَ أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي؟ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي».

فقام سعد بن معاذ الأنصاري ؓ، فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا، ففعلنا أمرك.

فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحًا، ولكن احتملته الحميَّة، فقال لسعد بن معاذ: كذبت، لعمرُالله، لا تقتله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببتَ أن يقتل.

فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة، كذبتَ، لعمرُالله لنقتلنّه، فإنك منافق تجادل عن المنافق، فتثاور الحيان: الأوس والخزرج، حتى همّوا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل يخفّضهم حتى سكتوا، وسكت رسول الله ﷺ.

قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي إذ استأذنت عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنْتُ لها، فجلَسَتْ تبكي معي، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ، فسلَّم ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهرًا لا يُوحى إليه في شأني شيء.

فتشهَّد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: **« مَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»**.

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي، حتى ما أحسّ منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ، فقالت: والله، ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت - وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيرا من القرآن - : والله لقد علمت، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقونني، ولئِن اعترفت بأمر، والله يعلم أني بريئة، لتصدّقنّي، إني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]،ثم تحوّلْتُ فاضطجعت على فراشي، وأنا - والله أعلم حينئذ أني بريئة - وأن الله تعالى مُبرِّئي ببراءتي، ولكن والله، ما كنت أظنُّ أن ينزل في شأني وحيٌ يُتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النّوم رُؤيا يُبرئني الله بها.

فو الله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله تعالى على نبيه،

فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدّر منه مثل الجُمّان من العَرَق، وهو في يوم شاتٍ، من ثقل القول الذي أنزل عليه.

فسُرِّي عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلَّم بها أن قال: «أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ»، فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عزّ وجلّ، هو الذي أنزل براءتي، وأنزل الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ [النور:١١]، الآيات العشر كلّها.

فلمَّا أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر ﷺ، وكان يُنفق على مسطح بن أثاثة، لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئا أبدًا بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى﴾ – إلى قوله– ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فقال أبو بكر: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري، فقال: «**يَا زَيْنَبُ، مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ؟**» فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرًا.

قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله تعالى بالورع، وطفقتْ أختُها حَمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك[١].

المناسبة:

بعد بيان حكم قذف النساء الأجنبيات غير المحارم، وحكم قذف الزوجات، أبان الله تعالى في هذه الآيات براءة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك من المنافقين.

الإعراب والبلاغة:

١. اللام في (الإفك) لام العهد الذهني، أي الإفك المعهود في الأذهان، ويجوز كون اللام للجنس فيُفيد القصر، كأنه لا إفك إلا ذلك الإفك، وفي هذا إشارة إلى شناعته وبشاعته وفظاعته

(١) صحيح مسلم:كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف: (ح٢٧٧٠).

وكذبه وبطلانه.

٢. **التعبير بالموصول:** ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾، "في التعبير بالموصول وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالعظم من تهويل الخطب ما لا يخفى"(١).

٣. **تصويرٌ دقيقٌ:** ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور:١٥]: في هذه الآية الكريمة تصوير دقيق لحال الخائضين في الإفك، الذين تناقلوه بألسنتهم دون تثبّت ودون تدبّر، فهو قول لم يتجاوز الأفواه، وهو كذب وزور، وظلم وبهتان.

٤. **الالتفات:** ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور:١]، وإنما اقتضت البلاغة هذا الالتفات والعدول عن الضمير إلى الظاهر؛ للمبالغة في التوبيخ، وليُصرّح بلفظ الإيمان زيادة في الزجر والعتاب بأن هذا مما لا يليق بمؤمن، فالأصل حُسْن الظن بالمؤمنين.

٥. **المبالغة:** ﴿وتقولون بأفواهكم﴾: ذِكْرُ الأفواه والقول لا يكون إلا بالفم، للمبالغة والتعريض بأنه ربما يتشدَّقُ تَشدُّق جازمٍ عالمٍ، وهذا أشدُّ جُرْمًا، أو لبيان كون الإفك ليس إلا قولٌ يجري على ألسنتكم، ويدور في أفواهكم، من غير ترجمة عن علم به في القلب. (٢)

٦. **الفصل بين (لولا) و(قلتم):** ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور:١٦]، بإذ الظرفية لأن الظُّروف تنزل من الشيء منزلة نفسه لوقوعه فيها، وأنها لا انفكاك لها عنه، فلذلك يتَّسِعُ فيها ما لا يتسع في غيرها. فإن قيل: أيُّ فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلاً؟ أُجِيبَ: بأن الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن

(١) الألوسي، روح المعاني:/ (٩/٣١٢).

(٢) الخطيب الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٢/٦٠٨) بتصرف.

يَذُبُّوا أوَل ما سمعوا بالإفك عن التكلّم به، فلما كان ذِكرُ الوقت أهم وجب التقديم.[(١)]

٧. **بلاغة التذييل**: من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النور:١٨]، يُبين الله تعالى لعباده المؤمنين ما فيه الخير والصلاح لهم في دنياهم وأُخراهم، فهو سبحانه العليم بما يُصلِح شئون خلقه والحكيم فيما يفعله سبحان. قال الزمخشري: "ويُبين الله لكم الدلالات على علمه وحكمته بما يُنزل عليكم من الشرائع، ويعلمكم من الآداب الجميلة، ويعظكم به من المواعظ الشافية البليغة، والله عالمٌ بكلّ شيء، فاعلٌ لِما يفعله بدواعي الحكمة"[(٢)].

٨. **بلاغة التذييل**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور:١٩]: يعلمُ الذين يحبون إشاعة الفاحشة سرَّهم وجهرهم ويطَّلِعُ على نواياهم الخبيثة، ونفوسهم الأمَّارة بالسوء، ويعلم قبح فعلِهم وشناعته، وما يترتب عليه من فسادٍ وانحلالٍ، وفسقٍ وضلالٍ. قال الرازي: "وأما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: فهو حسَنُ الموقع بهذا الموضع؛ لأن محبة القلب كامِنَةٌ، ونحن لا نعلمها إلا بالأمَارَات، أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شيء، فصار هذا الذّكر نهاية في الزجر؛ لأن من أحب إشاعة الفاحشة وإن بالغ في إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه، وإنّ عِلْمَه سبحانه بذلك الذي أخفاه، كعلمه بالذي أظهره، ويعلم قدْرَ الجزاء عليه"[(٣)].

٩. **التكرار**: في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور:٢٠]، كرر سبحانه مِنّته على عباده وتفضُّله عليهم ورحمته ورأفته بهم بترك تعجيل

---

(١) نفس المرجع: (٢/٦٠٨).

(٢) الكشاف: (٣/٢٢١) بتصرف

(٣) مفاتيح الغيب، للرازي: (٢٣/١٨٤).

عقوبتهم، وفى هذا تذكيرٌ بعظيم فضل الله تعالى وواسع رحمته، وتذكيرٌ بعظم ذلك الافتراء على السيدة عائشة ﵂، قال النسفي: "وكرر المنة بترك المعاجلة بالعقاب مع حذف الجواب مبالغة في المنّة عليهم والتوبيخ لهم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: حيث أظهر براءة المقذوفة وقَبِل توبة القاذف"[١].

١٠. خطاب التكريم، قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: المراد أبو بكر الصدّيق، وخاطبه بصيغة الجمع؛ للتعظيم.

التفسير:

إن الذين جاؤوا بأشنع الكذب، وهو اتهام أم المؤمنين عائشة ﵂ بالفاحشة، جماعة منتسبون إليكم – معشر المسلمين – لا تحسبوا قولهم شرًّا لكم، بل هو خير لكم، لما تضمن ذلك مِن تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها والتنويه بذكرها، ورفع الدرجات، وتكفير السيئات، وتمحيص المؤمنين. لكلّ فرد تكلّم بالإفك جزاءُ فعله من الذنب بقدر ما خاض وأفاض، والذي تحمَّل معظمه، وهو عبدالله بن أُبيّ بن سلول كبير المنافقين – لعنه الله – له عذاب عظيم في الآخرة، وهو الخلود في الدّرك الأسفل من النار، هلَّا ظنَّ المؤمنون والمؤمنات بعضهم ببعض خيرًا عند سماعهم ذلك الإفك، وهو السلامة مما رموا به، وقالوا: هذا كذب ظاهر على عائشة ﵂، ولولا فَضْلُ الله عليكم ورحمته لكم بحيث شملكم إحسانه، في دينكم ودنياكم فلم يعجّل عقوبتكم، وتاب على مَن تاب منكم، لأصابكم بسبب ما خُضتم فيه عذاب عظيم، حين تتلقفون الإفك وتتناقلونه بأفواهكم، وهو قولٌ باطلٌ، ليس عندكم به علم، فوقعتم في محظورين: التكلّم بالباطل، والقول بلا علم، وتظنون ذلك شيئًا هيّنًا، وهو عند الله عظيم. وفي هذا زجرٌ بليغٌ عن التهاون في إشاعة الباطل، وهلَّا قلتم عند سماعكم إياه: ما يَحِلُّ لنا الكلام بهذا الكذب، تنزيهًا لك – يارب – مِن قول ذلك على زوجة نبيك مُحمد ﷺ، فهو كذِبٌ عظيمٌ في الوزْرِ واستحقاقُ الذَّنب، يُذكِّركم الله وينهاكم أن تعودوا أبدًا لمثل هذا الفعل من الاتهام الكاذب، إن كنتم مؤمنين به، ويُبين الله لكم الآيات المشتملة على الأحكام الشرعية والمواعظ، والله عليم بأفعالكم،

(١)النسفى، مدارك التنزيل: (٣/١٣٧)، ويُراجع الزمخشري في الكشاف: (٣/٢٢١).

حكيم في شرعه وتدبيره، إن الذين يحبون شيوع الفاحشة في المسلمين من قَذْفٍ بالزنى، أو أي قول سيِّئ لهم عذاب أليم في الدُّنيا بإقامة الحدّ عليهم، وغيره من البلايا الدنيوية، ولهم في الآخرة عذاب النار إن لم يتوبوا، والله - وحده - يعلم كذبهم، ويعلم مصالح عباده، وعواقب الأمور، وأنتم لا تعلمون ذلك، ولولا فَضْلُ الله على مَن وقع في حديث الإفك ورحمته بهم، وأن الله يرحم عباده المؤمنين رحمة واسعة في عاجلهم وآجلهم، لما بيَّن هذه الأحكام والمواعظ، ولَعاجل مَن خالف أمره بالعقوبة، يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه لا تسلكوا طُرق الشيطان، ومَن يسلك طُرق الشيطان فإنه يأمره بقبيح الأفعال ومنكراتها، ولولا فَضْلُ الله على المؤمنين ورحمته بهم ما طَهُرَ منهم أحد أبدًا مِن دَنَس ذنبه، ولكن الله - بفضله - يُطهِّر من يشاء. والله سميع لأقوالكم، عليم بنيَّاتكم وأفعالكم، ولا يحلف أهل الفضل في الدين والسَّعَة في المال على ترك صلة أقربائهم الفقراء والمحتاجين والمهاجرين، ومنعهم النفقة؛ بسبب ذنب فعلوه، ولْيتجاوزوا عن إساءتهم، ولا يعاقبوهم. ألا تحبون أن يتجاوز الله عنكم؟ فتجاوزوا عنهم. والله غفور لعباده، رحيم بهم. وفي هذا الحثُّ على العفو والصفح، ولو قوبل بالإساءة.

الهدايات المستنبطة:

١- إن داء الأمة ينبُع من داخلها، وأخطرُ داءٍ فيها زعزعة الثقة بقادتها ومُصلحيها، وتوجيه النقد الهدَّام لهم، ومحاولة النيل من عرضهم، وسمعتهم، وكرامتهم، فأهل الإفك ليسوا من الأعداء الخارجين، وإنما هم أعداء الداخل.

٢- ليس في الأشياء خير محض ولا شر محض، وإنما ما غلب نفعه على ضرره فهو خير، وما غلب ضرره على نفعه فهو شر؛ لذا كان حديث الإفك خيرًا على عائشة رضي الله عنها، وأهلها آل أبي بكر، وعلى صفوان بن المعطّل المتهم البريء، فقال تعالى: ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ لرجحان النفع والخير على جانب الشر.

٣- الواجب على المسلمين إذا سمعوا رجلاً يقذف أحدًا أو يذكره بقبيح لا يعرفونه به؛ أن يُنكروا عليه ويكذبوه لقوله تعالى: ﴿لولا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

٤- إن إثبات تُهمة الزّنى إما بالإقرار أو بأربعة شهود، لقوله تعالى: ﴿جاؤُا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾.

٥- إن أحكام الدُّنيا في الإثبات ونحوه تجري على الظاهر، والسرائر إلى الله عزّ وجلّ.

٦- القذف من أكبر الكبائر التي حرّمها الشرع وشنّعها.

٧- من سبّ عائشة ﵂ بعد نزول براءتها، قُتِل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فمن سبَّ عائشة فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قُتِل، وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبَّها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذُكِرَ في هذه الآية، فإنه كافر معاند للقرآن.

٨- لله تعالى وحده الفضل في تزكية المؤمنين وتطهيرهم وهدايتهم.

٩- على المؤمن التخلق بأخلاق الله، فيعفو عن الهفوات والزلات والمزالق، فإن فعل، فالله يعفو عنه ويستر ذنوبه، وكما تدين تدان، لقوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

١٠- القذف وإن كان معصية كبيرة لا يحبط الأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مِسطحًا بعد قوله بالهجرة والإيمان، وكذلك سائر الكبائر، ولا يُحبط الأعمال غير الشرك بالله.

١١- من حلف على شيء ألا يفعله، فرأى أن فعله أولى من تركه، أتاه وكفّر عن يمينه.

١٢- دلَّ قوله تعالى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ على أنَّ أبا بكر أفضل الناس بعد النبي ﷺ؛ لأن الله وصفه بصفات دالة على علو شأنه في الدين.

١٣- من سنَّ شرًا أعظم إثمًا ممن وافقه عليه، لقوله تعالى: ﴿لِكلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾.

١٤- ما على الأرض شيء أحوج إلى طُول سَجْنٍ من اللسان؛ لذا على المرء ألا يقول شيئًا بلسانه إلا ما يعلمه ويتحققه، وليحذر فضول الكلام.

جزاء القذف الأخروي في قصة الإفك

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾

[النور:٢٣-٢٦]

معاني المفردات:

﴿الْغافِلاتِ﴾: العفيفات اللَّواتي لم تخطُر الفاحشة بقلوبهن، فهنَّ غافلات عن الخنا، والفجور لا يخطر ببالهن.

﴿لُعِنُوا﴾: طُردوا وأُبعدوا من رحمة الله.

﴿دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾:جزاءهم بالعدل.

سبب النزول:

عن ابن عباس، رضي الله عنهما: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [النور:٢٣] قال: (نزلت في عائشة خاصة) [١].

وعن الحكم بن عتيبة، قال: "لما خاض الناس في أمر عائشة أرسل رسول الله ﷺ إلى عائشة، قالت: فجئت وأنا انتفض من غير حمى، فقال: «يا عَائِشَةُ مَا يَقُولُ النَّاسُ؟»، فقلت: لا، والذي بعثك بالحق لا أعتذر بشيء إليك، قالوا: حتى ينزل عذري من السماء، فأنزل الله فيها خمس عشرة آية من سورة النور، ثم قرأ الحَكَمُ حتى بلغ ﴿ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ ﴾

---

(١) المستدرك على الصحيحين، للحاكم: ذِكْرُ الصحابيات من أزواج النبي: (ح٦٧٣١)، قال الحاكم: هذا حديث (صحيح الإسناد) ولم يخرجاه، قال الذهبي: (صحيح)، تلخيص الذهبي: (ح٦٧٣١).

[النور:٢٦]، قال: فالخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء"[١].

المناسبة:

بعد بيان خبر الإفك وعقاب الأفاكين، وتأديب الخائضين، ذكر الله تعالى براءة عائشة صراحة، وذكر مع ذلك حكما عامًا وهو أن كلّ من قذف مؤمنة عفيفة بالزنى، فهو مطرود من رحمة الله، وله عذاب عظيم.

الإعراب والبلاغة:

١. اسمية الجملة تدل على توكيد المعاني وتقريرها.

٢. تخصيص هذه الأعضاء ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾، بالذكر مع أن الشهادة تكون من جميع الجسد؛ لأن لهذه الأعضاء عمل في رمي المحصنات فهم ينطقون بالقذف، ويُشيرون بالأيدي إلى المقذوفات، ويسعون بأرجلهم إلى مجالس الناس لإبلاغ القذف.

٣. العدول عن التعبير عن الإفك باسمه إلى (مِمَّا يَقُولُونَ) إلى أنه لا يعدو كونه قولاً، أي أنه غير مطابق للواقع.

٤. قال الزمخشري: "ولو قرأت القرآن كلّه، وفتشت عمّا أوعد به من العصاة، لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنّة. كلّ واحد منها كاف في بابه، ولو لم يُنزل إلا هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدَّارين جميعًا، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأنّ ألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يُوفِّيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله، حتى يعلموا عند ذلك أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ فأوجز في ذلك وأشبع،

---

(١) الطبراني، المعجم الكبير، باب: تأويل قوله ﴿الخبيثات للخبيثين﴾: (ح٢٥١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد:"رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ مُرْسَلاً، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ، إِنْ كَانَ سُلَيْمَانُ الْمُبْهَمُ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدِّمَشْقِيَّ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ هُوَ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: (٨٢/٧)

وفصل وأجمل، وأكَّد وكرّر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة، وما ذاك إلا لأمر"[1].

التفسير:

إن الذين يقذفون بالزنى العفيفات الغافلات المؤمنات اللاتي لم يخطر ذلك بقلوبهن، مطرودون من رحمة الله في الدُّنيا والآخرة، ولهم عذاب عظيم في نار جهنم. وفي هذه الآية دليل على كفر من سبَّ، أو اتهم زوجة من زوجات النبي ﷺ بسوء؛ ذلك العذاب يوم القيامة يوم تشهد عليهم ألسنتهم بما نطقت، وتتكلّم أيديهم وأرجلهم بما عملت، في هذا اليوم يُوفيهم الله جزاءهم كاملاً على أعمالهم بالعدل، ويعلمون في ذلك الموقف العظيم أن الله هو الحق المبين الذي هو حق، ووعده حق، ووعيده حق، وكلّ شيء منه حق، الذي لا يظلم أحدًا مثقال ذرة، كلّ خبيث من الرجال والنساء والأقوال والأفعال مناسب للخبيث وموافق له، وكلّ طيِّب من الرجال والنساء والأقوال والأفعال مناسب للطيب وموافق له، والطيبون والطيبات مبرَّؤون مما يرميهم به الخبيثون من السوء، لهم من الله مغفرة تستغرق الذنوب، ورزق كريم في الجنة.

الهدايات المستنبطة:

١- إن الذين يرمون بالزنى أو الفاحشة النساء المحصنات العفائف، أو الرجال المحصنين قياسًا واستدلالاً أو يقذفون غيرهم، ومن هؤلاء عائشة وسائر زوجات النبي ﷺ، لُعنوا في الدُّنيا والآخرة، وشهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم يوم القيامة عند الحساب بما تكلّموا به، وبما عملوا في الدُّنيا.

٢- دل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ على أن الغفلة عن القبائح مانعة من فعلها؛ إذ لا يتأتى فعلها إلا بالعزم عليها.

٣- من قذف عائشة رضي الله عنها بعد نزول براءتها فهو كافرٌ مرتدٌّ باتفاق أهل العلم، وفى بقية أمهات المؤمنين رضي الله عنهن قولان، أصحهما أنهن كعائشة رضي الله عنها. قال الألوسي: "وحُكْمُ رمي سائر أمهات

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٢٢٣/٣) بتصرف.

المؤمنين كحكم رمى عائشة وكذا حكم رمى أزواج الأنبياء وأمهاتهم، وعندي أن حكم رمى بنات النبي ﷺ كذلك، لاسيما بضعته الطاهرة الكريمة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ..."[١] وقال القاضى عياض: "ومن سبَّ غير عائشة من أزواج النبي ﷺ ففيه قولان: أحدهما يُقتل لأنه سب النبي ﷺ بسبِّ وقذْفِ حليلته، والآخر أنهن كسائر الصحابة يُجلد القاذف حدَّ المفتري - القذف - والمختار هو القول الأول"[٢]. وذكر ابن تيمية في كتابه "الصارم المسلول" أن قذف أم المؤمنين عائشة كُفرٌ بلا خلاف، وفي قذف غيرها من أمهات المؤمنين قولان، أصحهما أنه كقذف أم المؤمنين عائشة يكفر فاعله [٣].

٤-العمل الصالح لا يحبط بارتكاب الكبيرة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ [النور:٢٢]، فهذه الآية الكريمة نزلت في أعقاب حادثة الإفك، وذلك أن أبا بكر الصديق كان قد حلف أن لا ينفق على مسطح بعد أن خاض مع الخائضين في الإفك، وكان مسطح قريبًا لأبي بكر وكان من المهاجرين البدريين [٤]، وكان من المساكين ولو كان قذفه للسيدة عائشة محبطًا لعمله لمَا وصفه الله تعالى بكونه من المهاجرين في سبيل الله بعد أن وقع في القذف، فدل هذا على أن ثواب هجرته لم يحبط بوقوعه في تلك الكبيرة. يقول الرازي: "احتج أصحابنا بهذه الآية على بطلان المحابطة، وقالوا إنه سبحانه وصف مسطح بكونه من المهاجرين بعد أن ارتكب كبيرة القذف؛ فدلَّ هذا على أن ثواب كونه مهاجرًا لم يحبط بإقدامه على القذف"[٥].

---

(١)الألوسي، روح المعاني: (١٨/١٢٨).

(٢) القاضي عياض شرح الشفا في شمائل أصحاب الاصطفا (٥/٥٣٤)، مطبعة المدني بدون تاريخ.

(٣) يراجع لابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول: (ص٥٦٥: ٥٦٧)، ط. دار الكتب العلمية- بيروت (١٣٩٨هـ-١٩٧٨م).

(٤) الذين شهدوا غزوة بدر.

(٥) مفاتيح الغيب للرازي: (٢٣/١٩١).

الاستئذان لدخول البيوت وآدابه

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النور: ٢٧-٢٩].

معاني المفردات:

﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾: تستأذنوا أهل البيوت، وسمي الاستئذان استئناسًا؛ لأنه يُزيل الوحشة من القادم.

﴿أَزْكَى﴾: أطهر وأكرم لنفوسكم، وهو خير لكم من اللجاج، والعناد، والوقوف على الأبواب، فالرجوع في مثل هذه الحال أشرف وأطهر للإنسان العاقل.

﴿جُنَاحٌ ﴾: أي إثمٌ وحرج.

﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾: المراد البيوت العامرة التي تُقصد لمنافعٍ عامةٍ غير السُّكنى، كالحمامات، والحوانيت، والبيوت التي لا تُخص بسكنى أحد كالرباطات، والفنادق، والخانات، فهذه وأمثالها لا حرج في دخولها بغير إذن.

﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾: فيها منفعة، ومصلحة لكم؛ كالبيوت المُعدَّة صدقة للمسافرين.

سبب النزول:

عن عدي بن ثابت قال: جاءت امرأة من الأنصار، فقالت: يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، وإنه لا يزال يدخل عليَّ رجل من أهلي، وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ ...﴾ الآية.

قال المفسِّرون: لما نزلت آية الاستئذان في البيوت؛ قال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف بتجار

قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام، ولهم بيوت معلومة على الطريق، فكيف يستأذنون ويُسلِّمون، وليس فيها سكَّان؟ فنزل: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾[(١)].

المناسبة:

بعد بيان حكم قذف المحصنات وقصة أهل الإفك، ذكر الله تعالى ما يليق بذلك، وهو آداب الدخول إلى البيوت من الاستئذان والسلام؛ منعًا من الوقوع في التُّهمة، باقتحام البيوت دون إذنٍ والتسلل إليها، أو حدوث الخلوة التي هي مظنَّة التهمة - أو طريق التهمة - التي تذرَّع بها أهل الإفك للوصول إلى بهتانهم وافترائهم، ومراعاة لأحوال الناس رجالاً ونساءً الذين لا يريدون لأحدٍ الاطلاع عليها؛ ولأن النظر والاطلاع على العورات طريق الزنى.

الإعراب والبلاغة :

١. نداء الإيمان: مشعر بمكانة المؤمن عند الله، وفيه تنبيه للمؤمن، وتنويه بما يعقب النداء من أحكامٍ.

٢. قوله تعالى: ﴿حتى تَسْتَأْنِسُواْ﴾ فيه معنى دقيق، فليس المراد من اللفظ مجرد الإذن، وإنما المراد معرفة أُنْس أهل البيت بدخول الزَّائر عليهم هل هم راضون بدخوله أم لا؟

٣. قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَا أَحَدًا﴾: يُشير إلى معنى دقيق، فربما كان في البيت صاحبه ولم يردّ على الزائر، أو لم يأذن له فيصدُق على المستأذن أنه لم يجد أحدًا، ولو قال: (فإن لم يكن فيها أحد) لما كان هذا المنزع اللطيف، والسر الدقيق، والحاصل أن الآية تنهى عن الدخول في حالتين:

أ - في حالة الاعتذار الضمني ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَا أَحَدًا﴾، وهي إشارة إلى عدم الإذن.

ب - في حالة الاعتذار الصريح ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارجعوا فارجعوا﴾، وهي تصريح بعدم الإذن صريح.[(٢)]

---

(١) الواحدي، أسباب النزول: (ص٣٢٥).

(٢) الصابوني، مُحمد علي، روائع البيان تفسير آيات الأحكام ط. دار الصابوني: (١٢٨/٢) بتصرف يسير.

٤. بلاغة التذييل في الآيات الثلاث: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، فالتذييل في الآية الأولى جملة تعليلية لبيان الحكمة من الاستئذان وهي التذكر، الذي يُقابله الغفلة والذهول والنسيان، ذلك أن الإسلام يغرس الوعي والانتباه في النفوس، وفي الآية الثانية يأتي التذييل مقررًا للمعنى، مرسِّخًا للحكم، موقظًا للضمائر، فالله تعالى عالم بأفعال العباد، وفي هذا زجر ووعيد لمن يُضمر سوءًا، وكذلك ختام الآية الثالثة فكلّ ما يظهره الإنسان أو يخفيه من أفعال ونوايا لا تخفى على الله تعالى، وفي هذا زجرٌ لكلّ من قصد شرًا، قال الألوسي: "﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ﴾: وعيد لمن يدْخُل مدخلاً من هذه المداخل لفسادٍ، أو اطلاع على عورات" [(١)]، كذلك لأن هذه الأماكن كالفنادق والحوانيت قد تُستغلُّ في المعاصي، فجاء ختام الآية بهذا الوعيد والترهيب.

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله واعملوا بشرعه، لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأذنوا أهلها في الدخول وتسلموا عليهم، وصيغة ذلك من السُنة: السلام عليكم أأدخل؟ ذلكم الاستئذان خير لكم؛ لعلكم تتذكرون - بفعلكم له - أوامر الله، فتطيعوه، فإن لم تجدوا في بيوت الآخرين أحدًا فلا تدخلوها حتى يوجد مَن يأذن لكم، فإن لم يأذن، بل قال لكم: ارجعوا فارجعوا، ولا تُلِحُّوا، فإن الرجوع عندئذ أطهر لكم؛ لأن للإنسان أحوالاً يكره اطلاع أحد عليها. والله بما تعملون عليم، فيُجازي كلّ عامل بعمله، لكن لا حرج عليكم أن تدخلوا بغير استئذان بيوتًا ليست مخصصة لسكنى أناس بذاتهم، بل ليتمتع بها مَن يحتاج إليها كالبيوت المُعَدَّة صدقة لابن السبيل في طرق المسافرين، وغيرها من المرافق، ففيها منافع وحاجة لمن يدخلها، وفي الاستئذان مشقة. والله يعلم أحوالكم الظاهرة والخفية.

---

(١) الألوسي، روح المعاني: (٩/ ٣٣).

الهدايات المستنبطة:

١- لا يجوز دخول بيوت الآخرين من غير استئذان.

٢- يُندب إلقاء السَّلام قبل الاستئذان؛ ليتحقق الأنس.

٣- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾؛ وعيدٌ لأهل التجسس على البيوت، وطلب الدخول على غفلة للمعاصي، والنظر إلى ما لا يحل ولا يجوز.

٤- إباحة الدخول في البيوت غير المسكونة والأماكن العامة كالفنادق والحمامات العامة ونحوها، إذا كان الدخول لمصلحة، أو حق انتفاع كالمبيت، والمعاملة، والاغتسال، وإيداع الأمتعة، ونحو ذلك.

٥- لما كان الغض التام لا يمكن؛ جِيء في الآية بحرف (مِنْ) الذي هو للتبعيض إيماءً إلى ذلك، إذ من المفهوم أن المأمور بالغض فيه هو ما لا يليق تحديق النظر إليه.

٦- الأمر بالغض أدب شرعي عظيم في مباعدة النفس عن التطلع إلى ما عسى أن يوقعها في الحرام، أو ما عسى أن يكلّفها صبرًا شديدًا عليها.

٧- الأمر بحفظ الفروج عقب الأمر بالغض من الأبصار؛ لأن النظر رائد الزنى.

٨- جمعت الآية الاستئذان والسلام بواو العطف المفيد التشريك فقط؛ فدلت على أنه إن قدم الاستئذان على السلام، أو قدم السلام على الاستئذان فقد جاء بالمطلوب منه.

٩- معنى (أَزْكَى لَكُمْ): أنه أفضل، وخير لكم من أن يأذن أهلُ البيت على كراهية؛ وفي هذا أدب عظيم، وهو تعليم الصراحة بالحق دون المواربة ما لم يكن فيه أذى. وتعليم قبول الحق؛ لأنه أطمن لنفس قابله من تلقي ما لا يدرى أهو حق أم مواربة، ولو اعتاد الناس التصارح بالحق بينهم لزالت عنهم ظنون السوء بأنفسهم.

حكمة التشريع:

جعل الله البيوت سكنًا، يفيء إليها الناس فتسْكن أرواحهم، وتطمئن نفوسهم، ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم، والبيوتُ لا تكون كذلك إلا حين تكون حَرَمًا آمنًا لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم، وفي الوقت الذي يُريدون، وعلى الحالة التي يُحبون أن يلقوا عليها الناس، ذلك أن استباحة حرمة البيت من الدَّاخلين دون استئذان يجعل أعينهم تقع على عورات، قد تُثير الشهوات، فتنشأ عنها الانحرافات والعُقَد النفسية الناتجة عن الكبت، وربما تحولها إلى علاقة آثمة.

ولقد كانوا في الجاهلية يهجمون هجومًا فجًّا، فيدخل الزائر البيت وقد يرى صاحب الدار مع أهله في الحالة التي لا يجوز أن يراهما عليها أحد، أو يهجم على الغرف فيرى المرأة عارية أو متخففة من ثيابها، مما يؤذي المشاعر ويهتك الحرمات، ويجرح النفوس، ويَحرِم البيوت أمنَها وسكينتها، كما يعرّض النفوس من هنا وهناك للفتنة حين تقع العين على ما تثيره.

من أجل هذا أو ذاك أدَّب الله المسلمين بهذا الأدب العالي "أدب الاستئذان" على البيوت، والسلام على أهلها لإيناسهم، وإزالة الوحشة من نفوسهم.[١]

* * *

(١) روائع البيان تفسير آيات الأحكام: (١٣٢/٢) بتصرف.

غض البصر وحفظ الفرج وفرض الحجاب

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣٠-٣١].

معاني المفردات:

﴿إِلا ما ظَهَرَ مِنْها﴾: إلا الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها؛ إذا لم يكن فيها فتنة.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾: وليُلقِين.

﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾: بأغطية رؤوسهن.

﴿عَلى جُيُوبِهِنَّ﴾:على فتحات صدورهن، فيغطين وجوههن.

﴿لِبُعُولَتِهِنَّ﴾: لأزواجهن.

﴿نِسائِهِنَّ﴾: المسلمات، وقيل: المختصات بهن بالصحبة والخدمة.

﴿أُولِي الْإِرْبَةِ﴾: الذين لا غرض لهم في النساء؛ كالبُلْه لا يدركون شيئا من أمرهن.

﴿لَمْ يَظْهَرُوا﴾: لا علم لهم بأمور العورات، وليس فيهم شهوة.

﴿ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾:كالخِلاخل التي تُلبس في الأرجل.

سبب النزول:

عن علي ﷺ أن رجلا مرّ على عهد رسول الله ﷺ في طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجابًا به، فبينما الرجل يمشي إلى جنب حائط وهو ينظر إليها إذ استقبله الحائط فشق أنفه، فقال: والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ فأخبره أمري، فأتاه فقص عليه قصته، فقال النبي ﷺ: «**هَذَا عُقُوبَةُ ذَنْبِكَ**»، وأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ﴾ الآية[1].

وأخرج ابن جرير عن حضرمي أن امرأة اتخذت برتين من فضة، واتخذت جزعا (سلسلة خرز) فمرت على قوم، فضربت برجلها، فوقع الخلخال على الجزع، فصوّت، فأنزل الله: ﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ الآية[2].

المناسبة:

الآية واضحة الاتصال بما قبلها، فإن الدخول إلى البيوت مظنة الاطلاع على العورات، لذا أمر المؤمنون والمؤمنات بغض البصر بصورة حكم عام يشمل المستأذن للدخول إلى البيوت وغيره، فيجب على المستأذن التحلي به عند الاستئذان والدخول؛ منعا من انتهاك الحرمات المنهي عنها.

الإعراب والبلاغة:

١- ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾: يغضوا فعل مضارع مجزوم؛ جواب الأمر المحذوف وهو غضوا. ومن أبصارهم (من) للتبعيض، والمراد غضّ البصر عما يحرُم، والاقتصار به على ما يحلّ... فإن قلت: كيف دخلت في غضّ البصر دون حفظ الفروج؟ قلت: دلالة على أن أمر النظر أوسع، ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شُعُورِهنّ، وصدورهنّ، وثُديهنّ، وأعضادهنّ، وأسوقهنّ، وأقدامهنّ. وكذلك الجواري المستعرضات، والأجنبية يُنظر إلى وجهها وكفيها وقدميها في إحدى الروايتين. وأما أمر الفرج فمضيق،

---

(١) السيوطي، الدر المنثور: (٦/١٧٦)، وعزاه لابْن مرْدَوَيْه.

(٢) الطبري، جامع البيان: (١٩/١٦٤).

وكفاك فرقا أن أبيح النظر إلا ما استثنى منه، وحظر الجماع إلا ما استثنى منه".[1]

٢- قوله تعالى: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ﴾، فيه إيجاز بالحذف، أي عما حرّم الله، لا عن كلّ شيء.

٣- تقديم غض الابصار على حفظ الفروج في الآيتين لأن النظر بريد الزنا ورائده.

٤- "﴿ذلِكَ﴾ أي ما ذكر من الغض والحفظ ﴿أَزْكى لَهُمْ﴾ أي أطهر من دنس الريبة، أو أنفع من حيث الدين والدُّنيا، فإن النظر برِيدُ الزِّنا، وفيه من المضار الدينية أو الدنيوية ما لا يخفى، وأفعل للمبالغة لا للتفضيل. ويجوز أن تكون للتفضيل على معنى أزكى من كلّ شيء نافع أو مُبعد عن الريبة، وقيل على معنى أنه أنفع من الزنا والنظر الحرام، فإنهم يتوهمون لذة ذلك نفعا"[2].

٥- "قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ في لفظ الضرب (مبالغة) في الصيانة والتستر، وقد عدي اللفظ بـ (على) لأنه ضُمِّن معنى الإلقاء ويكون المراد أن تسدل وتُلقي بالخمار على صدرها؛ لئلا يبدو شيء من النحر والصدر".[3]

٦- قوله تعالى: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾: (الواو) حرف عطف، و(يُبدين) عطف على (يغضضن)، فهو مبني على السُّكون؛ لاتصاله بنون النِّسوة في محل جزم، و(النون) فاعل، و(زينتهن) مفعول به المراد مواقع الزينة، من إطلاق الحال وإرادة المحل، مبالغة في الأمر بالتستر والتصون، وذكْرُ الزينة دون مواقعه؛: للمبالغة في الأمر بالتصوّن والتستر، قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: "لأنّ هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء، وهي: الذراع، والساق، والعضد، والعُنق، والرأس، والصدر، والأذن، فنهى عن إبداء الزين نفسها. ليُعلم أنَّ النظر إذا لم يحل إليها لملابستها تلك المواقع - بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها لا خلاف في حله - كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكِّنا في الحظر، ثابت

---

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٣/٢٢٩).

(٢) الألوسي، روح المعاني: (٩/٣٣٤) بتصرف.

(٣) الصابوني، مُحمد علي، روائع البيان تفسير آيات الأحكام: (٢/١٥٠).

القدم في الحرمة، شاهدًا على أن النساء حقُّهن أن يحتطن في سترها، ويتقين الله في الكشف عنها.[1]

٧- قال الزمخشري: وضع الواحد موضع الجمع لأنه يفيد الجنس ويبين ما بعده أنه يراد به الجمع، ونحوه ﴿ثم يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [الحج:٥] [2].

٨- "﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾: تلوينٌ للخطاب، وصرفٌ له عن رسول الله ﷺ إلى الكلّ بطريق التغليب، لإبراز كمال العناية بما في حيِّزه من أمر التوبة، وأنها من معظمات المهمات الحقيقية، بأن يكون سبحانه وتعالى الآمر بها، لما أنه لا يكاد يخلو أحد من المكلّفين عن نوع تفريط في إقامة مواجب التكاليف، كما ينبغي لا سيَّما في الكفِّ عن الشهوات" [3].

٩- "وفي تكرير الخطاب بقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيدٌ للإيجاب، وإيذان بأن وصف الإيمان موجِبٌ للامتثال حتمًا، وفيه دليل على أن المعاصي لا تُخرج عن الإيمان" [4].

التفسير:

قل - أيها النبي - للمؤمنين يَغُضُّوا مِن أبصارهم عمَّا لا يحلُّ لهم من النساء والعورات، ويحفظوا فروجهم عمَّا حَرَّم الله من الزنى واللواط، وكشف العورات، ونحو ذلك، ذلك أطهر لهم، إن الله خبير بما يصنعون فيما يأمرهم به وينهاهم عنه.

وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن عمَّا لا يحلُّ لهن من العورات، ويحفظن فروجهن عمَّا حَرَّم الله، ولا يُظهرن زينتهن للرجال، بل يجتهدن في إخفائها إلا الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلُبْسها، إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها، وليلقين بأغطية رؤوسهن على فتحات أعلى ثيابهن من جهة صدورهن مغطّيات وجوههن؛ ليكمل سترهن، ولا يُظْهِرْنَ الزينة الخفية إلا لأزواجهن؛ إذ يرون منهن ما لا يرى غيرهم. وبعضها، كالوجه، والعنق، واليدين، والساعدين يُباح رؤيته لآبائهن، أو آباء

---

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٣/٢٣٠).

(٢) المرجع السابق: (٣/٢٣٢).

(٣) الألوسي، روح المعاني: (٩/٣٤١).

(٤) المرجع السابق: (٩/٣٤١).

أزواجهن، أو أبنائهن، أو أبناء أزواجهن، أو إخوانهن، أو أبناء إخوانهن، أو أبناء أخواتهن، أو نسائهن المسلمات دون الكافرات، أو ما ملَكْنَ مِنَ العبيد، أو التابعين من الرجال الذين لا غرض ولا حاجة لهم في النساء، مثل البُلْه الذين يتبعون غيرهم للطعام والشراب فحسب، أو الأطفال الصغار الذين ليس لهم إدراكٌ لأمور عورات النساء، ولم توجد فيهم الشهوة بعد، ولا يضربُ النساء عند سَيْرهن بأرجلهن ليُسْمِعْن صوت ما خفي من زينتهن كالخلخال ونحوه، وارجعوا - أيها المؤمنون - إلى طاعة الله فيما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الحميدة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة؛ رجاءَ أن تفوزوا بخيري الدُّنيا والآخرة.

الهدايات المستنبطة:

١. وجوب غضِّ البصر من الرجال والنساء عمَّا لا يحل من جميع المحرّمات، وكلّ ما تُخشى الفتنة من أجله؛ لأن البصر مفتاح الوقوع في المنكرات، وشغل القلب بالهواجس، وتحريك النفس بالوساوس، وبريد السقوط في الفتنة أو الزنى، ومنشأ الفساد والفجور.

٢. وجوب ستر الفروج عن أن يراها من لا يحل، وحفظها من التلوث بالفاحشة كالزنى واللواط، واللمس والمفاخذة والسحاق.

٣. إن غض البصر وحفظ الفرج أطهر في الدين، وأبعد من دنس الذنوب، والله مطّلع عالم بأفعال العباد، ونيات القلوب، وهمسات الألسن، واستراق السمع والبصر، وبكلّ شيء، لا تخفى عليه خافية، ويجازي على ذلك كلّه.

٤. يُستنبط من قوله تعالى: ﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ قاعدة سدِّ الذرائع، فإذا كان المباح يُفضي إلى محرم أو يخاف من وقوعه؛ فإنه يُمنع منه.

٥. أَمْر الله المؤمنين بالتوبة في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾، تنبيه على أنه لا يخلو مؤمن من بعض هذه الذنوب التي هي: ترك غضِّ البصر، وحفظ الفرج، وترك إبداء الزينة وما يتبع ذلك، فمستقلٌّ ومستكثر.

زواج الأحرار ومكاتبة الأرقاء والإكراه على الزنى

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٢-٣٤].

معاني المفردات:

﴿وَأَنْكِحُوا﴾: زوّجوا.

﴿الْأَيامى﴾: من لا زوج له، رجلاً كان أو امرأة، بكرًا أو ثيّبًا.

﴿عِبادِكُمْ﴾: عبيدكم.

﴿وَإِمائِكُمْ﴾: جواريكم.

﴿يَبْتَغُونَ﴾: يطلبون.

﴿الْكِتابَ﴾: المكاتبة، بأن يشتروا أنفسهم من أسيادهم بمال مُقسَّط يؤدونه إليهم.

﴿خَيْرًا﴾: رُشْدًا وقُدرة على الكسب.

﴿فَتَياتِكُمْ﴾: جواريكم.

﴿الْبِغاءِ﴾: الزّنى.

﴿تَحَصُّنًا﴾: تعففًا.

سبب النزول:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾: أخرج ابن السَّكن أنها نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزّى يقال له: صبيح، سأله مولاه (عبده) أن يُكَاتِبَهُ، فأبى عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكاتبه حويطب على مائة دينار، ووهب له منها عشرين دينارًا فأدَّاها، وقتل يوم حنين في الحرب(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ [النور:٣٣]: روى مسلم بسنده عن جابر: "أن جارية لعبدالله بن أبي ابن سلول يُقال لها: مسيكة، وأخرى يقال لها: أميمة، فكان يكرههما على الزنا، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ (٢).

المناسبة:

بعد أن نهى الله تعالى عما لا يحل مما يُفضي إلى السِّفاح أو الزنى المؤدي إلى اختلاط الأنساب كغض البصر وحفظ الفروج، أعقَبَهُ ببيان طريق الحل وهو الزواج الحافظ للأنساب، وبقاء النوع الإنساني، وترابط الأسرة، ودوام الألفة، وحسن تربية الأولاَد.

الإعراب والبلاغة:

١. ﴿وأَنْكِحُوا﴾: فعل أمر، والخطاب لأُولِي الأمر وللأولياء والسادة من المسلمين.

٢. ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾: اللام لام الأمر، والفعلُ المضارعُ مجزومٌ بلامِ الأمر. والسِّين والتاء للطلب والمبالغة، أي وليبالغ في طلب الحلال وليجاهد نفسه في سبيل ذلك، سالكًا سُبُل العفاف، من صيام النافلة إلى الذكر وتلاوة القرآن والانشغال بسائر الأعمال الصالحة، سائلاً ربَّه العونَ عليه.

٣. تذييل الآية ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾: لتقرير معناها وترسيخ حكمها، ففضل الله تعالى واسعٌ، وعلمه تعالى لا منتهى له، وعطاؤه تعالى عن سعة وعلم.

---

(١) الواحدي، أسباب النزول: (ص٣٢٥).

(٢) مسلم، الصحيح: كتاب التفسير، باب: في قوله تعالى: (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) [النور:٣٣]: (٢٣٢٠/٤)، (ح٢٧)- (ح٣٠٢٩).

٤. قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾: قال أبو السعود: "ليس لتخصيص النَّهي بصورة إرادتِهِنَّ التَّعففَ عن الزِّنا وإخراجِ ما عداها من حُكمه، كما إذا كان الإكراه بسبب كراهتهنَّ الزِّنا لخصوصٍ، أو لخصوصِ الزَّمانِ، أو لخصوصِ المكانِ، أو لغيرِ ذلكَ من الأُمور المُصحِّحةِ للإكراه في الجُملةِ، بل للمحافظةِ على عادتهم المستمرَّة حيثُ كانُوا يكرهونَهنَّ على البغاء وهنَّ يُردن التَّعففَ عنه مع وفورِ شهوتهنَّ الآمرةِ بالفُجورِ، وقصورهنَّ في معرفةِ الأمورِ الدَّاعيةِ إلى المحاسنِ الزَّاجرةِ عن تَعَاطي القبائحِ، فإنَّ عبدالله بنَ أُبيّ كانت له ستُّ جوارٍ يُكرهُهُنَّ على الزِّنا، وضربَ عليهنَّ ضرائبَ؛ فشكتِ اثنتانِ منهنَّ إلى رسول الله ﷺ فنزلتْ الآية، وفيهِ من زيادةِ تقبيحِ حالهم وتشنيعهِم على ما كانُوا عليهِ من القبائحِ ما لا يَخْفى؛ فإنَّ مَن له أدنى مروءةٍ لا يكادُ يرضى بفجور من يحويهِ حرمُه من إمائهِ، فضلاً عن أمرهن به، أو إكراهن عليه، لا سيّما مع إرادتهنَّ التَّعففَ". [١].

٥. ﴿ومن يكرههن﴾: التعبير بالمضارع إعلامًا بأن يقبل التوبة ممن خالف بعد نزول الآية. [٢]

٦. "وإنَّما قيل ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مع شمولِ الموعظةِ للكلّ حسب شمول الإنزال لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا إليكم﴾؛ حثًّا للمخاطبين على الاعتناء بالانتظام في سِلْك المتَّقين ببيان أنَّهم المغتنمون لآثارها المُقتبسون من أنوارها فحسب"[٣].

التفسير:

وزوِّجوا - أيها المؤمنون - مَن لا زوج له من الأحرار والحرائر والصالحين مِن عبيدكم وجواريكم، إن يكن الراغب في الزواج للعفة فقيرًا يُغْنِه الله من واسع رزقه. والله واسع كثير الخير عظيم الفضل، عليمٌ بأحوال عباده، والذين لا يستطيعون الزواج لفقرهم أو غيره فليطلبوا العفة عمَّا حَرَّمَ الله حتى يغنيهم الله من فضله، ويُيسر لهم الزواج. والذين يُريدون أن يتحرروا من العبيد والإماء بمكاتبة أسيادهم

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: (١٧٣/٦) بتصرف يسير.

(٢) البقاعي، نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور: (٢٧٠/١٣).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: (١٧٥/٦).

على بعض المال يُؤَدُّونه إليهم، فعلى مالكيهم أن يُكاتبوهم على ذلك إن علموا فيهم خيرًا: مِن رشد، وقدرةً على الكسب، وصلاحٍ في الدين، وعليهم أن يعطوهم شيئًا من المال أو أن يحطُّوا عنهم مما كُوتبوا عليه. ولا يجوز لكم إكراه جواريكم على الزنى طلبًا للمال، وكيف يقع منكم ذلك وهن يُرِدْن العفة وأنتم تأبونها؟ وفي هذا غاية التشنيع لفعلهم القبيح. ومن يكرههنَّ على الزنى فإن الله تعالى من بعد إكراههن غفور لهن رحيم بهن، والإثم على مَن أكْرههن، ولقد أنزلنا إليكم - أيها الناس - آيات القرآن دلالات واضحات على الحق، ومثلاً من أخبار الأمم السابقة المؤمنين منهم والكافرين، وما جرى لهم وعليهم ما يكون مثلاً وعبرةً لكم، وموعظةً يتَّعِظُ بها من يتقي الله ويَحْذَرُ عذابه.

الهدايات المستنبطة:

١. إضافة المال إلى الله؛ لأنه مُيَسِّرُ أسباب تحصيله، وفيه إيماءٌ إلى أن الإعطاء من ذلك المال شكر، والإمساك جحد للنعمة؛ قد يتعرض به الممسك لتُسْلَب النعمة عنه.

٢. انتداب المسلمين حاكمين ومحكومين للمساعدة على تزويج الأيامى من المسلمين أحرارًا وعبيدًا.

٣. وجوب الاستعفاف على من لم يجد نكاحًا، والصبر حتى يُيسر الله أمره.

٤. حرمة الزنا بالإكراه أو بالاختيار، ومنع ذلك بإقامة الحدود.

٥. حرَّم الإسلام الزنا، وأغلق كلّ الطرق المُفضية إليه، ورغَّب في الزواج، وأمر بتيسير أسبابه، وإعانة قاصديه.

٦. رحمة الإسلام بالضعفاء من النساء والأرِقَّاء.

* * *

الله منوّر السماوات والأرض بدلائل الإيمان وغيرها

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾ [النور:٣٥].

معاني المفردات:

﴿نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: هو نور، وكتابه نور، وبه استنارت السماوات والأرض، يُدبِّر الأمر فيهما، ويهدي أهلهما.

﴿كَمِشْكاةٍ﴾: الكُوَّةُ في الحائط غير النافذة.

﴿دُرِّيٌّ﴾: مُضيء.

المناسبة:

بعد بيان الشرائع والأحكام الجزئية العملية (علم الفقه)، والأخلاق والآداب (علم الأخلاق)، انتقل البيان الرباني إلى دائرة العقيدة والإيمان وهي (علم التوحيد).

الإعراب والبلاغة:

١. **تشبيه المفرد بالمركب** قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور:٣٥] فشبَّه النور المفرد بالمشكاة المركبة من هذه الأجزاء والأوصاف [(١)].

---

(١) يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (ت: ٧٤٥هـ)، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: (١٨٥/٣). المكتبة العصرية – بيروت. ط. أولى (١٤٢٣هـ). والترديد من ألوان البديع: أن يأتي الشَّاعر بلفظة متعلقة بمعنى، ثم يردها بعينها متعلقة بمعنى آخر في البيت نفسه، أو في قسيم منه. ابن رشيق أبو

٢. **الطباق**: في قوله تعالى: ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[(١)].

٣. **التنكير**: في تنكير قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ ضربٌ من الفَخَامةِ والمبالغة لا أبلغ ولا أجمل منه، فليس هو نورًا واحدًا معيّنا أو غير مُعيّن فوق نور آخر مثله، وليس هو مجموع نورين اثنين فقط، بل هو عبارة عن نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه بحد معين[(٢)].

٤. **تشابه الأطراف**: وهو أن ينظر المتكلّم إلى لفْظَةٍ وقعت في آخرِ جملة من الفقرة في النثر، أو آخرِ لفظة وقعت في آخر المصراع الأول في النظم فيبتدىء بها... تأمل في تشابه أطراف هذه الجمل المتلاحقة ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾، ومن أمثلة الشعر في قول ليلى الأخيلية في الحجاج بن يوسف:

إذَا هَـبَط الحَجَّـاجُ أَرضًـا مَرِيضَـة ... تتبـع أقْصَـى دائهـا فشـفاها

شـفاها مـن الـدَّاء الْعُضال الَّـذِي بِهَا ... غُـلَام إِذَا هَـزَّ القنـاة سَـقَاها

سَـقَاهَا فروّاهـا بشِـرْبٍ سِـجَالُهُ ... دِمـاءَ رِجـال حَيْـثُ قَـالَ حشـاها[(٣)]

٥. جاء في هذه الآية تكريرُ "المصباح" مرَّتَيْن، وتكرير "الزُّجَاجة" مرتَيْن إلا أنّ المكرّر متعلّقٌ في الذِّكْر الثاني بغير ما تعلَّقَ به في الذّكر الأول، فهو ممّا يسمَّى "تَرديدًا" ولا يخفى ما في هذا الترديد في الآية من جمالٍ بديع[(٤)].

٦. "الأصل في التشبيه أن وجه الشبه في المشبَّهِ به أقوى وأبرز، وقد يكون الوجه أقوى وأكمل في

على الحسن القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، مُحمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، ط.٥، (١٤٠١هـ)، (٣٣٣/١).

(١) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: (٦١٠/٦).

(٢) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: (٦١١/٦).

(٣) إعراب القرآن وبيانه: (٦١١/٦). ويُراجع لشهاب الدين النويري (ت: ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ط. أولى (١٤٢٣هـ): (١٨١/٧).

(٤) عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت: ١٤٢٥هـ)، البلاغة العربية (٧٢/٢) ط. دار القلم، دمشق، ط.١ (١٤١٦هـ).

المشبَّه، ومن لطائف البيان أن أبا تمام أراد مدح أحمد ابن الخليفة المعتصم فقال في حقه:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

فأنكر بعض المتملّقين على أبي تمام أن الأمير أكبر من أن يُشبه في ذلك، فقال مرتجلاً:

لا تنكروا ضربي له من دونه... مثلاً شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره... مثلاً من المشكاة والنبراس

فاحتج بالآية الكريمة التي قال الله فيها: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥]، فالأصل أن يكون نور الله أقوى من كلّ نور، لكنه شبه الأقل بنوره من المشكاة والنبراس من باب التوضيح والبيان.

٧. **كمال الاتصال**: مجيء أغلب الجمل في الآية بغير عطف، مع شدة ترابطها وتعانقها واتحادها وهذا من بلاغة القرآن، "فانظر إلى تعديد هذه الجمل ومجِيئها من غير حرف عطف، كيف أفادت المبالغة في حال الموْصُوف، وأشادت من قدْرِهِ ورفعت من حاله، وأبانت المقصود على أحسن هيئة"[(١)].

التفسير:

الله نور السماوات والأرض يُدبِّر الأمر فيهما ويهدي أهلهما، فهو - سبحانه - نور، وحجابه نور، به استنارت السماوات والأرض وما فيهما، وكتاب الله وهدايته نور منه سبحانه، فلولا نوره تعالى لتراكمت الظلمات بعضها فوق بعض. مثل نوره الذي يهدي إليه، وهو الإيمان والقرآن في قلب المؤمن كمشكاة، وهي الكُوَّة في الحائط غير النافذة، فيها مصباح، حيث تجمع الكوَّة نور المصباح فلا يتفرق، وذلك المصباح في زجاجة، كأنها -لصفائها - كوكب مُضيءٌ كالدُّر، يوقَد المصباح من زيت شجرة مباركة، وهي شجرة الزيتون، لا شرقية فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ولا غربية فقط فلا تصيبها الشمس أول النهار، بل هي متوسطة في مكان من الأرض لا إلى الشرق ولا إلى الغرب،

---

(١) المؤيد بالله، يحيى بن حمزة (ت: ٧٤٥هـ)، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: (٣/٦٧).

يكاد زيتها -لصفائه - يُضيءُ من نفسه قبل أن تمسّه النار، فإذا مَسَّتْه النار أضاء إضاءة بليغة، نور على نور، فهو نور من إشراق الزيت على نور من إشعال النار، فذلك مثل الهُدَى يُضيء في قلب المؤمن. والله يهدي ويُوفِق لاتباع القرآن مَن يشاء، ويضرب الأمثال للناس؛ ليعقلوا عنه أمثاله وحكمه. والله بكلّ شيء عليم، لا يخفى عليه شيء.

الهدايات المستنبطة:

١. أن الله ﷻ بذاته وصفاته نور، وآياته نور، وهو مُنَوِّرُ السماوات والأرض، وخالق النور فيهما.

٢. قوة نور الهداية في قلب المؤمن كامل الإيمان، ونفوذ بصيرته، ووضوح الطريق أمامه؛ لأنه يسير على نور من الله ﷻ.

٣. ضرب الأمثال للناس بتشبيه الأمر المعنوي بأمر حسِّي؛ تقريبًا للأذهان، وزيادة في الإيضاح والبيان؛ لإقامة الحجة على الأنام.

٤. تأمل قوله تعالى: ﴿الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾؛ تجد أن الله شبَّه الزُّجاجة بالكوكب ولم يشبهها بالشمس والقمر؛ لأن الشمس والقمر يلحقهما الخسوف، والكواكب لا يحلقها الخسوف.

* * *

المؤمنون المهتدون بنور الله تعالى

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

معاني المفردات:

﴿فِي بُيُوتٍ﴾: هذا النور في مساجد.

﴿تُرْفَعَ﴾: تُعظَّم بالتعمير، والتطهير.

﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾: أول النهار، وآخره.

﴿يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ﴾: أي: بين الرجاء، والخوف.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: بلا عدٍّ، ويُعطي من الأجر ما لا يبلغه عمل العامل.

المناسبة:

بعد أن بين الله تعالى كون نوره سبيلا لهداية عباده، بما أقام لهم من الآيات البينات، ذكر هنا حال المنتفعين بذلك النور.

الإعراب والبلاغة :

١- "فِي بُيُوتٍ يتعلق بما قبله، أي، كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد، كأنه قيل: مثل نوره كما يُرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت. أو بما بعده، وهو يسبح، أي: يسبح له رجال في بيوت. وفيها تكرير، كقولك: زيد في الدار جالس فيها. أو بمحذوف، كقوله فِي تِسْعِ آياتٍ أي سبحوا في بيوت".[١]

---

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٣/٢٤٢).

٢- ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾: قوله: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ النكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي ولا نوع من أنواع البيع، ونفى التجارة أولاً ثم نفى البيع، كما نقول فلان لا يغريه ألف ولا عشرة آلاف، أو فلان لا يغريه الفضة ولا الذهب، فالبيع ثمرة التجارة وفائدته، التاجر يقف في السوق أو في دكانه بالساعات بينما يُنهي صفقة البيع في لحظات، فالبيع هو الغرض من التجارة وهو الأحب إلى القلب، وهو ما يترقبه التاجر، وهؤلاء الرجال الذين امتدحهم الله تعالى لا تلهيهم التجارة ولا يلهيهم البيع عن ذكر الله وإقام الصلاة... ونظير هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة٩]. فقال: ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾، ولم يقل: "وذروا التجارة"؛ لأن البيع أحب إلى النفس، فهي عليه أحرص، فترك ما سواه مما لم يبلغ أهميته من باب أولى.

٣- **التعبير بالفعل المضارع** ﴿يَخَافُونَ﴾ للدلالة على التجدد والاستمرار، فهكذا حالُهم دائمًا.

٤- **جناس الاشتقاق**: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ﴾.

٥- **العدول عن الضمير للاسم الظاهر**: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، لتجري مجرى المثل والاقتباس، وزيادة في المهابة والتعظيم. وفيه إشارة إلى أن الاشتغال بالعبادة لا يمنع رزقا، بل العبادة من أسباب سعة الرزق، ففيه طمأنة لمن اجتهد في عبادة ربّه، فهو تعالى الرازق، والمؤمن يوازن بين حق العبادة وواجب السعي لطلب الرزق، فلا يقصّر في أحدهما بل يعطي كلاً حقه. قال الشربيني: " وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تقرير للزيادة، وتنبيه على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة الإحسان وكمال جوده...فالله سبحانه وتعالى يعطيهم الثواب العظيم على طاعتهم، ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم". (١)

(١) الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٦٢٦/٢).

التفسير:

هذا النور المضيء في المساجد أَمَرَ الله أن يُرْفع شأنها وبناؤها، ويُذْكر فيها اسمه بتلاوة كتابه والتسبيح والتهليل، وغير ذلك من أنواع الذكر، يُصلِّي فيها لله في الصباح والمساء، رجال لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذِكْرِ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة لمستحقيها، يخافون يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب بين الرجاء في النجاة والخوف من الهلاك، وتتقلب فيه الأبصار تنظر إلى أي مصير تكون؟ ليعطيهم الله ثواب أحسن أعمالهم، ويزيدهم من فضله بمضاعفة حسناتهم. والله يرزق مَن يشاء بغير حساب، بل يعطيه مِنَ الأجر ما لا يبلغه عمله، وبلا عدٍّ ولا كيل.

الهدايات المستنبطة:

١. إن أول موضع تظهر فيه هداية الله ونوره هو المساجد التي يشيد بناءها المؤمنون، ويعمرونها بالصلاة والأذكار في أوائل النهار وأواخره، والمساجد المخصوصة لله تعالى بالعبادة تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض.

٢. عمارة المساجد تكون بالبناء، وبالصلاة، وتلاوة القرآن، والأذكار، وحلقات التعليم.

٣. يستنبط من قوله تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ إغلاق المحلات وقت الصلاة؛ تعظيمًا لهذه الشعيرة؛ وحفزًا للجماعة.

٤. وصف الله تعالى المُسبّحين في المساجد بأنهم المُراقبون أمر الله، الطَّالبون رضاه، الذين لا يُشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدُّنيا.

٥. يكافئ الله ويجازي على الحسنات ويضاعف الثواب إلى عشر أمثاله.

* * *

حال الكافرين في الدُّنيا وخسرانهم في الآخرة

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٣٩-٤٠].

معاني المفردات:

﴿كَسَرَابِۭ﴾: هو ما يشاهد كالماء على الأرض المستوية في الظهيرة.

﴿بِقِيعَةٖ﴾: الأرض المنخفضة المستوية، وفيها يكون السراب.

﴿لُّجِّيّٖ﴾: عميق كثير الماء.

﴿يَغۡشَىٰهُ﴾: يعلوه.

المناسبة:

بعد بيان حال المؤمنين، وأنهم في الدُّنيا يكونون في نور الله، وبسببه يتمسكون بالعمل الصالح، وفي الآخرة يفوزون بالنعيم المقيم والثواب العظيم؛ أتْبَع ذلك ببيان حال الكافرين، فإنهم يكونون في الآخرة في أشد الخسران، وفي الدُّنيا في أعظم أنواع الظلمات.

الإعراب والبلاغة:

١. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ تشبيهُ معنًى بصورة، وهو أبلغ التشبيه؛ لتمثيله المعاني الغائبة في صور المشاهدة، وهو من تشبيه مفرد بمركب، أو تشبيه المعقول بالمحسوس. و"في كيفية هذا التشبيه وجوه؛ أحدها: قال الحسن: إن الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمة؛ ظلمة البحر، وظلمة الأمواج، وظلمة السحاب؛ كذا الكافر له ظلمات ثلاث: ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول، وظلمة العمل، ثانيها: قال ابن عباس: شبه قلبه وسمعه وبصره

بهذه الظلمات الثلاث، ثالثها: أن الكافر لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، ويعتقد أنه يدري، فهذه المراتب الثلاثة شبه تلك الظلمات الثلاث، رابعها: قلبٌ مظلمٌ في صدرٍ مظلمٍ في جسد مظلم، خامسها: أن هذه الظلمات متراكمة، فكذا الكافر لشدة إصراره على كفره، قد تراكمت عليه الضلالات حتى لو ذكر عنده أظهر الدلائل لم يفهمه". [(١)]

٢. ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: العدول عن الضمير للاسم الظاهر؛ لتجري مجرى المثل والاقتباس، وزيادة في المهابة والتعظيم.

التفسير:

والذين كفروا بربهم وكذَّبوا رسله، أعمالهم التي ظنوها نافعة لهم في الآخرة، كصلة الأرحام وفك الأسرى، وغيرها، كسراب، وهو ما يُشاهَد كالماء على الأرض المستوية في الظهيرة، يظنه العطشان ماءً، فإذا أتاه لم يجده ماءً. فالكافر يظن أن أعماله تنفعه، فإذا كان يوم القيامة لم يجد لها ثوابًا، ووجد الله سبحانه وتعالى له بالمرصاد فوفَّاه جزاء عمله كاملاً. والله سريع الحساب، فلا يستبطئ الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بدَّ مِن إتيانه، أو تكون أعمالهم مثل ظلمات في بحر عميق يعلوه موج، من فوق الموج موج آخر، ومِن فوقه سحاب كثيف، ظلمات شديدة بعضها فوق بعض، إذا أخرج النَّاظر يده لم يقارب رؤيتها من شدة الظلمات، فالكفار تراكمت عليهم ظلمات الشرك والضلال، وفساد الأعمال. ومن لم يجعل الله له نورًا من كتابه وسنة نبيه يهتدي به فما له مِن هاد.

الهدايات المستنبطة:

١. القرآن لا يفتح كنوزه لمن تعلق قلبه بشيء من ظلمة الهوى، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.
٢. استحسان ضرب الأمثال؛ لتقريب المعاني البعيدة إلى الأذهان.
٣. بيان خسران الكافرين في أعمالهم وحياتهم كلّها.
٤. بيان حال الكافرين في هذه الدُّنيا، وأنهم يعيشون في ظلمات الجهل والكفر والظلم، كما أنهم يتخبطون في الظلمات يوم القيامة.

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٢/٦٢٨).

الأدلة الكونية على وجود الله وتوحيده

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ [النور: ٤١-٤٦].

معاني المفردات:

﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾: باسِطَاتٍ أجنحتهن في الهواء.

﴿يُزْجِى﴾: يسوق، ومنه البضاعة المزجاة التي يدفعها كلّ من يراها.

﴿يُؤَلِّفُ﴾: يجمع.

﴿رُكَامًا﴾: متراكمًا، بعضه فوق بعض.

﴿ٱلْوَدْقَ﴾: المطر.

﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾: من بينه.

﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾: ضوء البرق ولمعته.

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى ما استنارت به قلوب المؤمنين بالهداية، وما أظلمت به قلوب الكافرين بالضلالة، أتبع ذلك ببيان أدلة التوحيد والقدرة.

الإعراب والبلاغة:

١- واختُلف في عود الضمائر في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ على قولين، أحدهما: أنها كلّها عائدة على كلّ، أي: كلٌّ قد علم هو صلاة نفسه وتسبيحها؛ قال ابن عادل: وهذا أولى لتوافق الضمائر، ثانيهما: أن الضمير في علمٍ عائدٌ إلى الله تعالى، وفي صلاته وتسبيحه عائدٌ على كلّ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿والله﴾ أي: المحيط علمًا وقدرة.[(١)]

٢- الجِنَاس التام ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾، ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فاللفظ واحد، والمعنى مختلف؛ فالأُولى العيون، والثانية البصائر.

٣- "فإن قيل: لم نكَّر الماء في قوله تعالى: ﴿مِّن مَّآءٖ﴾، وعرَّفه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]؟ أجيبَ: بأنه جاء ههنا منكَّرًا؛ لأن المعنى خلق كلّ دابة من نوعٍ من الماء مختصًّا بتلك الدابة، وعرَّفه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾؛ لأن المقصود هناك كونهم مخلوقين من هذا الجنس، وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم إلى أنواع كثيرة"[(٢)].

التفسير:

ألم تعلم - أيها الرسول - أن الله يُسَبِّح له مَن في السماوات والأرض من المخلوقات، والطير صافَّات أجنحتها في السماء تُسبِّح ربها؟ كلّ مخلوق قد أرشده الله كيف يصلي له ويسبحه. وهو

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٢/٦٣٢)، ويُراجع: لابن عادل الحنبلي، اللُّباب في علوم الكتاب: (١٤/٤١٠).

(٢) الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٢/٦٢٨)، ويُراجع للزمخشري، الكشاف: (٣/٢٤٦)، ولابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب: (١٤/٤٢٤).

سبحانه عليم، مُطَّلِع على ما يفعله كلّ عابد ومسبِّح، لا يخفى عليه منها شيء، وسيجازيهم بذلك، ولله وحده ملك السماوات والأرض، له السلطان فيهما، وإليه المرجع يوم القيامة، ألم تُشاهد أن الله سبحانه وتعالى يسُوق السحاب إلى حيث يشاء، ثم يجمعه بعد تفرُّقِه، ثم يجعله متراكمًا، فينزل مِن بينه المطر؟ وينزل من السحاب الذي يشبه الجبال في عظمته بَرَدًا، فيُصيب به مَن يشاء من عباده ويصرفه عمَّن يشاء منهم بحسب حكمته وتقديره، يكاد ضوء ذلك البرق في السحاب مِن شدته يذهب بأبصار الناظرين إليه.

ومن دلائل قدرة الله سبحانه وتعالى أنه يقلب الليل والنهار بمجيء أحدهما بعد الآخر، واختلافهما طولاً وقِصَرًا، إن في ذلك لَدلالةٌ يعتبر بها كلّ مَن له بصيرة، والله تعالى خلق كلّ ما يدِب على الأرض مِن ماء، فالماء أصلُ خلقه، فمن هذه الدواب: مَن يمشي زحفًا على بطنه كالحيَّات ونحوها، ومنهم مَن يمشي على رجلين كالإنسان، ومنهم من يمشي على أربع كالبهائم ونحوها. والله سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء، وهو قادر على كلّ شيء، لقد أنزلنا في القرآن علامات واضحات مرشدات إلى الحق. والله يهدي ويوفق مَن يشاء مِن عباده إلى الطريق المستقيم، وهو الإسلام.

الهدايات المستنبطة:

١. من مظاهر لُطف الله بعباده صرف البَرَد عن الزرع والماشية وبعض عباده.

٢. امتنان الله تعالى على العباد بإنزاله الآيات المبينات للهدى، وطريق السعادة والكمال.

٣. ينبغي على العبد البصير النظر إلى المخلوقات نظر اعتبار وتفكُّر وتدبُّر؛ لما أريد بها ومنها.

٤. فائدة قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾؛ تنبيهُ العقول إلى التدبر في هذه التغيرات؛ إذ كان شعور الناس بحدوث البرق أوضح وأكثر من شعورهم بتكون السحاب وتراكمه ونزول المطر والبرد.

البقاء على الضلال والنفاق بالرغم من البيان الشافي

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور:٤٧-٥١].

معاني المفردات:

﴿مُذعِنِين﴾: طائعين منقادين.

﴿مرضٌ﴾: نفاق.

﴿ارْتَابوا﴾: شكُّوا في النبوة.

﴿يَحِيفَ﴾: يجور.

سبب النزول:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: قال المفسِّرون: هذه الآيات نزلت في (بِشْر) المنافق وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض، فجعل اليهودي يجرّه إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما، وجعل المنافق يجرّه إلى كعب بن الأشرف، ويقول: إن مُحمدا يحيف علينا [(١)].

المناسبة:

بعد بيان أدلة التوحيد، ذمّ الله تعالى قومًا وهم المنافقون اعترفوا بالدين بألسنتهم، ولكنهم لم يقبلوه بقلوبهم.

---

(١) الواحدي، أسباب النزول: (ص٣٢٧).

الإعراب والبلاغة:

١- **مجيء المضارع** ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ لإفادة تجدد ذلك منهم، واستمرارهم عليه؛ لما فيه من تكرر الكذب ونحوه من خصال النفاق، أو لاستحضار تلك الصورة في الأذهان تشنيعًا واستهجانًا.

٢- **حُسْن التقسيم**: في قوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأن توليهم عن حكم الله ورسوله إما لمرض في قلوبهم كالنفاق، أو لريبة، أي: شك وتردد يتوجّسون منه، أو خوف من حكم الله ورسوله أن لا يكون في صالحهم، فلا يخرج إعراضهم عن حكم الله عن هذه الثلاث، وهم في كلّ الأحوال ظلمة، لذا ختم سبحانه بقوله: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

٣- **القصر**: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، بتعريف طرفي الجملة وضمير الفصل لتأكيد القصر والمبالغة في بيان ظلمهم، وتأكيد الجملة بمجيئها اسمية، وفيه أيضًا مراعاة الفاصلة، كما أفاد اسم الإشارة للبعيد بيان إيغالهم في الظلم.

التفسير:

ويقول المنافقون: صَدَّقنا بالله وبما جاء به الرسول، وأطعنا أمرهما، ثم تُعْرِضُ طوائف منهم من بعد ذلك فلا تقبل حكم الرسول، وما أولئك بالمؤمنين، وإذا دُعوا في خصوماتهم إلى ما في كتاب الله وإلى رسوله؛ لِيَحكُم بينهم، إذا فريق منهم معرض لا يقْبَلُ حُكْمَ الله وحكم رسوله، مع أنه الحق الذي لا شك فيه.

وإن يكن الحق في جانبهم فإنهم يأتون إلى النبي عليه الصلاة والسلام طائعين منقادين لحكمه؛ لعلمهم أنه يقضي بالحق، أسَبَبُ الإعراض ما في قلوبهم من مرض النفاق، أم شكُّوا في نبوة مُحمد ﷺ، أم السبب خوفهم أن يكون حكم الله ورسوله جائرًا؟ كلّا إنهم لا يخافون جورًا، بل السبب أنهم هم الظالمون، الذين لا يريدون للعدالة أن تكون.

الهدايات المستنبطة:

١-قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إيماءٌ إلى أن حظَّهم من الإيمان مجرَّد القول دون الاعتقاد.

٢-من دُعي إلى الكتاب والسُّنة فأعرض فهو منافق معلوم النفاق.

٣-فضلُ طاعة الله ورسوله وتقوى الله عز وجل، وأن أهلها هم الفائزون بالنجاة من النار ودخول الجنان.

٤-تفنيد القرآن الكريم لشبه المنافقين، ودَحْضِه لأباطيلهم.

* * *

الطاعة والامتثال عند المؤمنين

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٥١-٥٤].

معاني المفردات:

﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: مجتهدين في الحلف والأيْمَان.

﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾: طاعتكم معروفة بأنها باللسان فقط.

﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾: على الرسول فعل ما أُمر به من تبليغ الرسالة.

﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾: عليكم فعل ما كلّفتم به من الامتثال.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله ﷻ قول المنافقين وفعلهم، وبقاءهم على النفاق، ونفي الإيمان الحق؛ ذكر الله تعالى ما هو شأن أهل الإيمان في الطاعة والامتثال، وصفات المؤمن الكامل، وما يجب أن يسلكه المؤمنون.

الإعراب والبلاغة:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، (قول): خبرٌ مُقدَّم، وجملة ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ مُؤَوَّلة بمصدر خبر، قال الزمخشري: "والنصب أقوى؛ لأنّ أولى الاسمين بكونه اسمًا لكان أوغلهما في

التعريف، و﴿أَن يَقُولُوا۟﴾: أوغل، لأنه لا سبيل عليه للتنكير، بخلاف قول المؤمنين".[1]

٢- القصر ب (إنما)؛ الثناء على المؤمنين برسوخ إيمانهم وثبات طاعتهم في المنشط والمكره.

٣- قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾: تعريف طرفي الجملة لإفادة القصر فأولئك هم المفلحون لا غيرهم، واسم الإشارة للبعيد لبيان بعد منزلتهم، و(هُمْ) لتوكيد القصر والاختصاص. والاسميّة للتوكيد والثبات.

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: تذييلٌ لتقرير المعنى، وفيه تسليةٌ وتثبيتٌ للمؤمنين، وتهديد ووعيد للمنافقين الناكثين. قال الزمخشري: "يعلم ما في ضمائركم ولا يخفى عليه شيء من سرائركم، وأنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم"[2].

٥- الالتفات من الغيْبَة للخطاب: في ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾؛ مبالغةٌ في تبكيتهم، وتقريعهم.

٦- المُشاكلة: ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ فاللفظ واحد والمعنى مختلف، أي عليه أمرُ التبليغ وعليكم وزر التولي والإعراض.

التفسير:

دأبُ المؤمنين حقًّا إذا دعوا إلى التحاكم في خصوماتهم إلى كتاب الله وحكم رسوله، أن يقبلوا الحكم، ويقولوا: سمعنا ما قيل لنا، وأطعنا مَن دعانا إلى ذلك، وأولئك هم المفلحون الفائزون بمطلوبهم في جنات النعيم، ومن يطع الله ورسوله في الأمر والنهي، ويَخَفْ عواقب العصيان، ويحْذَر عذاب الله، فهؤلاء هم الفائزون بالنعيم في الجنة، وأقسَمَ المنافقون بالله تعالى غاية اجتهادهم في الأيمان المغلَّظة: لئن أمرتنا - أيها الرسول - بالخروج للجهاد معك لنخرجن، قل لهم: لا تحلفوا كذبًا، فطاعتكم معروفة بأنها باللسان فحسب، إن الله خبير بما تعملونه، وسيجازيكم عليه، قل - أيها الرسول - للناس: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن تُعرِضوا فإنما على الرسول فِعْلُ ما أُمر به من تبليغ الرسالة، وعلى

---

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٣/٢٤٩).

(٢) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٣/٢٥٠).

الجميع فِعْلُ ما كُلّفوه من الامتثال، وإن تطيعوه ترشدوا إلى الحق، وليس على الرسول إلا أن يبلغ رسالة ربه بلاغًا بيّنًا.

الهدايات المستنبطة:

١. الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وفي تقرير طاعة الرسول ﷺ بيانٌ وتأكيدٌ لحجية السُّنة النبوية.

٢. طاعة الرسول ﷺ من أسباب الهداية.

٣. قال بعض السَّلف: من أَمّرَ السُّنة على نفسه قولاً وفعلاً؛ نطق بالحكمة، ومن أَمّرَ الهوى على نفسه قولاً وفعلاً؛ نطق بالبدعة، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾.

٤. بيان مهمة الرسول ﷺ وهي البلاغ الواضح، فعلى المؤمنين أن يتبعوه فيما بلَّغ.

٥. دأب المنافقين كثرة الأَيْمَانِ والمبالغة فيها مع كذبهم ونكوثهم.

* * *

التمكين لأهل الإيمان

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧﴾ [النور: ٥٥ - ٥٧].

معاني المفردات:

﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾: الاستخلاف: جعلهم خلفاء.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ﴾: بنصرهم وظفرهم، فالتمكين للمؤمنين تمكين للدِّين.

﴿مُعۡجِزِينَ﴾: فائتين من العذاب، ناجين من العقاب.

سبب النزول:

أخرج الحاكم وصححه، والطبراني عن أُبَيّ بن كعب ﷺ قال: لـمَّا قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين، لا نخاف إلا الله، فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ الآية [(١)].

---

(١) الحاكم، المستدرك على الصحيحين: تفسير سورة النور: (ح٣٥١٢)، قال الحاكم: هذا (حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه)، وقال الذهبي: (صحيح)، تلخيص الذهبي: (ح٣٥١٢).

المناسبة:

بعد الكلام عن الطاعة وثمرتها، وعد الله سبحانه بتمكين المؤمنين الطائعين واستخلافهم في الأرض، وتأييدهم بالنصر والإعزاز، وإظهار دينهم على الدين كلّه، وتبديلهم من بعد خوفهم من العدو أمنا، فيعبدون الله آمنين لا يُشركون به شيئًا ولا يخافون. ثم أمرهم بالصلاة والزكاة شكرًا لتلك النعم، وطَمْأنهم بتحقق الوعد السابق بإهلاك الكافرين وزجّهم في نار جهنم.

الإعراب والقراءات والبلاغة:

١. **إعراب:** "﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾ الجملة في موضع نصب على الحال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وصيغة المضارع دالة على الاستمرار التجدُّدي، أو حال من الضمير العائد عليه في ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾، أو في ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾، أي حالة كونهم يعبدونني، فالتمكين مشروط بعبادة الله تعالى وحده، والاستخلاف والأمن مرهون بعبادة الله وحده، فبالعبادة يتحقق ذلك كلّه. "وجُوّز أن تكون مستأنفة: إما لمجرد الثناء على أولئك المؤمنين على معنى هم يعبدونني، وإما لبيان علة الاستخلاف، وما انتظم معه في سلك الوعد، وقوله تعالى: ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ حال من الواو في ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾، أو من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أو بدل من الحال أو استئناف"[(١)].

٢. **القراءات:** قوله جلَّ وعزَّ: ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ﴾: قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿كَمَا اسْتُخْلِفَ الَّذِينَ﴾ بضم التاء وكسر اللام. وقرأ الباقون ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ﴾ بفتح التاء واللام. قال أبو منصور: "معنى ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ﴾: كَمَا اسْتَخْلَفَ اللَّه الَّذِينَ من قبلهم. وَمَنْ قَرَأَ ﴿كَمَا اسْتُخْلِفَ الَّذِينَ من قبلهم﴾ الذين: في موضع الرفع لأنه مفعول لم يُسمّ فاعله"[(٢)].

- في قوله: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: القراءة بالتاء على معنى: لا تَحْسَبَنَّ يا محمد الكَافِرِينَ مُعْجِزِينَ، أي قدرةُ اللَّهِ محيطة بِهِمْ، وقُرِئَت: ﴿لَا يُحْسَبَنَّ﴾ عَلَى حَذْفِ المفعول

(١) الألوسي، روح المعاني: (٩/٣٩٤) بتصرف يسير.

(٢) الأزهري، معاني القراءات: (٢/٢١١).

الأول مِنْ "يحسَبَن" على معنى: لا يَحْسَبَن الذين كفروا إياهم معجزين في الأرض، كما تَقُولُ: زَيْد حَسِبهُ – فإنما تريد حَسِبَ نَفْسَه – قَائِمًا"[1].

٣. **المقابلة**: بين بِشَارة المؤمنين بالتمكين، وتخويف الكفار وإنذارهم بالقهر والغلبة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. قال الألوسي: "بيانٌ لمآل الكفرة في الدُّنيا والآخرة بعد بيان تناهيهم في الفسق وفوز المؤمنين بالرحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدارين، وفي ذلك أيضًا رفع استبعاد تحقُّقِ الوعد السابق مع كثرة عدد الكفرة وعددهم" [2].

٤. **التذييل**: جملة ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾: تقريرٌ لما قبلها وذمٌّ وتنفيرٌ من عاقبة أمرهم.

التفسير:

وعد الله بالنصر الذين آمنوا منكم وعملوا الأعمال الصالحة، بأن يُورثهم الأرض، ويجعلهم خلفاء فيها، مثلما فعل مع أسلافهم من المؤمنين بالله ورسله، وأن يجعل دينهم الذي ارتضاه لهم – وهو الإسلام – دينًا عزيزًا مكينًا، وأن يُبدِّل حالهم من الخوف إلى الأمن، إذا عبدوا الله وحده، واستقاموا على طاعته، ولم يُشركوا معه شيئًا، ومن كفر بعد ذلك الاستخلاف، والأمن، والتمكين، والسلطنة التامة، وجحد نِعَم الله، فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله، وأقيموا الصلاة تامة، وآتوا الزكاة لمستحقيها، وأطيعوا الرسول ﷺ؛ رجاء أن يرحمكم الله، لا تظننَّ الذين كفروا معجزين الله في الأرض، بل هو قادر على إهلاكهم، ومرجعهم في الآخرة إلى النار، وقبُح هذا المرجع والمصير، وهو توجيه عام للأمّة، وإن كان الخطاب فيه للرسول ﷺ.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: (٥٢/٤)، قرأ ابن عامر وحمزة (وَلَا يَحْسَبَنَّ) بالياء، وقرأ حفصٌ بالتاء، الأزهري، معاني القراءات: (٤٤١/١).

(٢) الألوسي، روح المعاني: (٣٩٨/٩) بتصرف.

الهدايات المستنبطة:

١. قدم ﷻ على وعدهم بالأمن وعدهم بالاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين والشريعة فيهم؛ تنبيهًا لهم بأن سُنَّة الله أنه لا تأمن أمة بأْسَ غيرها؛ حتى تكون قوية مكينة مُهيمنة على أصقاعها.

٢. في قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ دلالة واضحة على أن خلفاء الأمة مثل: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، كانوا بمحل الرِّضى من الله تعالى؛ لأنه استخلفهم استخلافًا كاملاً كما استخلف الذين من قبلهم، وفتح لهم البلاد من المشرق إلى المغرب، وأخاف منهم الأكاسرة والقياصرة.

٣. إثبات صفة الكلام لله عزّ وجلّ وأنه متكلّم؛ لأن الوعد نوع من أنواع الكلام.

٤. إن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة أوامر الرسول ﷺ، واجتناب نواهيه؛ سبب للرحمة الشاملة من الله تعالى.

* * *

أدب الاستئذان داخل البيوت

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾﴾ [النور:٥٨-٦٠].

معاني المفردات:

﴿لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾: أي: دون سن الاحتلام، والبلوغ.

﴿جُنَاحُۢ﴾: حرج.

﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ﴾: العجائز من النساء اللاتي قعدن عن الحيض، والولد، والاستمتاع؛ لكبرهن.

﴿مُتَبَرِّجَٰتِۭ﴾: مُظْهِرات للزينة الخفية.

سبب النزول:

قال ابن عباس: وجّه رسول الله ﷺ غلامًا من الأنصار يقال له: مُدْلِجُ بْنُ عَمْرٍو إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالة كَرِهِ عمر رؤيته ذلك، فقال: يا رسول الله وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾. وقال مقاتل: نزلت في أسماء بنت أبي مرثد كان لها غلامٌ كبير،

فدخل عليها في وقتٍ كَرِهَتْهُ، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية [1].

المناسبة:

بيان تتمة الأحكام السابقة بعد تمهيد ما يوجب الامتثال بالأوامر والنواهي الواردة فيها، وفي الأحكام اللاحقة من التمثيلات، والترغيب، والترهيب، والوعد، والوعيد.

الإعراب والقراءات والبلاغة:

١. **القراءات:** قرأ أبو بكر عن عاصم، وحمزة، والكِسائي (ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ) نصبًا. وقرأ الباقون (ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ) بالرفع. قال أبو منصور: من نصب (ثلاثَ عورات) فهو يتبعُ الصفة. المعنى: ليستئذنكم الذين ملكت أيمانكم وكذا وكذا، في أوقات ثلاثَ عورات. وَمَنْ قَرَأَ (ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ)، أراد: هذه الخصال وقت العورات [2].

٢. **البلاغة: التعبير عن الأوقات بالعورات،** لأنها أوقات راحة واسترخاء فيتخفف فيها الإنسان من ثيابه لذا شُرِع الاستئذان على الأطفال والخدم، الذين جرت العادة في كثرة دخولهم وخروجهم، كما يفيده التعبير بـ (طوافون عليكم) أي كثرة ترددهم، والتعبير بالاسمية يفيد التوكيد والثبات.

الطرد والعكس: هو أن يُؤْتَى بكلامَيْنِ يُقَرِّرُ كلّ مِنْها بمنطُوقه مفهوم الثاني منهما. فهو من الإِطناب، وفائدته تأكيد منطوق كلّ منهما لمفهوم الآخر. جاء في هذه الآية الأَمْرُ بالاسْتئذان في ثلاثة أوقات، وهذا يفيد بمفهومه عدم وجوب الاستئذان في غيرها. وجاء بعد ذلك رَفْعُ الجناح عن الطواف دون استئذان في غير الأوقات الثلاثة، وهذا يفيد بمفهومه وجوب الاستئذان فيها. فكان كلٌّ من القولين مقرّرًا بمنطوقه مفهوم الثاني منهما، وهو من

(١) الواحدي، أسباب النزول: (ص٣٢٩).

(٢) معاني القراءات، للأزهري (٢/٢١٢).

التأكيد اللطيف.[1]

جملة التذييل ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تقرير للحكم، فالله تعالى أعلم بما يصلح عباده، وهو حكيم في شرائعه وأحكامه، وفي التذييل: تربية للنفوس على مراقبة من لا تخفى عليه خافية.

٣. **الإعراب**: قوله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي هم طوافون عليكم.

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بشرعه؛ مُروا عبيدكم وإماءكم، والأطفال الأحرار دون سن الاحتلام أن يستأذنوا عند الدخول عليكم في أوقات عوراتكم الثلاثة: من قبل صلاة الفجر؛ لأنه وقتُ خلع ثياب اليقظة ولبس ثياب النوم، ووقت الظهيرة، خلع الثياب للقيلولة، ومن بعد صلاة العشاء؛ لأنه وقت للنوم، وهذه الأوقات الثلاثة عورات لكم، يَقِلُّ فيها التستر، أما فيما سواها فلا حرج إذا دخلوا بغير إذن؛ لحاجتهم في الدخول عليكم، فهم طوافون عليكم للخدمة، ولأن العادة جرت بتردد بعضكم إلى بعض فيها لقضاء المصالح. كما بيَّن الله لكم أحكام الاستئذان يبيِّن لكم آياته وأحكامه وحججه وشرائع دينه. والله عليم بما يُصلح خلقه، حكيمٌ في تدبيره أمورهم، وإذا بلغ الأطفال منكم سن الاحتلام والتكليف بالأحكام الشرعية، فعليهم أن يستأذنوا إذا أرادوا الدخول في كلّ الأوقات كما يستأذن الكبار، وكما يبيِّن الله آداب الاستئذان يبيِّن الله تعالى لكم آياته. والله عليم بما يصلح عباده، حكيم في تشريعه، والعجائز من النساء اللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة لكبرهن، فلا يطمعن في الرجال للزواج، ولا يطمع فيهن الرجال كذلك، فهؤلاء لا حرج عليهن أن يضعن بعض ثيابهن كالرداء الذي يكون فوق الثياب غير مظهرات ولا متعرضات للزينة، ولبْسهن هذه الثياب - سترًا وتعففًا - أحسن لهن. والله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأعمالكم.

الهدايات المستنبطة:

١. تعيين الاستئذان في الأوقات الثلاثة؛ لأنها أوقات خلوة الرجال والنساء، وأوقات التعري من الثياب، وهي أوقات نوم.

---

(١) البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت: ١٤٢٥هـ): (٢/٩١).

٢. ولي الصغير، مخاطب بتعليم من تحت ولايته من الأولاًد، العلم والآداب الشرعية؛ لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ ﴾ ولا يمكن ذلك، إلا بالتعليم والتأديب.

٣. حفظ العورات، والاحتياط لذلك من كلّ وجه، وأن المحل والمكان الذي هو مظنَّةٌ لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهي عن الاغتسال فيه والاستنجاء، ونحو ذلك.

٤. وجوب استئذان الأولاد إذا احتلموا، على من يريدون الدخول عليه في بيته؛ لأنهم أصبحوا رجالاً مكلّفين.

* * *

إباحة الأكل من بيوت معينة دون إذن

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[النور: ٦١].

معاني المفردات:

﴿مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾: البيوت التي وُكِّلتم بحفظها في غيبة أصحابها.

﴿أَشْتَاتًا﴾: متفرقين.

سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمناهم[(١)]، ويقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما أحببتم، فكانوا يقولون: إنه لا يحلُّ لنا إنهم أذنوا من غير طيب نفس، فأنزل الله عز وجل ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ الآية [(٢)].

---

(١) الضمانة: الزمانة.

(٢) الهيثمي، كشف الأستار عن زوائد البزار: (٦١/٣)، قال الحافظ الهيثمي في المجمع: (٨٤/٧): ورجاله رجال الصحيح، وقال السيوطي في لباب النقول سنده صحيح.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى حُكم دخول المماليك والصبيان إلى البيوت في غير العورات الثلاث دون استئذان، ذكر هنا حكم تخلف أصحاب الأعذار عن الجهاد من غير استئذان، وحكم الأكل من البيوت المذكورة في الآية من غير إذن صريح؛ إذا عُلِم رضا أصحابها.

الإعراب والبلاغة

١. قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾: إطناب بتكرار لفظ الحرج؛ تأكيدًا وتقريرًا للحكم شرعًا.

٢. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من فاعل تأكلوا، وأشتاتًا عطف عليه، وهو جمع شتت(١).

٣. ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾: أي: على أهلها الذين هم منكم دينًا وقرابة، جعل أنفس المؤمنين كالنفس الواحدة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩](٢).

٤. ﴿تَحِيَّةً﴾: منصوب على المصدر من معنى فسلِّموا، فهو من باب قعدت جلوسًا فكأنه قال: فحيوا تحية.(٣)

٥. تكرار ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾: "لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختتمة به". (٤)

التفسير:

ليس على أصحاب الأعذار من العُمْيان وذوي العرج والمرضى إثمٌ في ترك الأمور الواجبة التي لا يقدرون على القيام بها، كالجهاد ونحوه، مما يتوقف على بصر الأعمى أو سلامة الأعرج أو صحة المريض، وليس على أنفسكم - أيها المؤمنون - حرجٌ في أن تأكلوا من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم، فيدخل فيها بيوت الأولاد، أو من بيوت آبائكم، أو أمهاتكم، أو إخوانكم، أو أخواتكم،

---

(١) الخطيب الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٢/٦٤٣).

(٢) نفس المرجع: (٢/٦٤٣).

(٣) نفس المرجع: (٢/٦٤٣).

(٤) نفس المرجع: (٢/٦٤٣).

أو أعمامكم، أو عماتكم، أو أخوالكم، أو خالاتكم، أو من البيوت التي وُكلتم بحفظها في غيبة أصحابها بإذنهم، أو من بيوت الأصدقاء، ولا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين، فإذا دخلتم بيوتًا مسكونة أو غير مسكونة فليسلِّم بعضكم على بعض بتحية الإسلام، وهي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، إذا لم يوجد أحد، وهذه التحية شرعها الله، وهي مباركة تُنْمِي المودة والمحبة، طيبة محبّبة للسامع، وبمثل هذا التبيين يبيِّن الله لكم دينه وآياته؛ لتعقلوها، وتعملوا بها.

الهدايات المستنبطة:

١. في هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلّية، وهي: أن "العرف والعادة مُخصصٌ للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ"؛ فإن الأصل أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، فكلّ مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه.
٢. وفيها دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره؛ لأن الله سمى بيته بيتًا للإنسان.
٣. وفيها دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان، كزوجته، وأخته، ونحوهما، يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد.
٤. وفيها دليل، على جواز المشاركة في الطعام، سواءً أكلوا مجتمعين، أو متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.
٥. لا إثم ولا حرج على أصحاب الأعذار في التخلف عن الجهاد، وهم الأعمى والأعرج والمريض، أي أن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر، وعن الأعرج فيما يشترط فيه المشي للتكليف به، وما يتعذر من الأفعال مع وجود العرج، وعن المريض فيما يؤثِّر المرض في إسقاطه كالصوم وشروط الصلاة وأركانها، والجهاد ونحو ذلك. [١].

---

(١) يراجع: للسعدي، تيسير الكريم الرحمن: (ص٥٧٦).

الاستئذان عند الخروج وأدب خطاب النبي ﷺ والتحذير من مخالفة أمره

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾ [النور: ٦٢-٦٤].

معاني المفردات:

﴿أَمْرٍ جَامِعٍ﴾: أمرٌ مهم من مصالح المسلمين جمعوا له.

﴿دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾: نداءكم له بأن تقولوا: يا مُحمد! ولكن قولوا: يا رسول الله!

﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾: يخرجون خفية بغير إذن، فينْسَلُّون قليلاً قليلاً، ليجعلوا ذهابهم في غاية الخفاء.

﴿لِوَاذًا﴾: يستتر بعضهم ببعض في الخروج، يقال: لاذ فلان بكذا إذا استتر به.

﴿فِتْنَةٌ﴾: محنة، وشر، وعذاب.

سبب النزول:

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانوا يقولون: يا مُحمد، يا أبا القاسم، فأنزل الله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾

فقالوا: يا نبي الله، يا رسول الله[1].

المناسبة:

بعد الأمر بالاستئذان عند الدخول، أمر الله تعالى بالاستئذان حين الخروج، لا سيّما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول ﷺ من صلاة جمعة، أو عيد، أو جماعة، أو تشاور في أمر مهم، ثم أمر المؤمنين بتعظيم النبي ﷺ ورعاية الأدب في مخاطبته، وحذرهم من مخالفة أمره وسنته وشريعته.

الإعراب والبلاغة

١. ﴿قد يعلم الله﴾: دخول قد على الفعل المضارع هنا يفيد التحقيق والتكثير.
٢. قوله تعالى: ﴿لواذًا﴾ حال، أي: ملاوذين.
٣. "الضمير في أمره لله؛ لأنه يليه، وقال الجلال المحلي: "أي: الله ورسوله وكلّ صحيح، فإن مخالفة أمر أحدهما مخالفة أمر الآخر" [2].

التفسير:

إنما المؤمنون حقًّا هم الذين صدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بشرعه، وإذا كانوا مع النبي ﷺ على أمر جمعهم له في مصلحة المسلمين، لم ينصرف أحد منهم حتى يستأذنه، إن الذين يستأذنونك - أيها النبي - هم الذين يؤمنون بالله ورسوله حقًّا، فإذا استأذنوك لبعض حاجتهم فَأْذَن لمن شئت ممن طلب الإذن في الانصراف لعذر، واطلب لهم المغفرة من الله. إن الله غفور لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم.
لا تقولوا - أيها المؤمنون - عند ندائكم رسول الله: يا مُحمد، ولا يا مُحمد بن عبدالله، كما يقول ذلك بعضكم لبعض، ولكن شرِّفوه، وقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله. قد يعلم الله المنافقين الذين يخرجون من مجلس النبي ﷺ خفية بغير إذنه، يلوذ بعضهم ببعض، فليَحْذَر الذين يخالفون أمر رسول الله أن

(١) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم (٨/٢٦٥٤).
(٢) الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٢/٦٤٥)، وجلال الدين مُحمد بن أحمد المحلي (ت: ٨٦٤هـ)، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تفسير الجلالين، ط. دار الحديث - القاهرة، ط. أولى: (ص٤٦٩).

تنزل بهم محنة وشر، أو يصيبهم عذاب مؤلم موجع في الآخرة.

ألا إن لله ما في السماوات والأرض خلقًا وملكًا وتدبيرًا، قد أحاط علمه بجميع ما أنتم عليه، ويوم يرجع العباد إليه في الآخرة، يخبرهم بعملهم، ويجازيهم عليه، والله بكلّ شيء عليم، لا تخفى عليه أعمالهم وأحوالهم.

الهدايات المستنبطة:

١. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾، أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمة؛ لأن من السنة أن يكون لكلّ اجتماع إمام ورئيس يدير أمر ذلك الاجتماع.

٢. أوجبت الآية الاستئذان في الأمر الجامع، وهو ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة، من إقامة سُنَّةٍ في الدين، أو لترهيب عدوّ باجتماعهم، وللحروب.

٣. قوله تعالى: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾، دليل على التفويض إلى الرسول ﷺ أو الإمام المجتهد بعض أمر الدين؛ ليجتهد فيه برأيه النابع من أصول الشريعة وروح التشريع، والمنسجم مع المبادئ الشرعية.

* * *

أنشطة / ملف الإنجاز

أنشطة

١. ناقشي كيف نربط بين الآيات الكونية الواردة في السُّورة وبين الأحكام الواردة فيها؟

ملف الإنجاز

١. اكتبي بحثًا حول بلاغة التذييل في سورة النور.

٢. اكتبي بحثًا عن روائع التشبيهات في سورة النور.

٣. اكتبي بحثًا حول دقائق مسائل الإعراب في السُّورة.

٤. اجمعي القراءات الواردة في السُّورة مع توجيهها.

مصادر التعلم:

١. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي.

٢. البحر المحيط، لأبي حيان.

٣. روح المعاني، للألوسي.

٤. روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، للصابوني.

التقويم:

س١- قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور: ١-٣].

بيني معنى سورة وإعرابها؟ وما نوع الفاء في فاجلدوا؟ ولماذا جاء التعبير بالرأفة ولم يقل ولا تأخذكم بهما رحمة؟ وما سرُّ حذف جواب الشرط في الآية الثانية؟ ولماذا خصَّ الإيمان بالله واليوم الآخر؟ وما الحكمة في الإشهاد؟ ولماذا خص المؤمنين؟ وما حكم زواج العفيف للزانية؟ وما سبب نزول الآية الثالثة؟ وما الحكمة من تحريم ذلك الزواج؟ وما حكمة تحريم الزنا؟ وما هي الغاية من إقامة الحد؟

س٢- قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النور: ٢٢-٢٦]:

ما نوع لا في (ولا يأتل)؟ وما سبب نزول هذه الآية؟ وما صلتها بما قبلها؟ وما معنى هذا الوصف (أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ)؟ وما معنى الصَّفْح؟ وما معنى (الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ) ولماذا استحق القاذف هذه العقوبة؟

س٣- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾إلخ الآية. بيِّني صلة هذه الآيات بما قبلها، وماذا أفاد النداء بصيغة الإيمان؟ وما نوع (لا) وإعراب (بيوتًا)؟ ولماذا جاء التعبير بـ ﴿حتى تستأنسوا﴾، ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا﴾؟ وما المراد بالبيوت غير المسكونة؟ وهل الاستئذان فقط لمن خارج البيت؟ وما هي الحكمة من الاستئذان؟